أوشو OSHO

التسامح

رؤيا جديدة تزهر الحياة

ترجمة د. علي حداد



علي مولا

التسامح

Compassion

التسامح

تأليف: **أوشو**

ترجمة: **د. علي الحداد**



للطباعة والنشر والتوزيع

بناية يعقوبيان بلوك ب طابق 3 ـ شارع الكويت
المنارة ـ بيروت ـ 2036 6308
لبنان ـ تلفاكس: 009611-740110

E-mail: alkhayal@inco.com.lb

الاخراج والتنفيذ دار الخيال **للطباعة والنشر والتوزيع**

الطبعة الأولى 2011

أوشـــو

التسامح

قمة تزهر الحياة، رؤية جديدة للحياة

ترجمة: د. علي الحداد



المقدمة

متى أدركنا معنى الشغف، فلن يكون صعباً إدراك العطاء أو التسامح. فالشغف حالة جسدية مادية، إنها خضوعك لسيطرة الجسد دون وعي للنتائج... تعني أنك لست سيد نفسك بل عبداً لانفعالك.

التسامح يعني أنك تجاوزت حاجات الجسد وتخطيت كل الحواجز النفسية، يعني إنك تحررت من عبودية الجسد، وأصبحت سيد نفس. وهكذا صرت تتصرف بوعي، غير خاضع لقوى خارجية هي تحدد قرارك. أنت الآن حر التصرف بكامل طاقتك، وهكذا صار بمقدورك تحويل الشغف إلى عطاء.

الشغف شهوة، العطاء حب. الشغف رغبة، العطاء انفتاح. الشغف طمع، العطاء مشاركة. الشغف يدعوك لاستغلال الآخرين، فيما العطاء يجبرك على احترامهم. الشغف يبقيك ملتصقاً بالأرض، يبقي قدميك غارقتين في الوحل وهكذا لن تصبح زهرة لوتس، لا اليوم ولا غداً، فيما العطاء يجعلك هذه الزهرة، فيمنحك قوة النمو وتخطي طبقات التراب وتجاوز عالم الرغبات والطمع، عالم الأنانية والغضب. العطاء تحول في مسار طاقتك.

في الواقع، أنت إنسان مقدس ينبعث مثل العطر، غير أن الغضب

يستهلك بعضاً من طاقتك، كذلك يفعل الطمع، والشهوة أيضاً... هكذا تستهلك طاقتك سدىً. الرغبات والشهوات تسيطر عليك، تدمر قدراتك وطاقاتك، وتبقيك إنساناً فارغاً تافهاً.

تذكر ما قال وليم بليك: «الطاقة هي البهجة»، غير أنك استهلكت كل طاقاتك، فكيف ستشعر بالبهجة والفرح؟ أما حين تحسن استغلال طاقاتك فهذا يعني أن حياتك ستمتلىء بالفرح، يعني أن فيضاً من البهجة سينطلق منك. يعني أنك ستصبح بوذا آخر.

إنما لن تصبح بوذا آخر، إلا بعد اختبار معنى العطاء... إنه الحب الدافىء، إنه مشاركة الآخرين الفرح والسرور. إنه إشراك الآخرين في وجودك، أنت الآن مبارك ويمكنك منح الآخرين. هذا هو العطاء.
الشغف لعنة والعطاء نعمة.

الشفقة - الطاعة - الرغبة

في سن مبكرة أصبح بوذا متنوراً، مالكاً أسرار الحياة، قادراً على إيجاد الحلول للمشاكل، وبالرغم من هذا، عاش بعدها أربعين عاماً، كان الناس، خلالها، يتساءلون «لماذا ما يزال بوذا متجسداً؟ لماذا ما يزال يسكن جسده؟ فلا حاجة لوجود إنسان ما، لا عمل له، فمن غير المنطقي أن يستمر هكذا إنسان ساكناً جسده ولو للحظة واحدة، ولماذا يستمر طالما لم تعد لديه رغبات. الرغبة والجسد مثلاً: «إن، توأمان لا ينفصلان، لكن رغبات بوذا تلاشت، لم يعد لديه رغبات، إذاً كيف بمقدوره أن يحيا؟»).

هناك أمر مهم يجب فهمه، تلاشي الرغبة، لا يعني اضمحلال الطاقة. الطاقة باقية، وما الرغبة إلا شكل من أشكال الطاقة، ولهذا بمقدورك تحويل طاقتك من شكل إلى آخر. بمقدورك تحويل الغضب إلى إحساس بالرغبة الجنسية، أو تحويل هذه الرغبة إلى جشع. الإنسان الطماع الجشع هو أقل ميلاً للجنس، وكلما ازداد جشعه، كلما اختفى ميله نحو الجنس، فيعيش حياة الإنسان المتبتل، لأنه يستغل كل طاقته من أجل تحقيق أطماعه. كذلك إذا ما التقيت إنساناً شهوانياً، فاعلم أن لا أطماع لديه، لأنه استنفذ كل طاقته في

شهوانيته، ولم يترك ولو جزءاً قليلاً، لاستغلالها في تحقيق أطماعه، وإذا ما أصيب إنسان بإحباط جنسي، يتملكه الغضب. الإحباط الجنسي يتحول إلى غضب يتبدى واضحاً في نظراته وعلى قسمات وجهه.

لهذا السبب ترى ما تسميهم رهباناً أو ساوهوس، يعيشون في غضب دائم، يبدو في طريقة مشيهم، في حركات أجسادهم كل ما يفعلونه يعبر عن الغضب، حتى صمتهم. ما إن تحاول لمس جسدهم حتى ينفجرون غضباً. تحول الجنس إلى غضب. إنها الطاقة التي تتحول من شكل إلى آخر. الحياة طاقة.

ماذا يحدث حين تتلاشى الرغبات ولا يعود لها وجود؟ هل تضمحل الطاقة؟

لا... فالطاقة تبقى، الطاقة غير قابلة للاضمحلال، إسأل علماء الفيزياء، إسأل الأطباء. الجواب واحد، يستحيل أن تدمر الطاقة. بوذا، بعد أن أصبح متنوراً، كان يمتلك طاقة خاصة، طاقة جد مميزة، طاقة قابلة لبعث الرغبة الجنسية، لتفجير الغضب، لتغذية الطمع، طاقة قابلة لتعبر عن ذاتها بألف شكل وشكل، ولكن كل هذه الأشكال اختفت لم يعد لها وجود، إذاً ماذا حلّ بالطاقة؟ هل اختفت؟ لا... فالطاقة دائمة الوجود، وحتى الرغبة لا تختفي كلياً، بل تأخذ شكلاً آخر. ما وظيفة الطاقة إذاً؟ لقد تحولت إلى شفقة، إلى حنان، إلى رحمة.

ليس بمقدورك أن تكون رحوماً، حنوناً، شغوفاً، متسامحاً ولا طاقة لديك. طاقتك، كل طاقتك، قد تتوزع إلى قنوات متنوعة. الجنس أحياناً، الغضب أحياناً أخرى، وكذلك الطمع. الشفقة، ليست شكلاً من أشكال الطاقة. فقط حين تتلاشى كل الرغبات والشهوات، حين لم يعد للجسد حاجات، تتحول طاقتك، كل

طاقتك إلى شفقة، إلى حنان، إلى رحمة.

ليس بمقدورك تغذية هذا الإحساس، الإحساس بالشفقة، بالحنان، بالرحمة، لأنه ليس شكلاً من أشكال الطاقة. إنه الإحساس الناتج عن اختفاء كل الرغبات والشهوات والنزوات. للرغبات دوافعها وأهدافها، بينما ليس للإحساس بالشفقة دافع ولا هدف، بكل بساطة إنه فيض الطاقة.

للرغبات دوافعها وأهدافها، بينما ليس للإحساس بالشفقة دافع ولا هدف، بكل بساطة إنه فيض الطاقة.

الشفقة هي الحب

إصرار بوذا على الشفقة، شكل ظاهرة جديدة، وأعطاها معنى أبعد بكثير من كل المعاني التي أعطيت لها في ما مضى. اعتبر بوذا منعطفاً تاريخياً، خطاً فاصلاً بين الماضي والحاضر والمستقبل. قبله كان التأمل... وحده التأمل كان يكفي، لم يسبق لأحد أن قال بضرورة اندماج التأمل مع الإحساس بالشفقة، الحنان أو الرحمة. كانوا يؤمنون، أن التأمل يؤدي إلى التنور، إلى التزهر، إلى قمة التعبير عن الذات ـ وماذا نريد أكثر؟ طالما الفردية هي الأساس، فالتأمل يكفي، عظمة بوذا بقوله، ضرورة الإحساس بالشفقة، قبل البدء بالتأمل، عليك أن تكون محباً، أكثر إنسانية، أكثر حنواً ورحمة.

هناك سر خفي خلف هذا المفهوم، إذا كان لديك قلب مفعماً بالحب، قبل أن تصبح متنوراً، فهذا يعني إمكانية، أنه بعد التأمل، ستساعد الآخرين لتحقيق هذا الجمال، إلى السمو والتعالي، وللوصول إلى ما وصلت إليه؟ بوذا قال بإمكانية العدوى بالإحساس بالشفقة، الحنان والرحمة.

حتى ولو شعر إنسان ما أنه عاد إلى ذاته، فلماذا يهتم بالآخرين؟ لأول مرة، تمكن بوذا من نزع صفة الأنانية عن التنور. إنه تحول رائع

في النظرة إلى التأمل ومفهومه. إنما لا بد من ممارسة الشفقة قبل الوصول إلى حالة التنور. إن لم تكن الشفقة قبل التنور، فلن تكون بعده. حين يصبح أحد مغرماً بذاته، فمن المستحيل أن يعرف الفرح، لن يعرف أي نوع من أنواع الابتهاج. لهذا السبب، هناك مئات المتنورين، إنما هناك قلة من المعلمين ذوي الأتباع.

أن تصبح متنوراً، لا يعني بالضرورة، أنك معلم لك أتباع ويقصدك المريدون. أن تصبح معلماً، فهذا يعني أنه لديك فيض من الشفقة والرحمة والحنان وتخجل من نفسك إن لم تفض على غيرك مما عندك. يعني أن عليك مساعدة العميان ليتلمسوا طريقهم، وهكذا تشعر بفرح عظيم لا بالانزعاج. بالفعل، ستشعر بانتعاش داخلي يصعب وصفه، أنت لم تعد وحدك، هناك آخرون تتفتح أزهارهم، وهم حواليك، وستشعر أنك لست الشجرة الوحيدة التي أزهرت في غابة. حين تزهر كل أشجار الغابة، سينمو الفرح في الداخل ويتضاعف آلاف المرات، لأنك استغليت تنورك لإحداث ثورة في العالم. ثورة لن يكتب عنها المؤرخون العسكريون، بل سيذكرها أولئك الذين أفضيت عليهم من نورك.

غوتاما بوذا، لم يكن متنوراً وحسب، بل محرضاً على ثورات تنويرية. انغمس في حب الناس والعالم. كان يقول لتلاميذه ومريديه، حين تتأملون، وتصلون مرحلة الصمت، مرحلة الانتشاء، وتشعرون بالفرح في أعماق ذواتكم، لا تعتقدوا أبداً أنكم بلغتم مرحلة الانبهار، بل حين تعطون الآخرين مما عندكم بدون خوف أو تلف، بل كلما ازداد عطاؤكم كلما أعطيتم أكثر. وما أروع العطاء حين تعلمون، أن عطاءكم لا يعني أبداً أن أحداً أخذ شيئاً منكم، على العكس إنه يضاعف تجربتكم الحياتية، ولكن الذي هو غير شفوق ولا رحوماً، لن يعرف سر العطاء.

حدث، أن أحد أتباع بوذا، لم يكن راهباً هندوسياً، لكنه نذر نفسه من أجل بوذا ـ حدث أن قال «سأفعل ما تقول، غير أني أرغب في جعل استثناء واحد. سأعطي كل فرحي، وكذلك تأملي، وكل الكنوز التي في داخلي لجميع العالم باستثناء جاري، لأنه إنسان مقرف ولا يستحق أن يعطى».

العطاء، يعني أن تتقبل الناس كما هم، بضعفهم وعجزهم، ولا تتوقع أنهم سيتصرفون كآلهة، فتوقعك هذا، نوع من الإجرام.

الجيران هم الأعداء دائماً. قال بوذا واستطرد: «إذاً إنس العالم كله، وأعطِ جارك فقط».

إندهش التلميذ مما سمع وصار في حيرة من أمره فصاح «ما الذي تقوله؟».

نظر بوذا إليه والابتسامة على شفتيه: «إذا كان بمقدورك أن تعطي جارك، فهذا يعني أنك ستتحرر من ميلك العدائي نحو الجنس البشري».

العطاء، يعني أساساً، أن تتقبل الناس الذين لا إرادة لهم، أن تتقبل خوف هؤلاء ولا تتوقع أنهم سيتصرفون كآلهة. توقعك هذا، نوع من الإجرام، لأنهم لن يكونوا قادرين على التصرف كآلهة، وإلا سيسقطون ويضلون الطريق، وهكذا تكون ارتكبت جريمة بحق هؤلاء، لأنك كبلت أرجلهم وأذيت كراماتهم.

من أهم مبادئ العطاء، أن تحافظ على كرامة أي كان، أن تجعل أياً كان يعي، أن ما حدث معك قد يحدث معه. التنور ليس شيئاً يحفظ ويحترم، إنه طبيعة ذاتك.

مثل هذا الكلام يجب أن يصدر عن إنسان متنور، ليكون محط ثقة. أما إذا صدر عن إنسان غير متنور، فلن يهتم به أحد. الكلام الذي يتفوه به المتنور، ينبعث من عمق صدر قائله، وينفجر حباً من

ذاته. إنه الحياة، ويدخل إلى قلبك مباشرة. إنه ليس ثرثرة عقلية. أما مع التلميذ، فالأمر مختلف، إنه بحد ذاته ليس مقتنعاً بما يقول ولا بما يكتب عنه. إنه ضائع مثلك.

يعتبر بوذا مميزاً في تقديره للوعي، توجهاته التنويرية لا حدود لها، والتزامه في العطاء يشكل المبدأ الأساس في حياته، ولكن عليك أن تتذكر، أن كونك معطاء لا يعني أنك وصلت مرحلة السمو وإلا تكون قد أفسدت كل شيء، وإلا تكون قد تعبدت لذاتك، وتذكر أيضاً، أن عطاءك لا يسمح لك بإذلال الآخرين وإلا تكون قد انتقصت من قيمة العطاء، وتتمتع بإذلال الآخرين، بدلاً من إعطائهم للحفاظ على كراماتهم.

يجب علينا إدراك معنى العطاء، الذي هو الحب الذي ينمو عبر السنوات وينتقل من جيل إلى جيل. الحب فكرة صبيانية، وهو ما يحلم به المراهقون، وكلما كبرت بعيداً عن هذا الإحساس كلما كان خيراً لك. الحب قوة بيولوجية عمياء، ولهذا نرى قصص الحب مملوءة بأشياء متناقضة، بأشياء غريبة. هناك من يموتون من أجل من يحبون. الحب قوة عمياء. العشاق الخالدون، هم العشاق الذين لم يتمكنوا من متابعة الحياة مع من أحبوا، وحدهم العشاق الذين عانوا من الحب وتعذبوا هم الخالدون. مجنون ليلى، جميل وبثينة، شيري وفرهاد، صوفي وماهيكال. كل هذه قصص شرقية، وفي المقابل هناك قصة روميو وجولييت عند الأوروبيين. كل هؤلاء العشاق اشتهروا لأن حبهم لم يثمر، بل انتهى بمأساة، بسبب العادات والتقاليد والأهل إضافة إلى موانع أخرى من صنع بني البشر. وأعتقد جازماً، أنه لو أثمر الحب في هذه القصص، ولو تزوج الحبيب حبيبته، لما وصلت إلينا هذه القصص...

من حسن حظ مجنون ليلى أنه لم يقترن بحبيبته ليلى، إذ ما الذي

حين تصبح العاطفة أكثر وعياً وإدراكاً، تتحول كل طاقة الحب إلى نقاء، إلى عطاء.

كان سيحدث لو التقت قوتان مصابتان بالعمى؟ كل منهما كان أعمى البصيرة وغير واع، فماذا ستكون النتيجة؟ لا تناغم ولا تجانس، النتيجة ستكون ساحة معركة، كل منهما يحاول إحراز النصر للسيطرة على الآخر وإذلاله. النتيجة ستكون قتل الوقت في حل المشاكل.

الحب هو لشخص واحد ورغبة جامحة للحصول على هذا الإنسان، وهكذا يعيش الإثنان معاً في جحيم سببه الحب. القوة العمياء.

بساطة، إنسانيتك. العطاء إحساس نابع من عمق الذات إنه انجذاب، ليس نحو إنسان معين. إنه مانح الشعور بالفرح، انجذابك نحو الأشجار قد يدخل السعادة إلى حياتك، أو نحو الطيور، أو نحو الحيوانات أو نحو البشر... إنه الانجذاب غير المشروط. هكذا يكون العطاء، دون التفكير أو السؤال عما سنجنيه. العطاء هو التحرر من العمل الجسدي.

قبل أن تصبح متنوراً، عليك أن تبقى يقظاً من أن طاقة الحب لديك، لم تكبت. تعلمك الديانات القديمة أن تكبت مشاعرك، أن تخنق حبك، أن تميت جسدك. وهكذا تكون تقضي على طاقة الحب، هذه الطاقة التي قد تتحول إلى عطاء.

بوجود الكبت، تنتفي أي إمكانية تحول، وهكذا يكون القديسون بلا رحمة، بلا شفقة، بلا حنان، حدق في عيونهم، فلن ترى شيئاً من هذا القبيل. إنهم هياكل بشرية عظمية، لا لحم يكسوها ولا عروق يجري الدم فيها. تمضية أربع وعشرين ساعة مع قديس كافية لتعرف معنى العيش في الجحيم. ولربما يعي الناس هذا الأمر. لذا ينحنون أمامهم ـ أمام القديسين ـ يلمسون أقدامهم

الاقتراب من القديسين كالعيش في الجحيم، لذا ينحني البشر أمامهم، ويفرون مسرعين.

ويسرعون في الابتعاد عنهم.

برتراند راسل، أحد ألمع فلاسفة القرن العشرين، قال: «لو كان هناك جحيم ونعيم، لاخترت الذهاب إلى الجحيم». ورداً على سؤال لماذا اخترت الجحيم؟ قال «لأتجنب رؤية القديسين. ولا شك فالنعيم سيكون مملوءاً بمثل هذه الأجساد العثة وبالقديسين الأغبياء». وعندما نسأله لماذا؟ يجيبك قائلاً: «أعتقد أني لست قادراً على تحمل معاشرة هؤلاء ولو لدقيقة واحدة. أو تخيل نفسي محاطاً إلى الأبد، بتلك الأجساد التي ما عرفت الحب يوماً، التي ما عرفت معنى الصداقة، ولا أمضت يوم عطلة في حياتها».

القديس هو قديس على مدار أيام الأسبوع، ليس مسموحاً أن يرتاح من «قدسيته» ولو ليوم واحد في الأسبوع، حتى يوم الأحد ليتمتع به كإنسان عادي، على العكس يبقى إنساناً قاسي القلب وقساوة القلب هذه تزداد مع الأيام.

إني أقدر اختيار برتراند راسل للجحيم، لأني أفهم دوافعه وما يرمي إليه اختياره هذا. فهو يريد القول: «في الجحيم ستجد بشراً مفعمين بالحيوية، ستجد الشعراء ،الرسامين والنوار العلماء والبشر المبدعين والراقصين والممثلين والمغنين والموسيقيين. فالجحيم يجب أن يكون النعيم، لأن النعيم هو لا شيء، بل جحيم».

تجري الأشياء نحو الوقوع في الخطأ. والسبب الرئيسي لهذا، هو أن طاقة الحب، مكبوتة. لهذا يقول بوذا: «لا تكبت طاقة الحب.. بل أجعلها نقية صافية، من خلال التأمل». وهكذا، كلما تعمقت في التأمل، كلما جعلت طاقة الحب، أكثر نقاء، وأكثر صفاء لتتحول إلى عطاء. هكذا حين تصل في تأملك إلى الذروة، إلى مرحلة

اكتشاف الجمال، تكون قد اقتربت من العطاء، وسيكون من الممكن للرجل المتنور السماح لطاقته بالفيض ـ إنه الآن يمتلك كل طاقات العالم ـ من خلال رغبته في إعطائه له. وحده هذا النوع من البشر يحق لنا أن نسميه بالسيد المعلم.

من السهل أن تصبح متنوراً، لكن، أن تصبح سيداً معلماً، فهذا يتطلب الكثير، يتطلب التأمل والعطاء. التأمل وحده عملية سهلة، وكذلك العطاء. أما أن يلتحم الإثنان معاً، ومعاً ينموان فهذه مسألة جد معقدة.

إنما أولئك الذين يصلون مرحلة التنور، ولا يشاركون أحداً في تجربتهم بسبب عدم إحساسهم بالعطاء، فهؤلاء لا يساعدون إنماء الوعي والإدراك ولا يرفعون مستوى الجنس البشري. وحدهم الأسياد المعلمون قادرون على إنماء الوعي. حتى لو كان لديك القليل من الوعي، فهم قادرون على جعل هذا القليل كثيراً، وأكثر مما تتصور وتتخيل، ويجعلونك تفيض بالنور.

إنه من الصعب عليك أن تفهم ما أقول... لكن المتنور يدرك تماماً معنى ما أقول، لأنه على استعداد لتناسي العالم بأسره. لأنه مقتنع كلياً، أن لا وقت لديه للتفكير بأولئك الملايين الذين يزحفون نحو هدف واحد. عن علم أو من غير علم بغض النظر إن كانوا مخطئين بفعلتهم أم محقين. في وجود العطاء يستحيل عليك عدم التفكير بأولئك الآخرين. إنها اللحظة المناسبة لإعطاء شيء من الأشياء التي لديك. إنها اللحظة المناسبة لمشاركة الآخرين ما عندك. والمشاركة هي الفرح، ومن خلال العطاء، تعرف، ولو رويداً رويداً، أنك كلما أشركت الآخرين بما تملكك كلما ازداد ما عندك. إذا كنت قادراً على مشاركة الآخرين في تنورك، فإنك بفعلتك هذه، تعني تنورك، تحييه مجدداً، تمنحه أبعاداً احتفالية جديدة.

قد يكون التنور أحادي البعد، وهذا ما يحدث للعديد من البشر الذين يقتنعون بهذا البعد الواحد، وهكذا لا شيء يميزهم عن غيرهم من البشر الذين يعبرون الطرقات جيئة وإياباً. وهكذا، لا أحد يدل عليهم على أنهم مميزون. الحقيقة أن التنور، هو متعدد الأبعاد، وهكذا يكون قادراً على إغنائكم بشتى أنواع الأزهار وتكونون مدينين بشيء لهذا العالم، لأنكم أبناء وبنات هذه الأرض.

اسمحوا لي أن أذكركم بما قاله زارا توسترا: «لا تخدعوا الأرض؛ حتى وأنتم في قمة المجد، لا تحاولوا ذلك، ولا تنسوا أن هذه الأرض هي أمكم، كذلك لا تنسوا أن هناك آخرين غيركم قد يكون بينهم من يحاول إعاقة ثمركم، قد يكون بينهم أعداء لكم، حاولوا بشتى الطرق والوسائل تدميركم، وأجرموا بحقكم، وأرادوا لكم الوقوع في أفخاخ الشر والرذيلة، من قد يكون بينهم، من يتمنى الموت لكم؛ واعلموا أنهم مهما فعلوا، ومهما أساءوا إليكم، فإنهم فعلوا ذلك عن غير وعي، عن غير قصد، فإذا كنتم أنتم غير قادرين، أو راغبين، على مسامحتهم، فمن يسامحهم إذاً؟ واعلموا أيضاً، أنكم في مسامحتكم لهم، تكسبون ثواباً وترتقون إلى قمم السمو الأخلاقي».

فكروا في أنكم لم تساهموا في شيء قد يقف حجر عثرة في وجه العطاء: في تنمية روح الحسد والغيرة، المنافسة، الرغبة في السيطرة على الآخرين، وأمثال هذه التي تحول دون الإحساس بلذة العطاء. وتذكروا أيضاً، أنكم أنتم قد تفعلون أشياء، ولو عن غير قصد، تفسد أعمالكم، وتذكروا أن هناك أشياء تافهة، لا تعطيكم سوى القلق، الأنانية، الصراع مع الآخرين، والرغبة في الحصول على أجمل وأغلى ما في الحياة. إعلموا أن مثل هذه قد تدمر ما تمتلكون من حياة...

اسمحوا لي أن أروي لكم هذه القصة الجميلة:

عاد بادي ذات ليلة إلى منزله قبل ساعة من موعد عودته، فوجد زوجته في السرير عارية، عارية من كل شيء، حتى من ثيابها الداخلية. تعجب، لم يعهد أن رآها هكذا في ما مضى، فسأل عن السبب، وبعفوية أجابت: «احتجاجاً على إهمالك لي، ولأني لا أمتلك ثياباً جميلة كي أرتديها».

مد بادي يده وفتح خزانتها: «هذا رائع»، قال: «انظري كم هو رائع هذا الرداء الأصفر، أو هذا الأحمر، أو هذا المتعدد الألوان» كان يقلب ثيابها رداء بعد آخر.

«هاي بيل» قال بادي وتابع تقليب ثياب زوجته.

هذا هو العطاء المتسامح، العطاء لزوجته، العطاء لـ «بيل». لا غيرة، لا خناق، بكل بساطة نظر إلى بيل «هاي بيل كيف حالك اليوم»؟ وأدار ظهره ومضى خارجاً دون محاولة الاستفسار «ماذا تفعل في خزانتي يا بيل»؟

العطاء هو التفهم... إنه قمة التفهم الذي قد يصدر عن رجل.

الرجل المتفهم، هو من لا تزعجه أمور الحياة التافهة، هو من لا يشغل باله بالأمور الصغيرة التي تحدث كل يوم، أو لنقل في كل لحظة. هكذا إذاً، تكونون، وبطريقة غير مباشرة، تنمون طاقات عطائكم، وتسعون لتتراكم وتزهو: فلتصبح أكثر فعالية، أكثر قدرة وتشرق بتأملكم، حتى إذا ما جاءت لحظة التسامح، وأنتم مشبعون بالنور، يكون عندكم رفيق... رفيق واحد: العطاء. وتشعرون فوراً بنمط حياة جديد... لأنكم، تمتلكون، الآن، الكثير، مما يمكنكم من مباركة العالم بأسره.

لقد أراد غوتاما بوذا، بإصرار كلي، على تصنيف تلامذته وجعلهم في فئات، وفقاً لمواصفات كل واحد منهم. فئة أطلق

عليهم اسم «أرهاتاس» وتضم أولئك الذين بلغوا مرحلة التنور، إنما لم يصلوا بعد إلى مرحلة التسامح والعطاء. استغلوا كامل طاقاتهم في التأمل، لكنهم لم يصغوا إلى ما قاله بوذا عن التسامح والعطاء. الفئة التالية «بودهيزاتقاس» وتضم الذين أصغوا إلى كلام بوذا، وهم متنورون متسامحون معطاؤون إنما ليسوا بعجلة من أمرهم للعبور إلى الضفة الأخرى من نهر الحياة، إنهم يريدون البقاء مكانهم، لمساعدة الناس بالرغم من كل ما قد يعترضهم من معوقات. لقد وصل القارب الذي سيقلهم ويعبر بهم من ضفة إلى أخرى، ولربما هم يسمعون الربان يناديهم: «لا تضيعوا الوقت، ها هي الضفة الأخرى التي طالما سعيتم للوصول إليها، ها هي تدعوكم». غير أنهم أقنعوا الربان أن يتريث قليلاً، حتى يكون بمقدورهم مشاركة الآخرين الذين يملكون التطلعات ذاتها، الفرح، الحكمة، والنور، وهذا ما يزيدهم ثقة بالنفس ويغني تجربتهم. «نعم هناك خطة أخرى، وحين يصبح أي واحد مستعداً سيكون القارب بانتظاره لنقله إلى الضفة الأخرى. ضفة الخلود. نعم هناك ضفة أخرى حيث لا وجود للحزن، حيث حياة البساطة وحياة الغناء والرقص والبهجة، ولكن دعوني أعطي أولئك الناس ولو شيئاً قليلاً من نكهة الحياة قبل مغادرة هذا العالم».

يحاول المعلمون الأسياد، بشتى الطرق، التعلق بأشياء لن يأخذوها معهم إلى الضفة الأخرى. بالنسبة لبوذا، التسامح هو أفضل هذه الأشياء، أما لماذا؟ فلأن التسامح هو نوع من أنواع الرغبة أيضاً. نعم إنه هكذا. التفكير بمساعدة الآخرين هو رغبة أيضاً، وطالما المرء متمسكاً بالرغبة، فهذا يعني عدم قدرته على الانتقال إلى الضفة الأخرى. هناك خيط رفيع يبقيك متصلاً بالعالم، كل شيء سيتكسر، كل السلاسل ستتحطم، باستثناء خيط رفيع من الحب. لذا يلح بوذا على ضرورة الاستمرار بالتمسك بهذا الخيط الرفيع، طالما

أنت قادر على ذلك. وأن عليك مساعدة أولئك الذين يمكنك مساعدتهم.

تنورك، يجب ألا يكون بدافع الأنانية، بل يجب أن يكون أنت كلياً، وعليك أن تتشارك فيه مع أكبر عدد ممكن من الناس. هذه هي الطريقة الأفضل والأسمى لنشر الوعي على الأرض. الأرض التي أعطتك الحياة، ومنحتك الفرصة لأن تصبح متنوراً.

هذه هي اللحظة التي تفرض عليك أن تعيد شيئاً، ذلك لأنك غير قادر على إعادة كل شيء أعطتك الحياة إياه. غير أن رد شيء بسيط ولو زهرتين. زهرتان فقط، إنه لفعل عظيم.

التأمل هو الزهرة والتسامح هو العطر

فعلاً هذا ما يحدث في الحياة. الزهرة تتفتح، والعطر ينتشر محمولاً على أكف الريح في كل الاتجاهات، إلى أقاصي الأرض، إلى أبعد نقطة على الأرض. إنما كل شيء متوقف على تفتح الزهرة.

حتى البشر يمتلكون القدرة على التزهر. ولكن، إن لم تزهر ذات الإنسان، فمن المستحيل أن ينتشر العطر، عطر التسامح والعطاء. ولن يختبر أحد رائحته. إنه ليس نظاماً، وليس بمقدورك تدبر أمره. إنه أبعد... أبعد بكثير مما تعتقد أو تتخيل. إذا مارست التأمل يوماً، وفجأة، أصبحت واعياً لظاهرة جديدة، ظاهرة غريبة كلياً، تنبع من ذاتك، هذا يعني أن التسامح يفيض باتجاه جميع أنحاء الوجود، وبلا توجيه، بلا تحديد لمساره، ينتشر إلى أبعد حدود الوجود.

بلا تأمل، تبقى الطاقة نوعاً من العاطفة، ومن خلال التأمل تتحول هذه الطاقة إلى تسامح. إلى عطاء. العاطفة والعطاء ليسا طاقتين منفصلتين، بل طاقة واحدة، حالما نعبر مرحلة التأمل تتحول، تتخذ شكلاً جديداً، وتظهر بنوع مختلف جداً عما كانت عليه.

بلا تأمل، تبقى الطاقة نوعاً من العاطفة، ومن خلال التأمل تتحول هذه الطاقة إلى تسامح. إلى عطاء. العاطفة والعطاء ليسا طاقتين منفصلتين، بل طاقة واحدة.

العاطفة تتجه نحو الأسفل، والتسامح، يتجه نحو الأعلى. العاطفة تتحرك ضمن الرغبة، التسامح يتحرك بعيداً عن الرغبة. العاطفة، تلهيك عن المآسي التي تعاني منها. التسامح احتفال رائع إنه رقص على إيقاع الحياة، إنه الامتلاء بالفيض، بالنور الذي يمكنك مشاركته الآخرين.

الآن لم يتبقَ شيء، لقد وصلت إلى ما كنت تتمناه وترغب الحصول عليه، وعرفت أنه، طالما لم تزهر، فهذا يعني أنك أشبه بالبرعم، الذي ما إن ينفتح، حتى يفوح عطرك، حتى تنتشي من الرقص على أنغام الحياة. لقد تكلل سعيك بالنجاح، أصبحت ممتلئاً بالنور، لم يعد هناك شيء لتصبو إليه، فما عليك إلا الانطلاق، لم يعد أمامك أي عائق.

والحال هذه، ماذا سيحل بالطاقة؟ لقد بدأت ببعث الإشعاع. الطاقة ذاتها التي كانت تتحرك بين طبقات العاطفة المعتمة، ها هي الآن ترسل إشعاعات نورانية، إنها تسمو وترتفع نقية لا تلوثها أي رغبة، غير مقيدة بشروط أو أغلال، ولا تخضع لأية دوافع، وهذا ما أسميه العطر. التزهر محدود ضمن زمان ومكان، أما العطر فلا... لا حدود لانتشاره، للتزهر حدود، لأنه مقيد بشرط، بينما العطر لا قيود تقيده وتعيق انتشاره، بكل بساطة، تأتي الريح وتحمله على أجنحتها. ليس للعطر مرسى على الأرض يرسو فيه.

التأمل هو الزهرة... وللزهرة جذورها، المتواجدة فيك، أما حين يتحول التأمل إلى تسامح، إلى عطاء، إلى رحمة وشفقة وحنان، يكون قد قطع كل صلة بالجذور، وهذا ما يمنحه حرية الحركة، حرية الذهاب إلى حيث يشاء، أو إلى حيث تأخذه الريح. اختفى بوذا، إنما

التسامح نستمده من الزهرة، وهو ليس منها.

تسامحه لم يختفِ وكذلك رحمته ومكانه. عاجلاً أم آجلاً، ستذبل الزهرة. إنها جزء من هذه الأرض، إنها من التراب. والتراب سيعود إلى التراب، بينما العطر، محرر من كل هذه، إنه لا ينتمي إلى الأرض وليس هو تراباً، لذلك سيبقى إلى أبد الآبدين. لقد رحل بوذا وكذلك المسيح، إنما تعاليم بوذا ما زالت حتى اليوم، ما زال عطر بوذا يتنشقه مئات الملايين، وكذلك دعوات المسيح للتسامح ومحبة الآخرين، حتى الأعداء، ما يزال مئات الملايين لا يرددونها وحسب، بل ويعملون بها. وهكذا رحل بوذا والمسيح، دون أن يرحل العطر الذي انبعث منهما، دون أن يتوقف التسامح الذي دعيا إليه.

التسامح غير مرتبط بالزهرة. إنه يأتي منها، لكنه ليس من الزهرة. إنه ينتشر من خلالها، فالزهرة إذاً، هي مجرد ممر له، لأنه في الحقيقة ينبعث مما هو وراءها وأبعد منها، لكنه لا يأتي من دونها. إنها ضرورة لوجوده، مع أنه لا ينحني إليها، حالما تتفتح الزهرة، ينعتق التسامح ويصبح حراً، ينطلق دون قيد أو شرط.

هذا ما يجب فهمه بعمق، لأنه إذا ما عرفت كيف تبدأ اختبار التسامح، فلن يكون هناك عطر، التسامح دون فهمه هو العاطفة ذاتها إنما باسم جديد. إنه الرغبة التي تقف وراء الطاقة، فتفسدها، والتي قد تصبح مصدر خطر للآخرين، لأنه باسم التسامح يمكنك تدمير الآخرين، وباسم التسامح يمكنك خلق أغلال وقيود. هذا لن يكون تسامحاً حتى ولو سميته تسامحاً.

أول ما عليك تذكره، أنه لا يمكن اختيار التسامح. وهذا ما لم ينتبه إليه جميع أتباع مصلحين الديانات الرائعة. بوذا، من خلال ممارسته التأمل، صار متسامحاً، شغوفاً، رحوماً، معطاء، أما أتباعه فهم يفعلون العكس، المسيح فعل كما فعل بوذا، تأمل أولاً... أما

الأرساليات المسيحية اليوم تدعو إلى المحبة، التسامح، العطاء، وتدعو إلى خدمة الإنسانية، إنما وبعد التجربة، ثبت أن دعواتهم هذه هي القوة الأكثر تدميراً في العالم، دعواتهم هذه أوجدت الحروب، دعواتهم هذه قضت على ملايين البشر، لأنهم وجدوا أنفسهم داخل سجن كبير.

التسامح يحررك، يمنحك الحرية، لكن هذا التسامح هو الآتي عن طريق التأمل، ولا سبيل للوصول إليه إلا عن طريق التأمل. قال بوذا: «التسامح هو منتج ثانوي ومنزلة اجتماعية رفيعة. وليس بمقدورك الوصول، مباشرة إلى هذه المنزلة، إنما عليك أن تفعل شيئاً، أن تسعى، عليك أن تنتج الدافع والحوافز. وإن أردت فعلاً أن تفهم ما هو التسامح، عليك أولاً أن تفهم ما هو التأمل. إنس كل شيء عن التسامح، لأنه، والحال هذه، سيأتيك من تلقاء نفسه».

حاول أن تعرف ما هو التأمل. أما التسامح، فسيأتي، بغض النظر، إن كان تأملك صحيحاً أو خاطئاً. التسامح لا شك سيأتي، إنه لأمر طبيعي أن يحدث هذا، إنه تابع للتأمل كظله. أما إذا كان التأمل لا يتم بالطريقة السليمة، فمما لا ريب فيه أن التسامح لن يأتي، ذلك لأنه يشكل المعيار الحقيقي، لما تقوم به من تأمل. يخطىء الناس باعتقادهم أن كل تأمل يتم بالطريقة السليمة. على العكس هناك من يمارس التأمل بالطريقة الخطأ، خذ مثلاً، لو أدى التأمل فيك إلى التركيز، فهذا يعني أنك لن تصل إلى التسامح أو مرحلة العطاء، على العكس ستصبح أكثر انغلاقاً. لو ضيقت دائرة اهتماماتك، ورحت تركز على شيء معين، مبعداً أشياء أخرى كثيرة، فاعلم أنك ستصاب بالتوتر. من هنا، جاءت الكلمة الإنكليزية Attention [الانتباه] وكأنها مشتقة من كلمة «At-tension» [التوتر والارتباك].

إن أردت أن تفهم ما هو التسامح، عليك أولاً فهم التأمل، وسيأتيك التسامح من تلقاء نفسه.

لذا فالتركيز سيقود حكماً إلى الإحساس بالتوتر.

للتركيز اهتماماته، لكنه ليس تأملاً. في مجال أعمالك العلمية، الأبحاث العلمية أو المختبرات، مطلوب منك التركيز على أمر ما، دون غيره، بل عليك إبعاد أي شيء آخر عن تفكيرك واهتماماتك، والتركيز على أمر معين فقط. مطلوب منك أن تجعل هذا الأمر محور تفكيرك، ولهذا يصبح العلماء شاردي الذهن، مثلهم مثل غيرهم الذين يركزون على أمر معين ويهملون كل ما عداه، إنهم بتركيزهم هذا يجعلون هذا الأمر محور حياتهم.

قرأت ذات يوم ما يلي:

«لقد أتيتكم بضفدعة»، قال أستاذ علم الحيوان وهو يخاطب تلاميذه. «جئت بها للتو من البركة، إذاً علينا دراسة مظهرها الخارجي أولاً، ومن ثم نشرحها».

بهدوء، أخذ الأستاذ يفك الرباط عن الصندوق الذي يعتقد أن الضفدعة بداخله، لكنه فوجىء بوجود بعض الطعام.

اللعنة... قال، تذكرت الآن أني لم أتناول طعام الغداء.

كثيراً ما يحدث هذا مع العلماء الذين يركزون كل تفكيرهم على نقطة واحدة، على أمر واحد، فيصبح عقلهم محصوراً، لكن حصرية العقل هذه تتحول إلى رأس إبرة صلبة، قادر على الاختراق. اختراق الأمر الذي يشغل البال، وفي الوقت ذاته ينسى العلماء كل ما يحيط بهم في العالم، ينسون حتى حياتهم الخاصة.

لم يكن بوذا رجلاً يلجأ إلى التركيز، بل كان رجلاً واعياً مدركاً، لم يحاول يوماً حصر اهتمامه بشيء محدد أو أشياء قليلة بالتحديد، على العكس، كان يحاول إزالة كل الحواجز التي تعترض طريقه،

والقضاء على المعوقات التي تجعل منه ضيق الأفق، كان يريد أن ينظر إلى العالم كله، إلى الوجود غير المنفصل عن بعضه، إلى الوجود الذي يشهد أشياء كثيرة في آن واحد. أنا الآن أحدثكم. وفي الوقت ذاته هناك ـ في مكان ما ـ زحمة سير خانقة، وأصوات أبواق السيارات ترتفع، إضافة إلى صوتي، هناك أصوات القطارات، زغردة العصافير، أصوات الريح وهي تدغدغ أوراق الشجر. الوجود كله، تتزامن أحداثه، في هذه اللحظة بالذات. أنتم تصغون إلي، وأنا أخاطبكم، غير أن هناك ملايين الأمور تحدث في الخارج. هذا هو السبب الرئيسي لاغتناء الوجود.

التركيز يجعلك تحدق في نقطة واحدة... مكان جد محدود، وسط مساحة شاسعة. وهكذا، لا يعود هناك وجود لكل ما عدا هو يشغل تفكيرك. حين تركز على حل مسألة رياضية، لا تعود قادراً على سماع زغردة العصافير. كل تفكيرك سيكون محصوراً بالمسألة المطروحة عليك، ، ليس هذا وحسب، كل شيء حواليك يتحول إلى مصدر إزعاج، حتى مناغاة طفلك، وكلام زوجتك وهي تحاول إغواءك. التركيز هو أشبه بالهروب من الواقع المعاش، من الحياة. أن تسكن أعالي جبال هملايا، أو تتخذ كهفاً ما في جبل من حفرة إقامة لك لتعزل نفسك عن البشر، عن الحياة، ولتفكر بالله وحده، ليس بالتصرف المحمود، لأن الله ليس موضوعاً. الله هو الوجود الكلي، الله هو الشمولية. ولهذا يصعب جداً أن يعرف العلم معنى الألوهية. مواضيع العلم، تتطلب التركيز على شيء معين، على شيء جد محدود، ولهذا السبب، لا يمكنه أن يحاول التعرف إلى ماهية الخلود.

العلم يحاول معرفة أدق التفاصيل عن الأشياء، عن كل الأشياء. في البدء قال العلماء يستحيل تجزيء الذرة، لكنهم عادوا واكتشفوا

إمكانية حدوث هذا، وهكذا ولدت القنابل الذرية والنووية، وحتى هذه الجزيئات الصغيرة، لم تعد هي الأصغر، إذ توصل العلم ـ وبسبب تركيز العلماء ـ إلى ما هو أصغر منها: إلكترون، بروتون ونيوترون، ومن يدري قد يأتي يوم، عاجلاً أم آجلاً يتمكن العلماء فيه من تفتيت هذه العناصر أو اكتشاف ما هو أصغر منها، العلم يبدأ بالصغير للوصول إلى الأصغر، أما الكبير الواسع، الرحب، فهو منسي كلياً. لذا لا يستطيع العلم معرفة الألوهية عن طريق التركيز. ولهذا، وحين يأتيني الناس طالبين مني تعليمهم كيفية التركيز حتى يتعرفوا إلى السماويات، صدقوني أشعر بالارتباك: لأنهم يجهلون مبادىء البحث عن السماويات.

العلم يبحث في موضوع واحد ومحدد وأبحاثه هادفة، أما المتدينون، فيتمحور اهتمامهم، على الكلي الشمولي، وحتى تتعرف إلى الكلي عليك أن تكون واعياً ومدركاً كل شيء، تفكيرك غير محصور ضمن مساحة معينة، وبأمور معينة. لو وقفت عند النافذة، فلا شك فإن إطار النافذة سيتحول إلى إطار للوجود. إذاً قف تحت الشمس، وانظر إلى السماء التي لا حدود لها، هذا هو التأمل، ليس للتأمل حدود، إنه ليس نافذة ولا باباً.

العلم يبحث في موضوع واحد ومحدد وأبحاثه هادفة، أما المتدينون، فيتمحور اهتمامهم، على الكلي الشمولي، وحتى تتعرف إلى الكلي عليك أن تكون واعياً ومدركاً كل شيء، تفكيرك غير محصور ضمن مساحة معينة، وبأمور معينة.

التأمل، ليس تركيزاً، ليس انتباهاً، إنه وعي ويقظة.

ما العمل إذاً؟ تردد الصلوات، تمارس التأمل الغامض؟ لن يفيدك هذا بشيء. التأمل المحدد، هو ضرورة قصوى عند الأميركيين، بسبب تفكيرهم بالأهداف والغايات، بسبب العقلية العلمية. وهكذا يتحول التأمل إلى تركيز. ويفقد معنى

التأمل وماهيته. إنها الطريقة العلمية في التفكير. في الجامعات، في المختبرات العلمية على شتى أنواعها، في الأبحاث النفسية، معظم الأبحاث تخضع للتجربة، أتعرف لماذا؟ لأن ما يقومون به ليس تأملاً. إنه تركيز، وينطوي تحت لواء التركيز العلمي، ولا يمكننا أن نسمي كل ما يقومون به تأملاً. التأمل فضاء رحب، لا حدود له، لا بداية له ولا نهاية، وهذا يستحيل على العلم. وحده التسامح يقرر عما إذا كان هذا الشخص أو ذاك قد تمكن من تحقيق ما يصبو إليه. ألفا أو غاما، لا يفيدان بشيء، لأنهما من نتاج العقل، والتأمل لا يخضع للعقل، إنه أبعد من ذلك بكثير.

دعني أقول لك أشياء مبدئية وأساسية. أولاً: التأمل ليس تركيزاً، إنه استرخاء، بكل بساطة إنه استرخاء الجسد والروح. وكلما استرخيت، كلما شعرت أنك منفتح على العالم، أنك أقل جموداً وأكثر مرونة، وفجأة تشعر أن الوجود بدأ يخترق ذاتك، يتغلغل في داخلك، وبأنك لم تعد أشبه بصخرة صماء، الاسترخاء يعني السماح لنفسك للوصول إلى مرحلة نسيان كل شيء، إلى فعل لا شيء، لأنه إن عملت شيئاً، ستشعر بالتوتر - إنه حالة اللاعمل - بكل بساطة أنت تسترخي جسدياً وعقلياً وتتمتع بإحساس الاسترخاء. استرخ بذاتك. أغمض عينيك، واصغِ إلى ما يحدث حولك. لا ضرورة للشعور بأي شيء قد يمنعك من الاستمرار بالاسترخاء. إنك تنشد الأشياء السماوية، وحين تأتيك هذه، كطير، لا تتوقف. فالخلود يقرع بابك كعصفور، ومن ثم قد تسمع صوت نباح كلب، أو بكاء طفل، أو ضحكة سيدة، لا تتجاهل هذه الأصوات ولا تحاول عدم سماعها.

تقبل كل شيء، لأن محاولتك لعدم سماعها سيسشعرك بالتوتر. كل ما هو مرفوض يخلق توتراً. إذا أردت الاسترخاء، فما عليك إلا أن تتقبل كل ما يحدث حولك. تقبل كل شيء، فكل شيء مترابط

ببعضه. تلك الطيور، تلك الأشجار، هذه السماء، الشمس، القمر، الأرض، أنت وأنا، كلنا متناغمون. وهناك ما ينسق بيننا ويولد انسجاماً. إنها وحدة عضوية. لو اختفت الشمس، فستختفي الأشجار ـ لن تعود قادرة على النمو، وإذا اختفت الأشجار فستختفي العصافير، وإذا الشمس اختفت وكذلك الأشجار والعصافير، فلن يعود لك وجود، ستختفي أنت أيضاً. إنه علم البيئة الإنساني الذي يقول، كل شيء مترابط ببعضه، حتى الإنسان مرتبط بالأرض والمؤسسات. إذاً لا تتجاهل أي شيء لأن تجاهلك لشيء ما، مضى يعني تجاهلك لشيء هو فيك، إذا تجاهلت أغاني تلك العصافير، ستشعر أنك تتجاهل أشياء فيك.

إذا تجاهلت، رفضت، إذا تلهيت أو أحسست بالغضب، فإنك تكون، تتجاهل وترفض أشياء هي معك، بل هي فيك. اصغ ثانية لصوت العصافير دون أن تلتهي بأمور أخرى أو دون الشعور بالغضب، وفجأة، سترى أن تلك العصافير رهن إشارتك. ومن ثم فإنها ليست هنا كأشياء غريبة أو دخيلة، وفجأة سيتحول الوجود الكلي إلى عائلة. وها أنا أنادي أي إنسان متدين ليتفهم أن الوجود الكلي هو عائلة. قد لا يكون هذا المؤمن، يرتاد أي كنيسة، ولا يتعبد لله في أي معبد، ولا يتضرع لله في جامع أو معبد هندوسي، هذا ليس مهماً... هذا غير مرتبط بما نقول. حسناً إن كنت تفعل ما ذكرنا، وحسناً أيضاً لو لم تفعل. ولكن، من يفهم أن الوحدة العضوية للوجود، هي دائماً وأبداً في المعابد، فإنه يضع نفسه باستمرار في مواجهة المقدسات والسماويات.

وإذا ما رددت بعض الترانيم التي لا معنى لها، الترانيم التي تعبر عن الغباء، فستعتقدُ أن الطيور تفعل ذلك أيضاً. وإذا كنت تردد بعض التفاهات ولو همساً، أو تفكر بحماقة قد تسمي ذلك، فلسفة، تديناً، فبلا شك ستجد العصافير تبعد عنك وتتجاهل

وجودك. أصواتها سماوية، العصافير لا تقول شيئاً، إنها بكل بساطة، تغني بفرح، نعم تغني فقط إنما بفرح. لا معنى لأغانيها إلا أنها فيضان الطاقة. إنها ترغب مشاركة الوجود، الأشجار، الأزهار، وحتى أنت. ليس لديها شيء تقوله. وتفعل ما تفعل لتثبت أنها هنا، وأنها هي هي.

إذا استرخيت، تكون قد تقبلت: تقبل الوجود، هو الطريقة الوحيدة والأفضل للاسترخاء. إذا كانت الأشياء التافهة تزعجك، فهذا لأنك أنت ميّال إلى الانزعاج، اجلس صامتاً، إصغ إلى كل ما يدور حولك واسترخِ. استرخِ، وفجأة ستشعر بفيض من الطاقة يتغلغل فيك، ينبعث منك. قد تبدأ هذه الطاقة تتخذ شكل التنفس بعمق، مع أنك ـ عادة ـ لا تتنفس بعمق إلا وأنت تمارس رياضة اليوغا وتكون تبذل جهداً. إنما لأن هذا الجهد ليس ضرورياً ولا حاجة لك لبذله. كل ما عليك هو أن تتقبل الحياة، أن تسترخي، وستجد نفسك تتنفس بعمق من دون أن تبذل جهداً. استرخِ أكثر وأكثر، وستشعر أن نفسك صار أعمق، صار يصدر بتناغم وتجانس، صار بمقدورك أن تشعر بالثقة، إنه يمنحك بعض البهجة، ومن ثم تعي، أن التنفس هو الجسد الذي يصلك بالشمولية.

إسهر فقط، دون أن تفعل شيئاً، وحين أقول إسهر، لا تحاول مراقبة شيء، وإلا ستشعر بالتوتر وستبدأ بالتركيز على تنفسك. استرخِ ـ تابع مسترخياً وانظر. فماذا بإمكانك أن تفعل أكثر؟ انت هنا ما من عمل عليك القيام به، كل شيء مقبول، لا شيء يجب تجاهله. ماذا بمقدورك أن تفعل؟ أنت بكل بساطة مرتاح، تذكر ذلك، لا تبذل أي جهد. هذا ما كان بوذا يدعو تلامذته لفعله، مراقبة التنفس، وكان يذكرهم دائماً بضرورة التنبه لطاقة الحياة المنبعثة من التنفس. لا تحاول أن تأخذ نفساً عميقاً، لا تحاول الشهيق، ولا الزفير، لا تفعل شيئاً. أنت مسترخٍ فقط ودع التنفس

يتم طبيعياً. يجري وفق مشيئته من تلقاء نفسه، وستتوفر لك أشياء كثيرة.

أول ما عليك معرفته، أن التنفس أشبه بجسر يصل بين ضفتين، أنت والوجود، إنه يحدث باتجاهين، الأول نحوك والثاني نحو الوجود. يمكنك أن تتنفس وفق إرادتك، إرادياً. إن أردت أن تأخذ نفساً عميقاً، إفعل دون تردد، وإن أردت أن تزفر بقوة، يمكنك فعل ذلك. يمكنك فعل ما تشاء، هذا متوقف عليك، حتى لو لم تفعل شيئاً، فسيستمر الأمر دون حاجة لتدخل منك. لا ضرورة لأن تفعل شيئاً... إنه التنفس اللاإرادي.

أما الأمر الآخر فهو متعلق بالوجود الذي يمكنك الاعتقاد أنك تتنفسه، كما يمكنك الاعتقاد العكس، الاعتقاد بأنه هو يتنفسك، وهذا ما عليك استيعابه لأنه سيودي بك إلى استرخاء عميق. لست أنت من يتنفس، بل الوجود يتنفس من خلالك، إنه تغيير في الشكل والصورة، لكنه يحدث من تلقاء ذاته، فإذا أردت الاسترخاء، ما عليك إلا تقبل كل شيء. استرخِ بذاتك، ورويداً رويداً، وفجأة، ستعي أنك لست من يتنفس، إنك تزفر وتشهق دون إرادة منك... إنه يتم تلقائياً، ويمنحك إحساساً بالجمال وفقاً لإيقاع متناغم، لإيقاع منسجم. ولكن من يفعل ذلك؟ الوجود يتنفسك، يدخل إلى رئتيك، يخرج من رئتيك. وكل لحظة من هذه اللحظات، تتجدد أنت، يتجدد شبابك، تجعلك تحيا مجدداً، ومجدداً ومجدداً.

فجأة قد ترى التنفس على أنه حدث، وهذا يعني بداية تنامي التأمل. وهذا ما بمقدورك فعله في كل مكان، حتى في المكتب أو في السوبرماركت حيث تتحول الضوضاء إلى سكون. وإن أصغيت روحياً وجسدياً، حتى ولو في السوبرماركت، سيكون بمقدورك رؤية أشياء كثيرة، وستشعر بموجات عارمة من الطاقة تتحرك في كل

اتجاه. وإن تقبلت ما ترى وما تسمع، فستشعر بالجمال والراحة، أينما ذهبت وأينما حللت.

العصافير ليست هي الأهم، بل أنت. أنت ستشعر بأشياء رائعة، مقدسة، براقة، بأشياء أشبه بالأسرار التي لا تعرف حلولاً لها. إنها الأعجوبة التي تحدث لك، لكنك تمضي في طريقك دون التنبه إلى ما يحدث.

حين يستوطن التأمل في ذاتك، وتصبح متناغماً مع الوجود، ستشعر، كنتيجة لهذا الاستيطان وذاك التناغم، بروح المحبة، بالحنان ستشعر أنك وصلت مرحلة العطاء والتسامح، وستشعر أيضاً أنك تحب الكل دون استثناء، وأن الآخرين ما عادوا غرباء عنك، لأنك فيهم تحيا أيضاً. والأشجار لم تعد مجرد تلك الأشجار، وأنها بشكل أو بآخر، ترتبط فيك. كل شيء يصبح مرتبطاً ببعضه البعض. إن مددت يدك ولمست ورقة عشب، فأنت لا تلمس هذه الورقة وحسب، بل تلمس كل النجوم، لأن كل شيء مرتبط بالآخر؛ ولا يمكن أن يكون غير ذلك. الوجود واحد متماسك عضوياً. إنه وحدة متناسقة. بسبب افتقارنا للوعي واليقظة، لا نعي ما الذي سنفعله لأنفسنا. يحدث شيء ما ومن ثم يليه شيء آخر، ما كنت تعتقد أبداً أن حدوثه مرتبط بحدوث ما سبقه.

في الليلة الماضية، كنت أقرأ شيئاً عن الشم والروائح فعرفت أن حاسة الشم، والقابلية للشم، ما عادتا موجودتين عند بني البشر، على عكس ما هو عند الحيوانات. الحصان قادر على أن يشتم رائحة ما عن بعد أميال، حتى الكلب يتمتع بحاسة شم تفوق بكثير تلك التي عند الإنسان، بواسطة حاسة الشم يعرف الكلب، أن سيده عائد إلى منزله، أو يقترب منه، حتى ولو بعد سنوات، الكلب قادر على التعرف إلى سيده عن طريق الشم. وهذا ما يفتقده الإنسان.

ما الذي حدث لحاسة الشم عند البشر؟ أي خلل أصابها؟ يبدو أنه ليس هناك سبب يمكننا من التعرف إلى كيفية التخلي عن هذه الحاسة، ما من ثقافة من ثقافات العالم دعت إلى قمع هذه الحاسة، وفي الوقت ذاته قمعت، ولم تعد ذا نفع. لماذا؟ نعم دعونا نتساءل لماذا؟ الجواب واضح، بسبب الجنس. واليوم نرى الجنس مقموعاً في العالم كله، وبما أن الرائحة والجنس متلازمان، فقد قمعت حاسة الشم معه. أنظروا إلى الكلب، إنه يشتم شريكته، قبل ممارسة الحب معها، لماذا؟ ليتأكد من أن هناك تناغماً بين جسديهما، وإن اشتم هذا التناغم يمارس الحب معها، حالما يتأكد أن الرائحة متبادلة بتناغم، يدرك أن جسديهما على استعداد للتناغم والإنسجام، وأنهما قادران على إنشاء أغنية الحياة. أغنية لن تستمر طويلاً، لكنها تعبر عن إمكانية الاتحاد.

بسبب قمع الجنس في جميع أنحاء العالم، صار البشر يفتقدون حاسة الشم، حتى لو تلفظت ببعض الكلمات، قد تجد من يعتبرها كلمة شجب وإدانة. إذا سألتك «هل تسمع؟» أو «هل ترى؟» لا تشعر بالانزعاج، كذلك لو سألتك: «هل تشم رائحة ما؟» عليك ألا تنزعج، فأنا أستعمل ذات اللغة، وذات الأسلوب في التخاطب؛ أسلوب السؤال. الشم قدرة استيعاب كالسمع والرؤية تماماً. الشم، قابلية فعل، قدرة استيعاب عقلي. ولكن حين أسأل: «هل تشتم رائحة؟» يشعر الآخر بالانزعاج، لأنه نسي كلياً، أن حاسة الشم هي حاسة ضرورية لحياته، ولأنه - هكذا، بدون سبب - يعتبر سؤالي إدانة له.

هناك حكاية يتندر بها الناس في بريطانيا عن المفكر الدكتور جونسون الذي كان يجلس ذات يوم في مقصورة، فإذا بسيدة تدخل وتبادره القول «سيدي يبدو أن رائحة تنبعث منك». فأجاب الدكتور جونسون، وهو اللغوي المشهور وأستاذ قواعد اللغة، «لا

سيدتي، إنما يبدو أن قدرتك على الشم قوية».

ما الذي حدث لحاسة الشم؟ حالما تقدم على كبت الرغبة الجنسية، تكون تقمع حاسة الشم. ما يعني أنك عطلت إحدى الحواس الخمس، وإن عطلت حاسة واحدة من حواسك ستصاب بقية الحواس بالخلل، ولا تعود قادرة على القيام بمهامها، وكذلك دماغك. إذا كان لديك خمس حواس، فهذا يعني أن في دماغك خمسة مراكز للاستجابة. مركز لكل حاسة، وإذا تعطل خمس الدماغ، فهذا يعني أن خمس الحياة قد تعطل، ولم يعد قادراً على العمل. كل شيء مرتبط بالآخر، الجسد أشبه بسلسلة من الحلقات، إن كسرت حلقة، فلن تعود هناك سلسلة، حتى إذا لمست شيئاً صغيراً بمكان ما من جسدك، فستشعر به وكأنه يلامس كل جسدك.

حين قمعنا الرغبة الجنسية، قمعنا حاسة الشم أيضاً، وبسبب قمعنا للرغبة الجنسية، صرنا نتنفس أقل، صرنا نتنشق القليل من الهواء، كلما تنفست بعمق، كلما لامس تنفسك مركز الرغبة الجنسية في داخلك. كثيرون يأتون إلي، ويقولون، «إذا تنفسنا بعمق نشعر بالرغبة في الجنس.» كلام في موقعه. فأنت، وحين تكون تمارس الحب مع حبيبتك، تتنفس بعمق، وإلا لن تتمكن من الوصول إلى النشوة. التنفس يدلك برقة ونعومة عمق المركز الجنسي في الجسد، وهكذا تثار جسدياً وتتمتع بممارسة الحب. في الوقت ذاته، وبسبب قمع الناس للجنس، وللتنفس، فإنهم باتوا غير قادرين على ممارسة التأمل. أنظر حواليك... أي توافه فعلنا؟ نكبت الرغبة الجنسية؟ هكذا نكون نمنع التنفس بعمق... ولكن، علينا معرفة أمر هام جداً، التنفس هو الجسد الذي يربطنا بالعالم الكلي.

لا شك أن غوردجيف، كان محقاً، حين قال، يبدو أن معظم الديانات تتصرف، بشكل أو بآخر، ضد مشيئة الله، يحدثونك عن

الله، إنما يبدو، وكأنهم مبدئياً ضد الألوهية، ضد التقى والورع. ويبدو ذلك واضحاً، من طريقة تصرفهم. إذا لم نسمح للتنفس أن يكون عميقاً وطبيعياً، نكون ندمر إحدى دعامتي الجسد. إن تنفست القليل من الهواء، فلن تمتلئ رئتاك. وإن لم يكن بمقدورك أن تتنفس بعمق فهذا يعني، أنه لن يكون بمقدورك الدخول إلى أعماق ذاتك، ويعني كذلك، لن يكون بمقدورك التوغل في عمق الوجود.

لا أحد مستقلاً أو منفصلاً عن الآخر. حين تكتشف أن الانفصال عن الآخرين هو مجرد وهم وسراب، يفيض التسامح. التسامح ليس عقوبة، بل مكافأة.

جعل بوذا التنفس في المركز الأهم، لذا فوعي التنفس بعمق وباستراحة، يمنحك السكون الكلي. فاسترخ إذاً، وشيئاً فشيئاً تجد نفسك تذوب، تنصهر ثم تختفي، لن تعود جزيرة منفصلة، لأنك أصبحت منصهراً في الكل، وهكذا إذاً، أنت لست مجرد نوته منفصلة، بل جزء من سيمفونية الوجود. التسامح يفيض، ولن يحدث هذا، إلا متى أدركت أن كل واحد مرتبط فيك. فقط في حال إدراكك أنك واحد من الكل، وأن كل واحد هو عضو فيك، في هذه الحال فقط يفيض التسامح ويتفجر العطاء. لا أحد مستقلاً أو منفصلاً عن الآخر. حين تكتشف أن الانفصال عن الآخرين هو مجرد وهم وسراب، يفيض التسامح. التسامح ليس عقوبة، بل مكافأة.

من خلال النظر في العلاقة الإنسانية، نجد علاقة الأم بابنها هي الأقرب للتسامح. الأكثر التصاقاً بالعطاء. الناس يقولون هذه علاقة حب، غير أن الحب مقرون دائماً بالرغبة، بالشهوة وهذا ما ليس موجوداً في علاقة الأم بابنها. حب الأم لابنها هو الأقرب إلى العطاء. لماذا؟ لأن الأم تعرفت إلى طفلها قبل أن يولد، ولأن الطفل كان جزءاً منها، وحتى بعد ولادة الجنين، واتخاذه شكل طفل يكبر

يوماً بعد يوم، تستمر الأم بالإحساس أنه ما زال جزءاً منها، وتبقى على تناغم معه، إذا اعتلت صحة الولد، ولو كان على بعد مئات الأميال وآلافها، تشعر الأم بذلك، قد لا تعرف أنه مريض، لكنها تشعر داخلياً أن هناك شيئاً ما يصيب ابنها، قد لا تعرف أن ولدها يتعذب، لكنها تبدأ بالإحساس بالعذاب. ونحاول إيجاد سبب لعذابها، فتدعي أنها تعاني من تلبك في المعدة، أو وجع في الرأس... أو... أو... أثبت علم النفس الحديث أن الأم وابنها يبقيان ملتصقين ببعضهما البعض بموجات طاقة جد غامضة. أما لماذا؟ فلأنهما يبثان على الموجة ذاتها.

تقارب الأفكار، أو التخاطر بلغة علم النفس، هو أكثر حدوثاً وأسهل، بين الأم وابنها. كذلك هي الحال عند التوأمين، حيث يكون التخاطر أكثر سهولة وأكثر حدوثاً. لقد أجريت اختبارات عدة حول هذا الموضوع في روسيا السوفياتية، ليس بدافع ديني، بل في محاولة لاستعماله كتقنية تواصل أثناء الحروب. وبالفعل، توصل علماء النفس السوفيات، إلى أن إمكانية توارد الأفكار أو التخاطر بين التوائم، هي جد عالية. فإذا أحس أحد التوأمين بالبرد، أو أصيب بحمى الأنفلونزا، فسيشعر التوأم الآخر أنه مصاب بالبرد أو بحمى الأنفلونزا، حتى لو كان على بعد آلاف الأميال عن شقيقه التوأم. إنهما يبثان ترددات على ذات الموجة الهوائية ذاتها، ويتأثران بالأشياء ذاتها. والسبب يعود إلى تشاركهما الحياة في رحم واحد، ملتصقين، لأنهما تواجدا في رحم الأم معاً وتغذيا معاً وانتظرا نهاية موعد الحمل وحلول لحظة الولادة.

إحساس الأم بطفلها هو أكثر شبهاً بالعطاء، لأنها تشعر بالطفل من خلال كينونتها. سبق لي وقرأت هذه الحكاية النادرة.

خلال جولة تفتيشية على ما يأخذه أعضاء الفريق الكشفي قبل

ذهابهم إلى المخيم، وجد مظلة كبيرة في فراش أحدهم، تعجب المسؤول، ليس مطلوباً منهم إحضار مظلة، فسأل رئيس الفريق عن ذلك. فأجابه رئيس الفريق بسؤال: «أولم يكن لديك أم في ما مضى؟».

الأمومة تعني العطاء، تعني التسامح. الأمومة تعني الشعور نحو الآخر، كما يشعر هذا الآخر بنفسه. لذا فحين يتعمق شخص ما بالتأمل ويصبح متنوراً، لا شك سيصبح هذا الشخص أماً، بوذا أقرب إلى الأم أكثر منه إلى الأب. الكنائس المسيحية ترتكب خطأ حين تقول بالأبوة، حين تقول بالأب السماوي، إنها تتخذ منحى ذكورياً، فلو كان هناك إله، فهو أم وليس أباً، الأبوة تعني المؤسساتية، ليس في أب، ولو سألت عالماً لغوياً عن كلمة أب، لأجابك: كلمة عم هي أقدم من كلمة أب. أو لنقل مفهوم العم أعرق من مفهوم الأب، لأنه لم يكن أحد يدري من هو والده. فقط، بعد أن وجدت مؤسسة الزواج، وجد مفهوم التملك الشخصي لشخص آخر، وهكذا عرفت البشرية مفهوم الأبوة، ووجدت كلمة أب، لكن مؤسسة الأبوة هذه، قد تصاب بالتصدع وتزول، مثلها، مثل العديد من المؤسسات التي لم تعد موجودة، غير أن الأمومة ستبقى، ولن تزول أبداً، طالما هناك امرأة، تحمل وتلد. الأمومة هي المؤسسة الطبيعية الخالدة.

في العديد من الثقافات الشرقية، يطلقون لقب الأم على الله، وهذا يبدو أكثر قرباً من الحقيقة. أنظر إلى صورة بوذا فسترى وجهه أقرب إلى وجه أنثى، أكثر مما هو قريب إلى وجه رجل، ولهذا السبب، لا نرى له لحية أو شوارب. ماهاتيرا، بوذا، كريشنا، كل هؤلاء لا لحى لهم ولا شوارب، ليس بسبب نقص الهرمونات المساعدة على إنبات الشعر، بل لأننا لم نشأ رؤية وجوههم أقرب إلى

الوجوه الذكورية.

نعم، في الشرق نعطي أهمية للمغزى والمدلول. ومما لا شك فيه أن جميع تماثيل بوذا المتداولة بين الناس، هي تماثيل فريدة، غير حقيقية وبالرغم هذا، لا نبالي ولا نهتم للأمر، إلا أن ما يميز الموضوع، هو أن بوذا أصبح أكثر أنوثة، أكثر ميلاً ليبدو كامرأة، إنه تحول من النصف الأيسر للدماغ، إلى النصف الأيمن، من الذكورية إلى الأنثوية، إنه التحول من العدائية إلى قبول الآخر، إنه التحول من الإيجابية إلى السلبية، إنه التحول من بذل الجهد إلى الخمول، بوذا أكثر أنثوية أكثر أمومة. إذا، أصبحت فعلاً متأملاً، ستلاحظ مع الأيام أن هناك تغييرات كثيرة تحصل في كيانك، ستصبح أكثر قرباً للمرأة من الرجل، أكثر رحمة وشفقة، أكثر حباً، وسيفيض التسامح من داخلك. إنه فعلاً مجرد عطر طبيعي سيفوح منك.

بشكل عام، ما نسميه التسامح، يأتي عبر القضاء على الرغبة والشهوة، حتى لو شعرت أحياناً بالانجذاب نحو الناس، فكر جيداً، دع شعورك هذا يتغلغل فيك، وفي مكان ما ستجد نفسك منبع نور، مصدر عطاء. إنه التسامح ـ لقد روى أحدهم علي القصة التالية:

عاد رجل إلى بيته فوجد زوجته عارية في السرير، بين ذراعي رجل آخر، صدم مما رأى، فخرج وهو يصرخ «أين بندقيتي؟».

ركضت زوجته خلفه، دون محاولة ارتداء أي قطعة ثياب. أمسكت به من يده: «فعلاً أنت مجنون... ما الذي أثارك هكذا؟ إنه عشيقي الذي جدد أثاث المنزل، ويشتري لي الثياب، إنه عشيقي الذي يمدني بالمال الذي يجعلنا نعيش برفاهية. أتعتقد أن عملي كخياطة هو ما يوفرها لنا...» لكن الزوج أفلت منها وتابع يصعد الدرج متجهاً نحو غرفته.

ـ إياك والبندقية. صاحت المرأة.

ـ بندقية؟ من قال ذلك؟ صاح الرجل، أنا أرغب بجلب غطاء لهذا الإنسان المستلقي عارياً، وإلا سيصاب بالزكام.

حتى لو أحسست، أو اعتقدت أنك تحس، أو تتظاهر بالإحساس بالتسامح والعطاء، لا تتوقف، ثابر على ذلك، وستجد نفسك منغمساً في ذلك التفكير، من لا يكون تسامحاً نقياً، وإن كان كذلك فهو ليس تسامحاً ولا عطاء. النقاء عنصر أساسي في مكونات التسامح، وإلا لأصبح شيئاً آخر، أي شيء غير التسامح. علمتنا الحياة أشياء كثيرة، علمتنا كيف نتعامل مع نسائنا أو مع أزواجنا. كيف نتعامل مع أولادنا، مع أصدقائنا، تعلمنا كل شيء تقريباً، لكن العطاء أمر آخر، أمر لا يُعلّم، أمر لا تتعلمه. فقط حين لا نهتم بالشكليات، ولا بالعادات، ولا بالأصول واللياقات، فقط حين ذلك ينبعث التسامح. كل ما ذكرته أمور فانية آيلة إلى الزوال، أما العطاء، التسامح، هو الحياة الأبدية، إنه شعلة الحب.

لقد تحولت الحياة إلى مجرد تصرفات مصطنعة إلى شكليات وصار علينا أن نتصرف، ليس كما نحب، بل كما يحب الآخرون، لقد تحولت حياتنا إلى واجبات، وفي هذه الحال طبيعي أن تفقد جزءاً من حيويتك ومن الحياة، ذلك لأن الحياة، لن تكون إلا إذا كنت أنت تتمتع بالحيوية، إلا إذا كنت أنت تحب الحياة، لو خبأت جزوة حياتك بأمور تافهة بالشكليات، بالواجبات، بما يفرضه عليك الآخرون الذين نطلق عليهم لقب المجتمع، إذا فعلت ذلك، فحياتك تكون مجرد أيام وأسابيع وشهور وسنين، نعم مجرد فترة زمنية.

الحياة الحقيقية، هي فوضوية بشكل من الأشكال، أقول هذا، لأن الفوضى لا تفرض قيوداً ولا قواعد، ولا تعترف بما يمليه الآخرون.

إليكم هذه القصة من كتب الزن Zen

«ذات يوم عاصف، جاء أحد الساموراي إلى المعبد وأخذ يستغيث بالكاهن قائلاً: إني فقير ومريض، والجوع يكاد يقضي على عائلتي... فأرجوك المساعدة يا سيدي».

كان الكاهن يتكىء على حافة النافذة، ولم يكن لديه شيء ليعطيه، وكان سيطرد الساموراي، لكنه تذكر صورة بوذا، أسرع واقتطع جزءاً من الهالة التي تحيط رأس بوذا وأعطاها للساموراي قائلاً: بع هذه، قد تعينك، فما كان من الساموراي اليائس إلا أن أخذ ما أعطاه الكاهن له ومضى.

لكن أحد أتباع الكاهن صاح: هذا تدنيس، فكيف فعلته؟ تدنيس؟ قال الكاهن، ومضى يقول لتلميذه، إني لعلى ثقة تامة أن بوذا كان سيقتطع له شيئاً من لحم ذراعه ويعطيه له ولن يرده خائباً.

قصة قصيرة وبسيطة غير أنها جد مميزة وتعني الكثير الكثير. أولاً، حتى ولو لم تكن تملك شيئاً يمكن أن تعطيه... إنها الرغبة في العطاء، إن لم تكن قادراً على إعطاء شيء، فبمقدورك أن تعطي ابتسامة على الأقل. إن لم تكن قادراً على إعطاء شيء، فيمكنك الجلوس إلى جانب السائل، تشد على يده، تسامره، تحدثه بما يزرع الأمل في صدره. إنها ليست مسألة شيء تعطيه، إنها مسألة عطاء. الرغبة في العطاء.

ذاك الكاهن، كان فقيراً معدماً، مثله مثل غيره من الكهنة البوذيين ولا يملك شيئاً ليعطيه. لا أحد ينكر أن ما فعله حين أقدم على كسر الهالة المحيطة بتمثال بوذا، وإعطاء قسم منها للساموراي، هو فعل شنيع، وما من رجل دين يفكر بفعله، وحده المؤمن يفعل ذلك، ولهذا أردد دائماً: العطاء لا يخضع لمعايير وقيود، إنه أبعد من ذلك

كله، إنه لا يتبع شكليات أو قيود.

فجأة تذكر الكاهن تلك الهالة التي تحيط برأس بوذا، وفي الصين، كما في اليابان، تصنع هذه الهالة من الذهب تعبيراً عن التقدير لبوذا، فما كان منه إلا اقتطع جزءاً منها وأعطاه للساموراي قائلاً: خذ هذه وبعها فقد تعينك، فما كان من الساموراي المسكين إلا أن أخذها ومضى.

حتى الساموراي لم يكن يتوقع أن يفعل الكاهن ذلك، ولم يكن يفترض أن يتقبل ما أعطي لأنه تدنيس للذات الإلهية لبوذا. أي نوع من الرجال هو؟ إنه من أتباع بوذا، وساهم في تدمير تمثال بوذا، علماً، أنه وفقاً للطقوس البوذية، ممنوع لمس تماثيل بوذا لئلا تدنس.

هناك فرق بين رجل الدين الحقيقي، وما نسميهم رجال دين الذين لا يتصرفون إلا وفقاً لقواعد ومعايير وتبعاً لما تفرضه العادات والتقاليد. إنها دائمة التفكير بما هو طاهر وما هو غير طاهر. بما هو جائز، وبما هو غير جائز.

رجل الدين الحقيقي، المؤمن بالله، يعرف أن الله محبة وما من قيود للمحبة، إنه لا يفكر بما يجوز وبما لا يجوز، يفكر بالعطاء فقط، وكل ما تعطيه لمن يحتاج العطاء هو جائز، هو فعل لا بد من تنفيذه دون تفكير.

وحين صاح التلميذ الكاهن «ما الذي فعلته؟» فعل ذلك لأنه تابع، والتابع يكون كالأعمى، يحفظ التعليمات بحرفيتها لا بمضمونها ولا بروحها. إنه مقيد بالقواعد والشكليات. على التابع أن يتفهم الأمور أولاً، ومن يكون تابعاً، وهكذا لا يعود ينفذ الأوامر دون سؤال ولا تكون طاعته عمياء.

هناك قصة ثانية. جاء أحدهم في ليلة ممطرة وسأل الكاهن إن كان

بإمكانه المبيت في المعبد. البرد قارس وجسده يرتجف، ولا مأوى عنده، وجاء جواب الكاهن واضحاً وصريحاً. نعم يمكنك إنما لهذه الليلة فقط، فالمعبد ليس فندقاً.

عند منتصف الليل، رأى الكاهن النار تشتعل وسط الهيكل والرجل يجلس قربها. نظر الكاهن فوجد أحد تماثيل بوذا الخشبية قد اختفى. سأله عن التمثال. فنظر الرجل إلى النار وقال إني أرتجف من شدة البرد فجعلته وقوداً لأتدفأ.

أصيب الكاهن بنوبة جنون، لأنك أنت مجنون. قال وتابع: أتدري ما الذي فعلته؟ إنه تمثال بوذا وأنت تحرقه. نظر الرجل إلى النار وأخذ يحركها بقضيب معدني.

ماذا تفعل؟ قال الكاهن.

أبحث عن عظام بوذا. قال الرجل.

جن جنون الكاهن:«فعلاً إنك مجنون... تبحث عن عظام بوذا؟... إنه تمثال من خشب وهذا يعني لن تجد عظاماً».

أجاب الرجل: الليل طويل، والبرد يشتد، فلماذا لا تأتيني بالتمثالين الآخرين إذاً..؟

لم يجب الكاهن، بل طرده من المعبد فوراً. غير أن الرجل نظر إلى الكاهن وقال: «ما الذي تفعله؟ أتطرد بوذا الحي من أجل بوذا الخشب؟ لو كان بوذا ما يزال حياً، لكان فعل ما فعلت، لكان هو بنفسه أعطاني كل تلك التماثيل الخشبية. أنا متأكد من ذلك. وإني لعلى ثقة كان سيفعل ما فعلت أنا».

ولكن، هل وجد هذا الرجل من يصغي إلى كلامه؟ لا... فقد طرد عند منتصف الليل من المعبد وترك يواجه العاصفة الثلجية.

في الصباح خرج الكاهن رأى الرجل ساجداً أمام حجر

المسافات يتضرع إليه، فنهره قائلاً: أتتعبد لحجر المسافات؟

ولماذا لا، إنه كالتماثيل الخشبية داخل معبدك، لا روح فيها ولا حياة.

المسألة إذاً، هي مسألة توجه، وحينما نظرت بعين المؤمن، سترى كل الأشياء مقدسة.

من خلال هاتين القصتين، تتعرف إلى أهمية التعرف إلى معاناة الآخرين. الرجل الحقيقي الذي يبدي تسامحاً، هو ليس قاسياً مع الآخرين ولا مع نفسه، لأنه هو ذاته والطاقة هي ذاتها. إنه ليس سادياً ولا ماشوسياً، إنه يعي ألا انفصال، كل ما هو بداخله هو مقدس، وفي الوقت ذاته خارج هذا العالم، أن تعيش خارج عالم إبداء التسامح، يعني أنك معطاء. لا تحاول تجربة ذلك، استرخِ وتأمل، للوصول إلى مرحلة الانتشاء. وفجأة ستكون قادراً على شم العطر المنبعث من أعماق ذاتك الداخلية، ومن ثم ستتفتح الأزهار وينبعث التسامح. التأمل هو الزهرة، والعطاء هو العطر.

اهتمام إن كان عطرها سيصل إلى الناس أم لا. إن وصل العطر إلى الناس، فهو أمر جيد، وهو جيد أيضاً إن لم يصل. حين تشرق الشمس، لا تفعل ذلك لإيقاظ الناس أو لجعل الزهور تتفتح، ولجعل العصافير تغني... إنها تشرق، لأنه لا بد من أن تشرق.

من خلال هاتين القصتين، تتعرف إلى أهمية التعرف إلى معاناة الآخرين. الرجل الحقيقي الذي يبدي تسامحاً، هو ليس قاسياً مع الآخرين ولا مع نفسه، لأنه هو ذاته والطاقة هي ذاتها.

الرغبة هي الرغبة

إجابات على تساؤلات

هلا حدثتنا عن الرغبة في مساعدة الناس، فهي مختلفة عن الرغبات الأخرى؟

يساعد بوذا الآخرين بسبب رغبة حثته على فعل ذلك، بل لأن العطاء من طبيعته. كل متأمل سيصبح معطاءاً، عطوفاً، رحوماً وحنوناً، ولن يصبح «خادماً للناس»، فخدّام الناس هم الذين يتسببون بأذية الناس، والعالم سيتعذب بسببهم.

نحن دائماً نكتشف الرغبة، قد تكتشف باسم التعاطف، أو بأي اسم جميل آخر. يمكنك التحدث عن خدمة البشرية وعن الأخوة أو عن الديانات، أو الله والحقيقة المطلقة. كل أحاديثك الجميلة هذه، لن تجرنا إلا إلى المزيد من الحروب، إلى المزيد من إراقة الدم، إلى التسبب بالمزيد من المشردين والمنبوذين، إلى المزيد من اليأس والألم. هذا ما عرفناه حتى اليوم، وإن لم نتعاطَ مع العالم بمفهوم جديد، مفهوم مختلف عن السائد الآن، فبدون شك ستكون النتيجة المستقبلية هي ذاتها.

إذاً أول ما عليك تذكره، أن الرغبة هي الرغبة، سواء كانت رغبة في المساعدة أو الأذية. إنها ليست مسألة هدف الرغبة أو موضوعها، بل المسألة هي في طبيعة الرغبة بحد ذاتها. طبيعتها هي التي تجعلك تعبر عن المستقبل، بما فيه الغد، والتفكير بالغد سيسبب التوتر، القلق، والتساؤل الدائم؛ هل تفعل هذا، أم لا؟ هل ستنجح في عملك أم لا؟ لا فرق إن رغبت بكسب المزيد من المال، أو إحراز النجاحات، أو رغبت في أن تكون متعاطفاً مع العالم، أو لجعلهم عبيداً لك، فاللعبة هي ذاتها، الأسماء تتغير فقط، هذا ما يجب فهمه.

جاء رجل وسأل بوذا: «أود مساعدة الناس، فأرشدني كيف أفعل ذلك؟»، فنظر بوذا إلى سائله نظرة دلت على الحزن والأسى. تعجب الرجل: «لماذا بدا عليك الحزن؟ هل تلفظت بما أساء إليك؟».

رد بوذا قائلاً: «كيف يمكنك مساعدة الناس، وأنت عاجز عن

مساعدة نفسك؟ فهذه ستؤذيهم، باسم المساعدة».

أولاً، دع النور يستوطن ذاتك، دع الشعلة تضطرم داخل وعيك، وبعدها لن تكون بحاجة لمثل هذا السؤال. ومن الطبيعي، والحال هذه، سيكون عملك، عملاً مفيداً.

الرغبة هي الرغبة. ليس هناك رغبة مادية أو أخرى روحية. إنها السعي لمساعدة الناس، وهكذا تصبح أكثر طهراً من الآخرين، تصبح أكثر حكمة، أنت تعي وهم لا يعون.

الرغبة هي الرغبة. ليس هناك رغبة مادية أو أخرى روحية. إنها السعي لمساعدة الناس، وهكذا تصبح أكثر طهراً من الآخرين، تصبح أكثر حكمة، أنت تعي وهم لا يعون. أنت تريد المساعدة، لأنك وصلت إلى المرحلة التي تسمح لك أن تساعد، بينما هم ـ الآخرون ـ ما يزالون قابعين وسط العتمة، وأنت تريد أن تكون الضوء الذي ينير دروبهم. تريد أن تكون سيداً معلماً مرشداً لهم، تريدهم أن يكونوا تلاميذ عندك. إذا كانت هذه هي رغبتك، فهذا لن يؤدي إلى مساعدة الآخرين، ولا حتى إلى مساعدة نفسك، بالعكس، ستكون سيفاً ذا حدين سيدمر كل شيء.

إذاً يجب أن تكون هناك أنواع أخرى من المساعدة. وهذا النوع من المساعدة، هذا النوع من التعاطف والعطاء، يأتي فقط حين تصل إلى ذروة قمة التأمل، وليس قبل ذلك. حين يتفتح الربيع في وعيك، وحين تصبح كل الزهور بداخلك، يبدأ العطر بالوصول إلى الآخرين. لم تعد بحاجة للرغبة، حتى لو أردت أن تحول دون التزهر وانبعاث العطر، فلن يكون بمقدورك ذلك، فالعطر لا محالة سينتشر مع الريح، سيصبح ضوءاً في حياتهم، سيكون استهلالاً لبدايات جديدة، ليس لأنك ترغب بذلك، بل بسبب التحول الذي أصابك.

هناك تأمل بوذي يطلق عليه إسم «مايتري بهافانا» *Maitri*

Bhavan، يردده المتأمل ويقول مخاطباً نفسه: «هل سأصبح حسناً، هل سأصبح سعيداً، هل يمكنني أن أتحرر من العدائية، وأتخلص من جميع الأمراض التي قد تصيبني؟ شيئاً فشيئاً تشعر أن كل هذه التساؤلات، ليست في محلها، ذلك، لأنك كلما تعمقت في التأمل، كلما صرت ترى أولئك الناس الذين تحبهم، مجتمعين حولك، تشاركهم مشاعرك الجديدة، ومن ثم ستفعل ذلك مع أناس، قد يكونون غرباء عنك. وتستمر بمشاركة الآخرين مشاعر الود والمحبة حتى تصل مرحلة التعاطف مع أولئك الذين كنت تكن لهم مشاعر الحقد والكراهية. لقد تعودت أن أمارس هذا التأمل الذي يسمح لي بالتواصل مع الآخرين، غير أني أقلعت عن ذلك، لأني بت أشعر وكأني منوم مغناطيسياً. مازلت أشعر بميل للعودة لممارسته، رغم أني لا أرغب بالعودة إليه. فحدثنا عن هكذا تأمل، إذا تفضلت؟».

الحقيقة التي لا مفر من معرفتها، هي أن الأغلب الأعم من الناس، هم منومون مغناطيسياً، بشكل أو بآخر. هناك مسيحيون بالقوة، وكذلك بوذيون أو محمديون. هكذا ألبسوا ثوب هذه الديانة أو تلك، دون أن يكون لهم أي رأي... إذا أحس المرء أنه يعاني من مشاكل عدة، هذا نوع أيضاً من أنواع التنويم المغناطيسي، المرء منوم مغناطيسياً بسبب ما أملاه عليه مجتمعه، بسبب ما أملاه عليه من أفكار ومفاهيم وجعله عبداً للتقاليد والعادات.

أما بالنسبة لهذا النوع من التأمل «مايتري بهافانا»، فهو يحررك من الأوهام، إنه يحاول إعادتك إلى ذهنك الطبيعي، إنه يعيد إليك وجهك الأساس، إنه يعيدك إلى اللحظة التي ولدت فيها، إلى اللحظة التي لم يكن المجتمع قد أفسد تفكيرك وشوش عقلك. حين يولد الطفل، يكون «مايتري بهافانا»، هذه الكلمة التي تعني الإحساس بالصداقة، بالحب، بالتسامح والعطاء، أي أنه حين يولد، لا يكون يعرف كلمة الكراهية، بل معنى كلمة حب. الحب يولد معه، أما

الكراهية، فإحساس يكتسبه من معاشرة الآخرين، كذلك الغضب والأنانية، هناك أشياء كثيرة سيتعلمها الطفل من مجتمعه: الكراهية، الغيرة، الأنانية، الغضب، العنف والعدائية.

حين يولد الطفل يكون مجبولاً بالحب، يشع حباً، يكون كذلك، لأنه لا يعرف غير الحب. في رحم أمه لم يلتقِ من يلقنه مبادئ الغيرة ولا أساليب التنافس مع الآخرين، في رحم أمه كان يعيش بأمان وسلام، محاطاً بالحب، يتغذى بالحب ومن الحب، لا يعرف أحداً سوى أمه، والأم حب ومحبة، لذا كيف تريد منه أن يعرف غير الحب، حين ولادته؟ من أين له أن يتعرف إلى الكراهية، لقد ولد مجبولاً بالحب، وبعد الولادة يبدأ باختيار الحياة، يتعرف إلى مفاهيم تصور له أن الآخرين أعداؤه... فيتعرف إلى مشاعر الكراهية.

روى أحدهم على سمعي القصة التالية:

دخل رجل برفقة طفل إلى دكان الحلاق، وبعد أن أنهى الحلاق واجباته تجاه الرجل. نظر الرجل إليه وقال: إني ذاهب لشراء ربطة عنق، أرجوك الاهتمام بالطفل ريثما أعود، لن أتأخر سوى بضع دقائق.

لكن الرجل ذهب ولم يعد، فما كان من الحلاق إلا أن قال: «يبدو أن والدك تأخر كثيراً ونسي أنك ما زلت هنا».

إنه ليس أبي. قال الطفل، إنه رجل التقيته في الطريق، أمسك بيدي وقال «تعال لنقص شعر رأسنا مجاناً».

أرأيتم؟ لقد وثق الطفل بكلام الرجل الذي أوقعه في ورطة. هذه الحكاية تدل على براءة الأطفال، وعن كيفية إفساد الكبار لهذه البراءة، فتتحول إلى احتيال وكذب ونفاق.

تولد الأنا من الحقد والمنافسة، وإن أردت القضاء عليها، ما عليك إلا خلق المزيد من مشاعر الحب، حينذاك تختفي الأنا.

«مايتري بهافانا»، تفعل الشيء ذاته، إنما لأهداف معاكسة. إنها نوع من التنويم المغناطيسي الإرادي، إنها نوع من الجهد الفعال، للابتعاد عن الحقد، الغضب، الغيرة، والعودة إلى تلك الأحاسيس التي تولد مع الطفل. بعد البدء في ممارسة هذا النوع من التأمل، أول ما ستشعر به، أنك في حالة حب مع ذاتك، لأن ذاتك هي الأقرب إليك من أي إنسان آخر، ومن بعدها تبدأ بمحبة الآخرين، بالإحساس بالصداقة، ستغمرك مشاعر التسامح والعطاء، ستمنح الآخرين نعمك وبركاتك، لأولئك الذين تحبهم، ولآخرين لم تكن على علاقة معهم سابقاً، آخرين قد تكون التقيتهم لأول مرة في حياتك، دون السؤال عما إذا كنت تحبهم أو لا... ومن ثم قد تمنح حبك وعطفك وتسامحك، حتى لأولئك الذين تكرههم ورويداً رويداً لن تعود في حالة هي أشبه بالنائم مغناطيسياً، بل ستكون في حالة وعي لما تفعل. تعطي وأنت تدري أنك تعطي، وهكذا تكون ـ أيضاً ـ تخلف رحماً ـ كرحم أمك ـ من الحب يحيط بك وتعود جنيناً.

حين يمارس البوذي التأمل، يجلس في الوجود، وكأن الوجود كله تحول إلى رحم أمه، حيث لا عداوة بل حب، يكون قد عاد إلى طبيعته الأصلية، للتعرف إلى جوهر ذاته. بمقدورك قتله جسدياً، إنما لم ولن يكون بمقدورك تدمير تسامحه وعطاءه، فحتى بعد موته، سيبقى يفيض حباً، رحمة، عطفاً، سيبقى يثق بما يفعل، والثقة أمر أساسي، خسارته تعني خسارة كل شيء، ليس هماً إن خسرت كل شيء، وبقيت محتفظاً بالثقة. احتفاظك بالثقة يعني أنك لم تخسر شيئاً.

تولد الأنا من الحقد والمنافسة، وإن أردت القضاء عليها، ما عليك

إلا خلق المزيد من مشاعر الحب. حينذاك تختفي الأنا. الحب يجب ألا يكون مشروطاً، ودون تفكير بما ستجني مقابل ما تعطيه. الأنا أشبه بغشاوة تصيب العينين، فلا يعود المرء يرى شيئاً إلا ذاته.

روى أحدهم، على مسمعي، ما يلي:

كان الملا نصر الدين مع اثنين من أصدقائه، يتحدثون عن الشبه بين البشر.

قال الأول: «إني أشبه ونستون تشرشل، حتى هناك كثيرون لا يميزون بيننا».

أما الثاني فقال: «كثيرون يعتقدون أني ريتشارد نيكسون، فيتوددون إلي ويطلبون مني التوقيع على مذكراتهم».

ضحك الملا نصر الدين وقال: «ما هذه التفاهات، بالنسبة لي، يشبهني الناس بالله».

تعجب صديقاه وتسائلا، كيف؟

هز الملا نصر الدين رأسه وقال: منذ مدة ارتكبت خطأ، أدى إلى حبسي للمرة الرابعة في حياتي. وما إن رآني السجان حتى صاح: «يا الله، ها أنت هنا من جديد».

الأنا لا تعترف بالآخرين، أنت الأهم. أما في حالة الحب، فأنت موجود وكذلك الآخرون. حين تقع في حب إنسان ما، قد تفصح له عن حبك وقد لا تفعل، إنما حبه ينمو في قلبك، سواء أعلنت عنه بالكلام أم التزمت الصمت. «أنت مهم وقد تكون أكثر أهمية مني». هذا هو الحب، حيث لا أنا ولا أنانية. وكلما ازددت حباً بالآخر، كلما أحسسته أنه أكثر أهمية منك. «لو وضعنا في موقف حرج، إما أموت أنا أو أنت، فسأرتضي الموت، لتبقى أنت على قيد

الحياة». هذا هو الحب الحقيقي، وهذه هي المايتري بهافانا، وشيئاً فشيئاً ستجد نفسك منصهراً في الآخرين، ستشعر أنك غير موجود بذاتك ولا لذاتك، وقد تأتي لحظات، لا تكون موجوداً فيها إلا جسدياً، تكون غارقاً في صمت مطبق، حيث لا أنا، ولا حقد، لا مركز للعالم، بل المكان الفسيح الذي لا حدود له، الذي يقول عنه بوذا إنه سبب تنورك.

لن تكون متنوراً بوجود الأنا. لن تكون متنوراً طالما أنت تقول «أنا» أو «أنا ذاتي». الحب الحقيقي يعني إسقاط الأنا، اختفاء كلمة «أنا» من قاموس اللغة ومن التداول على الألسنة.

يولد الطفل بلا أي «أنا»، يولد صفحة بيضاء ناصعة، ومع الأيام يبدأ المجتمع بالكتابة عليها، ويقضي على نصاعتها، ويوماً بعد يوم يبدأ المجتمع بخلق قيود وأغلال ليدي هذا الطفل، ويفرض عليه التصرف وفق أسس ومفاهيم اخترعها هو المجتمع _ وفق قواعد لن تمنحه السعادة، ولن تعطيه حرية الحركة ولا حرية التفكير، إنه مقيد، مساحة محدودة تحركه. وكيف له أن يرتاح بلعبته وهو يتحرك ضمن مساحة حددها له الآخرون؟ كلما كان المرء أكثر انفتاحاً، كلما تمكن الكل من الدخول إلى ذاته، وكلما صار أكثر سعادة.

مايتري بهافانا. قد تكون المساعد الأهم.

إدعاء الوداعة
ليست تسامحاً ولا عطاء

لا يمكن للأعمى أن يقود أعمى. أولئك القابعون في الظلمة، لا يمكنهم إخراج الآخرين إلى النور. أولئك الذين لا يعرفون الخلود، لا يمكنهم مساعدة الآخرين على التخلص من الخوف من الموت. أولئك الذين لا يعيشون حياتهم بكليتها وبشغف، أولئك الذين ينشدون الأغاني غير الصادرة من القلب، أولئك الذين ابتساماتهم مجرد لوحة مرسومة على شفاههم، لا يمكنهم مساعدة الآخرين ويكونوا سعداء منشرحي القلوب، ومخلصين. أولئك المنافقون المدعون، لا يمكنهم تعليم الآخرين مبادىء الصدق والاستقامة.

أولئك الذين ليسوا هم أنفسهم، ولا يعرفون شيئاً عن أنفسهم، الذين ليس لديهم أي فكرة عن خصوصيتهم، وما يزالون لا يعون أن شخصيتهم، هي ليست شخصيتهم، لأنها لا تعبر عن ذواتهم يوم ولادتهم، بل هي الشخصية التي صنعها المجتمع لهم، ليس بمقدور هؤلاء مساعدة أي إنسان آخر على إنماء ذواتهم، ليس بل هذا مستحيل.

إذا كانت شعلة حياتك مطفأة، فكيف ستضيء على الآخرين.

وكيف ستشعل النار في مواقد الآخرين. يجب أن تشعل شعلتك أولاً، وبعدها تنير النار في مواقد الآخرين. يجب أن تتمرد، ومن ثم تدعو الناس إلى التمرد. إذا كنت مضيئاً، وجذوة نارك مشتعلة، يمكنك أن تنشر الضوء والنور حولك، وفي أماكن أبعد. إنما عليك أن تكون مضيئاً أولاً.

فقط، يمكنك إعطاء مما تملك. إذا كنت تعيساً، فلن تعطي غير التعاسة، وهكذا سيتضاعف عدد التعساء. كذلك، في حال كنت تملك النعمة، فستشارك الآخرين هذه النعمة. فاقد الشيء لا يعطيه.

أعمى يقود أعمى. فلا شك سيسقط الإثنان في البئر. يجب أن تكون مبصراً حتى تتمكن من قيادة الأعمى إلى الطبيب، أو إلى أي مكان آخر. فقط، يمكنك إعطاء مما تملك. إذا كنت تعيساً، فلن تعطي غير التعاسة، وهكذا سيتضاعف عدد التعساء. كذلك، في حال كنت تمتلك النعمة، فستشارك الآخرين هذه النعمة. فاقد الشيء لا يعطيه.

كيفما أردت العالم أن يكون، فما عليك إلا أن تكون القدوة. عليك المرور بمعمودية النار وكسب التجارب، لأن لا النقاش وحده، ولا الحذر، كافيان لإقناع من تريد إقناعهم بوجهة نظرك، وحدها تجربتك الحياتية، قادرة على منح الحب، حثهم على التأمل، والاستغراق في الصمت. وحدها تجربتك تغنيك وتجعلك قادراً على جذب الآخرين.

لا تحاول مساعدة أي كان قبل اكتساب التجربة والخبرة، لأنك ـ في هذه الحال ـ تكون تفسده أكثر مما هو مفسد أساساً، بسبب ما أورثهم المجتمع عبر قرون وقرون. فمن الأفضل ألا تحاول الادعاء بمساعدة الآخرين، حتى لا تتحول هذه المساعدة إلى خطر عليهم.

عليك معرفة الهدف، معرفة كلية، قبل أن تأخذ بيد الآخرين

وتقودهم نحو هذا الهدف. عليك أن تتعلم كيف توصل تجربتك وخبراتك لتتمكن من إيصال ما تريد إيصاله، وإلا ستكون النتيجة عكس ما تريد.

من الأفضل، أن تطهر نفسك أولاً، أن تكون ثاقب النظر، فلربما تتمكن من مساعدة الآخرين، جميل أن يكون لديك الرغبة، غير أن الأشياء الجيدة، لا تأتي نتيجة النوايا الحسنة فقط.

قال القدماء: طريق جهنم تمر عبر النوايا الحسنة. هناك الملايين الذين مدوا يد العون، بنوايا حسنة، الذين نصحوا الآخرين، ولم يزعجوا أي أحد، حتى أولئك الذين لم يقبلوا نصائحهم. المهم هو النصيحة، سواء ارتضاها الآخرون أم رفضوها.

الفرح بإعطاء النصح هو نوع من الأنانية، الأشخاص الذين تنصحهم يصبحون مهمشين، وتصبح أنت العارف المثقف. بكل بساطة، وحدها النصيحة التي يمكن أن يعطيها أي كان، وما من أحد يعمل بها. وهذا أمر جيد، لأن الذين يوزعون النصائح، هم بحاجة للنصح.

إعلم، أنك إذا أردت تغيير العالم، عليك أن تصلح ذاتك أولاً، عليك أن تبدأ بنفسك، ومن ثم تتحول نحو الآخرين لكسب قلوبهم. يجب أن ترفض أولاً... ومن ثم سترى المعجزة، سيشاركك الآخرون رقصة الحياة.

الرقص، ينتقل بالعدوى، كذلك الحب والعرفان بالجميل والإيمان، كل هذه تنتشر بالعدوى، إنما، وقبل كل شيء، يجب أن تكون حاملاً بيدك شعلة الحياة التي يجب أن يراها الآخرون.

حنان الحب ووهم العظمة

التعاطف هو قمة تزهر الوعي. إنه الحب المتفلت من العتمة. إنه

الحب المتحرر من كل الأغلال والقيود. إنه الحب النقي الصافي، الخالي من السموم. الحب يصبح تعاطفاً، يصبح تسامحاً وعطاء. الحب هو البزرة والعطاء هو تزهره.

غير أن العطاء ليس عطفاً، العطف توجه أناني، يقوي الأنا عندك. حين تشفق على أحد، تشعر بأنك تمد له يداً، دون أن تدري أن هناك إهانة خلف هذه الشفقة، أنك تذل الآخرين وتتمتع بإذلالهم. ولهذا فالعطف يصعب نسيانه، ذلك لأنه ادعاء بالتسامح والعطاء، وليس تسامحاً ولا عطاء، لأن خلفه دوافع خفية بعيدة كل البعد عن الغاية.

العطاء لا دوافع خلفه. بكل بساطة، العطاء يعني أنك تملك فتعطي، دون النظر لما يحتاجه الغير، الذي لا يأخذه العاطي بعين الاعتبار. العطاء يعني أن لديك الكثير، إذاً تعطي الكثير، حتى أحياناً تعطي كل ما تملك. العطاء عملية عفوية تتم تلقائياً، دون طلب، إنه أشبه بالتنفس. العطاء يختلف عن العطف، إنه نقيضه، للعطف أسباب تختلف جداً عن أسباب العطاء. العطاء عملية عفوية تلقائية. العطاء هو أن تعطي ما أنت بحاجة إليه، وليس الذي أنت لست بحاجة إليه.

العطاء لا يفرق كما جاء في أحد الكتب المقدسة: «عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك». فهذا قول قد يصح أن يكون مبدءاً تجارياً. أنت تعطي، لأنك تتوقع أن يعاد إليك ما أعطيت. هذه هي الأنانية بحد ذاتها. وهكذا فعطاؤك، لا يهدف لمساعدة أحد، بل لمساعدة نفسك، ومن خلال الآخرين. العطاء هو العطاء بلا دوافع ذاتية، وبلا تفكير بما ستجني، لأنك ستجني الفرح، ستتعرف إلى لذة العطاء.

لذا، تذكر دائماً، العطاء ليس عطفاً ولا بأي شكل من الأشكال، خاصة كما تعتبر أنت العطف، لأنه لن يعود عطفاً. العطاء هو وحده

التعاطف الحقيقي. أنت لست «لتكون عطوفاً» على أحد، أنت لست أكبر من الآخرين، بكل بساطة، أنت تحرر طاقتك التي تلقيتها من الكلي الشمولي، منه أنت وإليه تعود، وأنت لن تكون حجر عثرة، هذا كل شيء.

«عامل الآخرين كما تحب أن يعاملوك». فهذا قول قد يصح أن يكون مبدءاً تجارياً.

حين كان الإسكندر ينوي الذهاب لاحتلال الهند، ذهب لرؤية المتصوف الأكبر ديوجين الذي كان مستلقياً على ضفة النهر تحت أشعة الشمس. منذ زمن والإسكندر يرغب برؤية هذا الرجل الذي قيل له عنه، إنه لا يملك شيئاً، ولكن ليس من رجل في العالم أغنى منه. كان البعض يقول «إنه متسول، غير أنه في الحقيقة كان امبراطوراً». وقبيل سفره سمع الإسكندر أن ديوجين على مقربة منه، فذهب لرؤيته.

كانت الشمس ما تزال تبزغ. ديوجين يستلقي عارياً على الرمل. تقدم الإسكندر نحوه وقال: «إني سعيد جداً لرؤيتك ويبدو، أن كل الذي سمعته عنك هو حقيقة. لعمري ما رأيت رجلاً أسعد منك. هل يمكنني فعل شيء من أجلك؟» دون أن ينظر إليه، أجاب ديوجين، تنحَ جانباً، فأنت تحجب نور الشمس عني. تذكر دائماً ألا تحجب نور الشمس. أنت إنسان يشكل خطراً على العالم؛ لأنك قادر أن تحجب نور الشمس عن الكثيرين من البشر. إذاً تنحَ جانباً.

العطاء إذاً، هو ليس أن نعطي شيئاً، بل هو في عدم حجب ضوء الشمس. فكر بهذا القول. إنه الخلود بعينه، بكل بساطة. إنه الخلود ينتشر من خلالك، لقد أصبحت قضيب خيزران مجوف، عبرك يمر الخلود، وحده هذا القضيب يتحول نايا، يرسل الأنغام في كل لحظة، وفي كل اتجاه.

العطاء، لا ينبع منك، بل من الوجود، من الخلود. بينما العطف ينبع منك أنت. هذا ما عليك فهمه. العطف أمر أنت تقوم به، أما العطاء فهو من صنع الوجود، وأنت لا تعيق هذا، ولا تقف حجر عثرة في طريقه. هذا أنت بكل بساطة. أنت لا تحاول حجب نور الشمس، بل تتركه ينتشر في كل مكان ويدخل إلى كل مكان يريد.

العطف يقوي الأنا. بينما العطاء والأنا لا يلتقيان. فقط يكون العطاء، بعد اضمحلال الأنا. إذاً لا تبحث في قواميس اللغة، ففيها ستجد المعنى ذاته للعطف والعطاء، إبحث فقط في قاموس الوجود فستجد أن لكل منهما معنى مختلف عن الآخر.

الزن، لديهم قاموس واحد، قاموس الكون. عند المسلمين، هناك القرآن، الفيدا عند الهندوس، الإنجيل عند المسيحيين، والتلمود عند اليهود. لذا قد تتساءل أي كتاب مقدس عند الزن؟ وفوراً أقول لك. ليس عند الزن كتاب مقدس، الكون هو كتابهم المقدس. وهنا تكمن جمالية الزن. في كل صخرة عظة، وفي زقزقة كل عصفور يتردد صوت الله، وكل حركة حولك، هي الوجود بذاته يرقص رقصة الحياة، رقصة الخلود.

العطاء يكون حين تسمح لتلك الأغنية الأبدية أن يتردد صداها من خلالك. حين تتعاون مع تلك الألوهة، حين تكون أنت والوجود تمشيان معاً. لا شيء عنده، لينجزه بمساعدتك، كل ما عليك، هو أن تفسح له الطريق، أن تخلي له المساحات، وحتى تكون معطاء، عليك أن تختفي كلياً، بعد اختفائك فقط يفيض العطاء.

تغذية الإحساس بالعطف، يجعلك أكثر أنانية. فكر ملياً، الناس العطوفون هم أكثر أنانية من المجرمين. هنا تكمن الغرابة، المجرم يشعر، ولو بشيء من الذنب، بينما ما نسميه عطوفاً، يعتقد أن كل

شيء يجري على ما يرام، وأنه أفضل من غيره. إنه جد واع لما يفعل. وكل فعل عطف يزيد من طاقته، ومن قدرة الأنا عنده. إنه يصبح كل يوم أعظم من اليوم الذي مضى... إنها الأنا تسيره.

أول ما عليه إدراكه، أن العطاء ليس الذي يسمى العطف. العطف أنت تقوم به، أما العطاء فيتم من خلالك، إنه من الوجود وعليك أن تكون سعيداً وتشكر الوجود لأنه اختارك كوسيلة نقل، اختارك فتحولت إلى شفاف، لا تعكس نور الشمس، بل تسمح له باختراقك. هذا العطف النقي الطاهر، حين تصبح بلا أنا.

العطاء ليس هو ما تسميه الحب. فيه شيء من جوهر الحب، لكنه ليس الحب الذي تعرفه والذي هو مجرد شهوة جنسية تتمظهر بمظهر الحب.

ثانياً عليك إدراك أن العطاء ليس هو ما تسميه الحب. فيه شيء من جوهر الحب، لكنه ليس الحب الذي تعرفه والذي هو مجرد شهوة جنسية تتمظهر بمظهر الحب. الحب الذي تعرفه يختلف كلياً عن الحب الذي يجب أن يكون. إنه نوع من اكتشاف الآخر. إنه إطلاق اسم جميل عليه.

قد تقدم على مخاطبة أحدهم بالقول «أحبك». والحقيقة أنك لا تحب أحداً، لا هذا ولا ذاك. لقد تعودت عليه لكنك لا تحبه، فكيف يحق لك استغلال هذا «التعود» لتجعله حباً؟ إنه لأمر مرفوض، إنك تدمر الآخر الذي عبرت له عن حبك. إن استغلال الآخرين كوسيلة للوصول إلى حالة ما، هو جريمة لا تغتفر.

يتحدث «إيمانويل كانت» عن الأخلاق، فيقول: استغلال الغير، هو عمل لا أخلاقي، هو جرم بحق الأخلاق فلا تفعل ذلك، لأن لكل امرىء كرامته وخصوصيته. ما عليك إلا احترامه كما هو، لا

جعله وسيلة لأمر ما، وحين نحترمه كما هو، وبدون أي غاية، تكون تحبه فعلاً. المشكلة في مجتمعنا أن كلاً منا يستغل الآخر، الزوج يستغل زوجته، الزوجة تستغل زوجها، وبالطبع لكل منهما دوافعه الخاصة.

ليس الحقد ما يدمر البشر، بل ما تدعي أنه حب، أقول تدعي، لأنه في الواقع هو غير ذلك كلياً. نحن نتوهم أن الحب يجلب لنا السعادة، لذلك نتوهم أننا نحب. هكذا صارت الإنسانية تعاني من مرض عضال ومعدٍ اسمه الحب، لأنك لو فكرت منطقياً بالأمر، لعرفت أن هذا الذي تدعي أنه حب، ما هو إلا شهوة جنسية، ما هو إلا رغبة بممارسة الجنس مع من تدّعي أنك تحبه، وهذا ليس حباً، الشهوة أخذ، والحب عطاء. الشهوة الجنسية، هي أن تأخذ بقدر ما فيك أن تأخذ، وتعطي أقلِ ما فيك أن تعطي. أعطِ قليلاً وخذ كثيراً. إن أعطيت فلا تعطِ رغيفاً بل كسرة خبز. إفعل ذلك، لأنه عليك أن تعطي، تحقيق الشهوة نوع من العمل التجاري. من الأفضل أن تأخذ دون أن تعطي، وإن لم يكن هذا ممكناً، فاعط القليل، وادّعِ أنك تعطي الكثير، وفي الوقت ذاته، خذ كل شيء من الإنسان الآخر.

الشهوة هي الرغبة في نيل لذة، بينما الحب هو غير ذلك. كذلك العطاء، هو ليس حباً بالمعنى المتعارف عليه. إنه حب كإحساس حقيقي. العطاء، هو أن تعطي دون التفكير بما ستجنيه لقاء ذلك حتى ولو لثانية واحدة. كن على ثقة، أنك حين تعطي، لمجرد أن تعطي، فسيكون مردود فعلك هذا أهم بكثير، سيكون إحساساً بفرح داخلي يتجلى بإشراق وجهك وابتسامة شفتيك. ماذا لو أعطيت، وأنت تتوقع أن تنال في المقابل، ولم تنل؟ لا شك ستصاب بخيبة أمل، باليأس وبالإحباط، وستكتشف أنك كنت تخدع نفسك. هذه هي حال الذين يفكرون بالحب ومشاكله. بينما العطاء هو غير ذلك، لأنه لا يهتم بما هو غير العطاء، ولأن العطاء إحساس ذاتي

«ليست هي طاقتي التي أعطها للآخرين، بل هي طاقة الوجود بحد ذاته. فمن أنا لأطلب مقابل ما أعطيت؟ حتى طلب الشكر، أمر تافه ومرفوض».

هذا ما حصل، حين جاء مريض للمسيح طالباً منه الشفاء، وكان له هذا بمجرد لمسة من يد المسيح، وطبيعي أن يقدم هذا الإنسان الذي عجز الأطباء عن شفائه، وطلبوا منه تقبل الأمر الواقع والاستسلام إليه، طبيعي أن يشكر المسيح الذي أجابه: «لا تشكرني أنا، بل اشكر الله. إن الذي حصل، حصل بمشيئة منه. إنه إيمانك الذي شفاك وهي طاقة الرب التي شفتك بسبب إيمانك. أما أنا، فلست سوى صلة وصل بينك وبين الأب السماوي. إذاً لا تشكرني أنا، بل الله الخالد الأبدي. اشكر إيمانك الذي قربك من الله، وأنا لست هنا الآن، إلا بمشيئته».

هكذا يكون العطاء، عطاء دون الشعور بما تقدم للغير، دون معرفة «أني العاطي» وهكذا يمضي الوجود في الاستجابة إليك بألف ألف وسيلة؛ حين تمنح القليل من الحب، لا تدري من أين يأتيك الحب. من يعطي ليس إنساناً جشعاً ولا يفكر بكسب شيء مقابل ما أعطى، ولهذا يثابر على العطاء. وهكذا أيضاً يشعر بأنه يُعطى ولكن من أين؟ إنه لا يدري.

الأمر الثاني: العطاء هو ليس ما نسميه حباً، وبالرغم من هذا، إنه الحب الحقيقي.

الأمر الثالث: العطاء هو اتقاد الذهن، لكنه ليس عقلياً. حين يتحرر الذهن المتقد من جميع الشكليات، من كل المفاهيم المنطقية، من كل التفاهات. حين يتحرر من العقلانية بسبب محدوديتها، حين يصبح جدية، يصبح عطاء. الرجل المعطاء هو فعلاً رجل متقد الذهن لكنه ليس عقلانياً، بمقدوره أن يسبر غور الأشياء، إنه ثاقب النظر،

لديه عينان حقيقيتان ليرى بواسطتهما، لا شيء يحجب عليه، إنما دون تخمين أو اعتقاد، وليس من خلال المفاهيم المنطقية أو نتيجة استنتاج، إنما من خلال الرؤيا الواضحة.

تذكر، المعطاء ليس إنساناً غامضاً، وفي الوقت ذاته ليس عقلانياً. إنه متقد الذهن بشكل لا يوصف، إنه مثال لاتقاد الذهن، إنه إشراق نفسي، يعرف لكنه لا يفكر، وما هي أهمية التفكير، طالما أنت تعرف وتدرك، أنت لا تعرف، إذاً عليك أن تفكر، لأنك لست قادراً على المعرفة، لذلك عليك أن تفكر. التفكير هو نوع من أنواع الدلائل التي قد توصلك إلى المعرفة، أما طالما بمقدورك أن تعرف، بمقدورك أن ترى، فلماذا تزعج نفسك بالتفكير؟

المعطاء يعي ويدرك، العقلاني يفكر. العقلاني مفكر أما المعطاء، ليس مفكراً، ليس عقلانياً. إنه فائق اتقاد الذهن الذي لا يقوم بوظيفة العقلاني. ذهنه يعتمد على الحدس والإدراك.

الأمر الرابع: العطاء ليس إحساساً ومشاعر، لأن لهذه الأخيرة وظائف كثيرة، لا تؤدي إلى العطاء. الأحاسيس، تأثر وعواطف وانفعالات، وكل هذه تتعارض مع مفهوم العطاء. الرجل المعطاء، يشعر، إنما بدون أي عاطفة، دون أن يكون متأثراً بأمور أخرى. ما عليك أن تفهمه أن المعطاء يلبي احتياجات الآخرين.

الإنسان الحساس، يبكي لرؤية إنسان متألم، ولكن ما نفع البكاء؟ هناك بيت يحترق.. فماذا يفعل الرجل الحساس؟ لا شيء سوى البكاء والصراخ واللطم على صدره. وهل هذا يطفىء النار؟ أما الرجل المعطاء، فيبدأ بالتحرك، دون أن يبكي، دون أن يصرخ، دون أن يلطم على صدره. الدموع لا تقدم علاجاً للمتألم، ولا تنقذ رجلاً يغرق في النهر أو البحر. أنت رجل حساس لكنك لست معطاء.

المعطاء ليس إنساناً غامضاً، وفي الوقت ذاته ليس عقلانياً. إنه متقد الذهن بشكل لا يوصف، إنه مثال لاتقاد الذهن، إنه إشراق نفسي، يعرف لكنه لا يفكر، وما هي أهمية التفكير، طالما أنت تعرف وتدرك، أنت لا تعرف.

المعطاء يهب نوراً للنجدة، دون التردد ولو لثانية واحدة. يفعل هذا، لأن فهمه للأمور وفعله متلازمان لا انفصال بينهما. الجانب الأول هو الفهم والإدراك، أما الجانب الآخر فهو الفعل وليس التردد أو البكاء.

لهذا السبب، أرى أن المؤمن، هو بطبيعته إنسان ملتزم بالحياة، لا ينتحب ولا يبكي، على عكس الرجل الحساس الذي يبدو أحياناً إنساناً معطاء، إنما في الواقع لا يقدم أي خدمة أو مساعدة. على العكس قد يتسبب بخلق المشاكل، سيؤخر لحظة المساعدة، بدلاً من الإسراع في تقديمها.

رجل العطاء يسرع في الفعل، لا يذرف دمعاً ولا يبدي انفعالاً... كل ما يفعله هو الإسراع بمد يد العون... قلبه مفعم بالحب.

حتى تتمكن من رؤية واضحة لأبعاد العطاء، وحتى تتمكن من معرفة حقيقته، ما عليك إلا فهم الأمور الأربعة التي حدثتك عنها. لا تتساءل، لمن سأعطي أو ما الذي سأعطيه؟ لا تتساءل عن كيفية زيادة ما تعطي، وإلا حولت العطاء إلى تعاطف. ولا ضرورة أيضاً لقراءة ما قاله بوذا وما نادى به السيد المسيح، لأنك في هذه الحال، تشغل تفكيرك بما تقرأ وتصبح عقلانياً، ما يعيق عملية العطاء، ويحول بينك وبين الوصول إلى مرحلة العطاء. ومن قال لك إن طريق العطاء تمر عبر الحب فقط؟ إذا أصغيت لما قاله بوذا عن الحب، ولما قاله المسيح أيضاً، فستجد نفسك متسائلاً، ما علي لأكون أكثر حباً للآخرين؟ وهكذا تكون تهدر الوقت، وتراكم كمية الحب لا

نوعيته... نعم إنك تتساءل كيف بمقدورك أن تعطي أكثر لكنك لا تتساءل عما تعطي.

هكذا تكون تسلك الاتجاه المعاكس، وتكون تتسبب لنفسك بالقلق. «أنا ما أحببت». «أنا ما أحببت حتى اليوم». إنه لأمر يستحيل تقبله، كذلك، ستقلب القول رأساً على عقب «وأنا ما أحبني أحد». حسناً إذاً، وحين ترتضي بهذا الواقع، واقع أن ما من أحد أحبك، تكون تسد الطريق على أنانيتك، تكون تمنع الأنا من السيطرة.

لهذا السبب، بسبب الأنا، يرفض الناس، الاقتناع بأنهم ما عرفوا الحب، وبسبب رفضهم هذا، فهم لن يعرفوا الطريق إلى الحب، ولن يعرفوا التحول، سيستمرون بالتحرك ضمن دائرة مغلقة، ويرددون، بشكل ميكانيكي، الأشياء والمفاهيم ذاتها، وهكذا يقعون في فخ التشوش الذهني.

إذاً كيف يمكن الوصول إلى العطاء؟ يكون ذلك، طالما أنت ومن تحب تسيران بالاتجاه ذاته. إن أسرعت في سيرك وأنت مهتم بالكم فقط، تكون قد غيرت اتجاهك. وهكذا، كلما أسرعت في سيرك، كلما تكون تبتعد عن العطاء. السرعة لن تقدم المساعدة، لأنك لا تسلك الطريق الذي يوصلك إلى من تحب، لأنك تمضي وراء شهواتك ورغباتك. إذاً كيف أصل إلى العطاء. مجدداً أقول، إنه ليس شفقة، وإلا لكنت أمضيت أيامك ولياليك، تبكي وتنتحب من أجل أولئك الذين يتعذبون في العالم كله، وإلا لتحولت إلى إنسان عاطفي، يشفق على كل واحد في فيتنام، كوريا، أو باكستان، أو في أي مكان آخر.

يتحدث ليو تولستوي، في مذكراته عن أمه، فيصفها، بأنها المرأة العطوفة الحساسة، لكن هذا الوصف لا يعني أنها تمتلك حس

العطاء. كانت جد حساسة، تصعد خشبة المسرح وتبدأ بالبكاء. حتى أن موظفاً، كانت مهمته إعطاءها المناديل لتبكي أمام أولئك المشاهدين الأثرياء الذين ينتمون في أغلبيتهم إلى العائلة المالكة. ويتابع تولستوي: «غير أني فوجئت، أنه في شتاء روسيا، موسم البرد القارس، حين تصبح الحرارة دون الصفر، والثلج يتساقط. أنه حتى في هذا الجو العاصف، كانت والدتي تأتي إلى المسرح يومياً، هي تدخل إليه، فيما سائق العربة، يبقى ينتظرها في الخارج، والبرد القارس يلسع وجنتيه، ويتغلغل في جسده، حتى أنه كثيراً ما كان يصاب بالحمى. كانت تدخل إلى المسرح، لتبكي أمام جمهور المشاهدين، لتعبر عن أحاسيس ومشاعر، دون التفكير بذاك الرجل الذي ينتظرها في الخارج».

العاطفيون، لا يتكبدون أي مشقة لذرف الدموع، ليتظاهروا أمام الآخرين أنهم متعاطفون معهم، لكن عليهم فعل الكثير، الكثير ليصبحوا معطائين. إن عليهم خسران حياتهم السابقة برمتها، المعطاء هو إنسان واقعي، بينما العاطفي يعيش مع أحلامه، وهذا لن يسمح له بالارتقاء إلى مستوى المعطاء. إذاً ماذا عليه أن يفعل؟ يأتيه الجواب من تعاليم الزن. التأمل وحده يرتقي به. إذاً علينا أن نعي ماهية التأمل.

جاء أحدهم إلى بوذا، مؤسس الزن والمبدع لأهم تقنيات التأمل وسأله: «ما هو التأمل؟ أخبرني كل شيء عنه». فأجاب بوذا «التوقف». نعم أجاب بكلمة واحدة التوقف، هذا هو التأمل عند بوذا. والخلاصة لهذه الكلمة، أن العقل المجنون لا يتوقف عن التفكير، إذاً لن يكون قادراً على ممارسة التأمل.

نعم العقل لا يتوقف عن التفكير، والتأمل هو حالة الوعي اللاتفكيري، التأمل هو حالة من فقدان الإنفعال، المشاعر، هو حالة

التأمل لا يؤتى به من أي مكان في الخارج، بل من داخلك، لأنه مقيم في داخلك، إنه النواة، وما عليك إلا التعرف إليها والاهتمام بها ورعايتها لتبدأ بالنمو.

عدم التفكير بشيء. التأمل هو الوعي، اليقظة، الحذر، إنما بدون تفكير. التأمل: إنه الوعي النقي.

ولكن كيف تصل إلى هذه الحالة؟ الزن يرددون كلمة واحدة «هيوا تو» hua tou، كلمتان صينيتان تعنيان «ضد التفكير أو ضد الكلام». والعقل يكون هكذا، حين لا يكون منشغلاً بالتفكير.

لاحظ، تمر فكرة واحدة على شاشة عقلك، تمر كغيمة. تأتي أولاً، على شكل غامض، ومن ثم، فجأة تنطبع على شاشة دماغك. ثم تبدأ بالتحول إلى خارج الشاشة لتختفي، بعدها تأتي فكرة ثانية. إنما هناك فترة تفصل بين خروج الفكرة الأولى ودخول الفكرة الثانية، فترة قد لا تتعدى الثواني، تكون الشاشة خلالها بيضاء ناصعة.

هذه الفترة هي ما نسميها «اللاكلام، اللاتفكير» إنها الفترة التي يكون الدماغ خلالها هادئاً لا يقوم بأي عمل. هذه الفترة، هي المثلى للتأمل، وحين تدرك هذا، تكون تمتلك كنزاً لا يفنى. التأمل لا يؤتى به من أي مكان في الخارج، بل من داخلك، لأنه مقيم في داخلك، إنه النواة، وما عليك إلا التعرف إليها والاهتمام بها ورعايتها لتبدأ بالنمو.

الفترة الفاصلة بين الفكرة والفكرة، هي فترة اللاكلام، اللاتفكير. وحين تختفي الأفكار تختفي الكلمات أيضاً. وهكذا علينا استغلال هذه الفترة لنبدأ بالتأمل.

«على المرء ألا يخشى من الأفكار المتلاحقة. بل من عدم التنبه لها». هذا ما يقوله بوذا. إنه مقترب عقلاني، لم يسبق لأحد أن قال

به أو انتبه له. بوذا، طالب بعدم الخوف من تزاحم الأفكار، إنما الخوف من أمر واحد، هو عدم الانتباه لتلك الأفكار مباشرة.

إذا كنت مدركاً لأهمية خطر الأفكار، إذا كان بمقدورك ملاحظة تزاحم الأفكار، إذا كنت قادراً على متابعة مسارها، فهذا يعني ألا مشكلة تواجهك البتة. وعيك سيقدم لك الحلول، سيقول لك إن هذه الأفكار منفصلة عنك، وأنت لست ملزماً بها. أنت اليقظة وهي جزء منها، هي تأتي وتروح. إنها ضيف وأنت المضيف. متى تدرك هذا، تكون خطوت الخطوة الأولى نحو التأمل.

يتحدث الزن عن «الغبار الغريب». مثال على ذلك يأتي مسافر ويدخل الفندق، إما لتمضية الليلة أو لتناول الطعام، وبعدها يتابع رحلته نحو مكان آخر، يرحل، بينما يبقى صاحب الفندق. المسافر هو الضيف، وصاحب الفندق هو المضيف. إذاً المسافر هو الغريب. أو لنقل إنه ذات يوم مشمس، تدخل أشعة الشمس الغرفة عبر فتحات النوافذ، بحيث يمكنك رؤية ذرات الغبار تتحرك وسط حزمات الضوء، فيما الفضاء الفارغ ثابت. إنه الفراغ.

الغبار هو المتحرك «الغبار الغريب» هو الأفكار المزيفة، والفراغ هو أنت على حقيقتك، أو المضيف الذي لا يأتي ولا يرحل مع الضيف.

إنها رؤيا رائعة. الوعي ليس المحتوى. أنت الوعي، والأفكار تأتي ومن ثم تختفي. أنت المضيف، والأفكار هي الضيف. أنت باقٍ، ثابت، لا تتغير. أنت الأبدي... أنت الأبدية بحد ذاتها.

فكر ملياً، تصاب بالمرض أحياناً، وأحياناً تكون بصحة جيدة، تكون مكتئباً حيناً، وسعيداً حيناً آخر. ذات يوم كنت صغيراً ما تزال طفلاً، ومن ثم أصبحت يافعاً، ومن ثم أصبحت كهلاً. ذات يوم تكون قوياً، ولكن يوماً سيأتي تكون فيه ضعيفاً. كل هذه تأتي

وترحل، أما ـ أنت ـ فباقٍ ووعيك كما هو، ولهذا، إذا نظرت إلى داخلك، لن تتمكن من معرفة كم من العمر بلغت، لأنه لا يوجد عمر، لا وقت في داخلك، فأنت ما زلت تماماً كما كنت أيام طفولتك أو أيام شبابك. أنت بذاتك الداخلية، ما تزال كما أنت. لتعرف كم من العمر بلغت، أنظر إلى شهادة ميلادك، وإلى مفكرة يومياتك، بمعنى أن عليك النظر إلى ما هو خارجك. أما في داخلك فلن تستفيد شيئاً. أنت أنت لم تتغير، سواء مرت عليك أيام سوء أو أيام سعادة... فأنت أنت.

تتلبد السماء أحياناً بغيوم سوداء لكن السماء لا تتغير بسبب هذه الغيوم، وكذلك، قد تتلبد السماء بغيوم بيضاء، وتبقى السماء هي السماء، بينما تتبعثر الغيوم مع الريح. تأتي الغيوم وترحل، والسماء هي السماء.

هكذا الحال معك. أنت السماء، والغيوم هي الأفكار تراقبها طالما هي موجودة، وتنساها فور اختفائها. فهم هذه الحقيقة هي الخطوة الأولى على طريق الوعي... لقد صحوت من غفوتك، ولم تعد مرتبطاً بشيء آخر، لا بالغيوم أو غيرها ـ أنت الآن مدرك أنك باقٍ إلى الأبد، وهكذا تختفي كل الهواجس والمخاوف من أنك ستتغير أو ستزول كما زالت الغيوم. لا خوف أبداً، أنت لن تتغير، كل الأشياء الخارجية تأتي وتذهب كما تلك الدوائر التي نراها على سطح المياه. أنظر إلى أعماق ذاتك، فلن ترى شيئاً من هذا القبيل، لن تجد سوى ذاتك، أو المضيف كما يسمونه في الزن.

بشكل عام، لا بد من الاعتراف، أنك تتأثر بحركة الضيوف، يأتيك ضيف، يقيم معك تعتاد على وجوده، وهذا ما يجعلك تحزن لمجرد أنه سيرحل. ولهذا ترافقه إلى خارج الفناء مودعاً، والأسى يعتصر قلبك. وهذه هي الحال مع كل ضيف. كل ما عليك، معرفة

أن الضيوف، يأتون ويرحلون، إنهم ضيوف، وليسوا مواطنين... من الأساس، وحتى قبل مجيئهم، جاءوا وهم يعرفون، أن إقامتهم معك هي مجرد إقامة مؤقتة.

هكذا هي الأفكار، لن تبقى حتى ولو حاولت إبقاءها. حاول، يقول لك البعض، لماذا يقولون لك حاول؟ لأنهم على يقين أنك لن تقدر. حاول إبقاء كلمة ما في رأسك، ولن تتعجب إن انسلت من دماغك، إن غافلتك وذهبت. لماذا؟ لأنه ليس بمقدورك الاستمرار إلى ما لا نهاية الحفاظ عليها، لأنك ستنساها مجرد أن رن الهاتف. فإذا بزوجتك على الطرف الآخر، تحدثك عن مشاكل عائلية، تشغل فكرك بها فتنسى الكلمة. ألاحظت أن ضيوفك دائمي الحركة. وحدك أنت الثابت وهم المتحركون. ليتك تدري مدى راحة البال التي ستشعر بها، حين تتأكد من أنك صامد في مكانك، وكيف ستشعر بالثقة بنفسك.

إقرأ هذه الحكاية جيداً.

ذات يوم، وفي موعد تناول الطعام، وقف أحد المكرمين، وضع الرداء الفضفاض على كتفيه، وأمسك صحنه، ودخل المدينة. وراح يطرق باباً بعد باب طلباً للطعام، ومن ثم عاد من حيث أتى. خلع الرداء عن كتفيه، تناول طعامه، غسل يديه، رتب سريره، وضع رأسه على الوسادة وغفا.

إنها أشبه بشريط سينمائي، وفقاً للمفهوم البوذي، شريط سينمائي بطيء الحركة. إنها يوميات رجل متنور.

إقرأها ثانية، فسترى أن هذا المتنور فعل كل ما فعل، ومن ثم استلقى على مقعده.

هذا يعرض أمام أعيننا الحياة العادية لرجل متنور، وكذلك يخبرنا

عن نشاطاته اليومية التي لا تختلف عن نشاطات الآخرين، لا شيء مميزاً فيها. مهما يكن هناك أشياء، أمور جد خاصة به، إنما قلة هم الذين يعرفونها.

ما هذا؟ ما هي الأمور الخاصة به؟ إنه يتصرف كغيره، يغسل يديه وقدميه، يرتب سريره، يخلع رداءه ثم يخلد إلى النوم. الكل يفعل هذا.

كان أحد أتباع هذا المتنور في القاعة، فجأة نهض عن مقعده، وكتفه اليمين عار، سجد على ركبته اليمنى، ضم راحتي يديه إلى بعضهما تدليلاً على الاحترام، نظر إلى معلمه قائلا: «إنه لأمر نادر جداً يا معلمي، إنه لأمر نادر جداً».

ولكن ما هو هذا الأمر النادر جداً. فالمتنور لم يفعل شيئاً غير اعتيادي، إلا أن الحقيقة هي غير ذلك، غير ذلك كلياً. فهذا التابع لم يكن ينظر إلى ما يقوم به المتنور، بل كان يغوص في أعماق أعماقه. فما الذي كان يجري داخل ذلك المتنور، وما الذي أدركه ذاك التابع دون أن يراه؟

الأمر النادر جداً، هو أن ذاك المتنور بقي المضيف ولم يتخل ولو للحظة واحدة عن أبديته، كذلك بقي الوسيط بين الداخل والخارج، حتى وهو يغسل قدميه. كان يفعل ذلك بوعي ويقظة. فعل ذلك وهو يعرف: «هذه الأقدام ليست أنا» ويعرف جيداً أن «هذا الرداء ليس أنا»... «هذا الجائع ليس أنا». ويعي أن: «أن كل ما هو حولي، هو ليس أنا. أنا مجرد شاهد يرى كل شيء».

بالرغم من كل هذا، بالرغم من النعمة التي حلت عليه وفيه، استمر محافظاً على هدوئه. هذا الهدوء هو التأمل، وهذا ما يفرض عليه أن يكون واعياً، مدركاً لأهمية من يكون المضيف: أن يكون حذراً من الضيوف، ألا يصبح هو والضيوف واحداً. الأفكار تأتي

وتختفي، وكذلك المشاعر والأحاسيس، وحتى الأحلام. حتى المناخ يتغير، كل هذه التي تتغير هي ليست أنت. أنت الثابت.

إن كان هناك شيء غير قابل للتغير، فهو أنت: وهنا يكمن سر السمو. وحتى تكتشفه، وحتى تكونه، وحتى تكون فيه، ما عليك إلا الوصول إلى السامادهي. التأمل هو الطريقة أو المنهج، والسامادهي، هو الهدف. دهيانا هو تقنية الفصل بينك وبين الضيف، أما السامادهي فهو الارتقاء بالمضيف، ليصبح المحور والمركز.

كل ليلة هناك من يعانق المتنور أثناء نومه
وكل صباح يصحو معه
سواء جلس أو وقف، إنهما معاً، كل يتبع الآخر
سواء تكلما أو لا، فكلاهما في المكان عينه
لم ينفصلا حتى ولو للحظة واحدة
لكنهما كالجسد وظله.
إن رغبت أن تعرف أي شيء عن المتنور
إنه في رنة صوتك وفي داخل ذاتك

هذا ما يقوله الزن: «كل ليلة هناك من يعانق المتنور أثناء نومه». المتنور هنا دائماً واللامتنور هنا دائماً داخل ذاتك يوجد العالم والنيرفانا، اللامادي والمادي، الروح والجسد. داخل ذاتك تتجمع كل أسرار الوجود. أنت مركز اللقاء... أنت مفترق الطرق. على جانب يوجد العالم المادي، وعلى الجانب الآخر يوجد عالم الاستنساك. العالم الغيبي. أنت مجرد رابط بينهما، وأنت بإرادتك تختار أين تريد أن تكون. إن حدقت نحو العالم المادي، فستكون فيه، وإن أشحت بنظرك عنه وحدقت نحو الجانب الآخر. إن بدأت

التركيز على الوعي، فأنت هو الله. تغيير بسيط، تماماً كما يفعل سائق السيارة حين يغير ناقل الحركة، لكن نتائجه ليست بسيطة.

«كل ليلة هناك من يعانق المتنور أثناء نومه. كل صباح يصحو معه» إنه دائماً إلى جانبه لا يفارقه ولو للحظة. لماذا؟ لأن الوعي موجود دائماً.

«حين ينهض، أو يجلس، إنهما معاً، كل يتبع الآخر». المضيف والضيف كلاهما هنا. الضيوف يأتون ويرحلون، وهكذا لا يعرف الفندق الفراغ، إلا إذا أصبحت غير متوافق مع الضيوف، أي إذا أحسست أن ضيوفك صاروا عبئاً عليك. وهكذا يحدث الفراغ، ومن ثم قد يحدث ألا أحد في الفندق سوى المضيف يجلس صامتاً بهدوء. لا أحد يزعجه، غير مهتم بحركة السير، لا أحد يزوره. تلك هي لحظات البركة العظمى.

«سواء تكلما أو لا، فكلاهما في المكان عينه». حين تتحدث، يكون في داخلك إنسان آخر صامت. حين تكون مشتهياً، يكون هناك ما هو أبعد من الاشتهاء، حين تكون ترغب بأمر ما، فهناك، من لا يرغب بشيء على الإطلاق. إبحث عنه فستجده. أنتما متقاربان، وبالرغم من هذا فأنتما مختلفان، تلتقيان ولا تلتقيان. أنتما كالماء والزيت، يلتقيان ولا يندمجان. هكذا الضيف والمضيف، قد يأخذ كل منهما بيد الآخر، قد يتعانقان، لكن المضيف يبقى مضيفاً والضيف يبقى ضيفاً. الضيف هو من يأتي ويرحل، الضيوف يتغيرون، بينما المضيف هو هو، باقٍ كما هو إنه الثابت.

«لم ينفصلا حتى ولو للحظة واحدة، لكنهما كالجسد وظله. وإن رغبت أن تعرف مكان المتنور، فإنه في رنة صوتك، وفي داخل ذاتك». فلا تبحث عنه هنا وهناك. إنه مقيم فيك... إنه مقيم فيك كمضيف.

والآن، كيف نصل إلى هذه المرحلة، مرحلة المضيف؟ إليك ما عليك فعله.

إعزل نفسك عن كل علاقة ممكنة، وانظر، من تكون. إفترض أنك لست ابن والديك، أو زوجاً لزوجتك. إفترض أنك لست أباً لأولادك، ولا علاقة تربطك بأترابك، ولا أنت صديق لمعارفك. إفترض أنك لا تنتمي إلى بلادك، وهكذا، تصبح في داخل ذاتك.

إجلس صامتاً أحياناً. إعزل نفسك عن كل شيء. إقطع خط الهاتف، إنس أنك أب لأولادك... إعزل نفسك... حتى لا تعود ابناً أو أباً، تخلص من فكرة أنك زوج أو زوجة. أنت لم تعد زوجاً ولا زوجة، لا رئيساً ولا مرؤوساً، لا أبيض البشرة ولا أسودها، أنت لست صينياً أو هندياً أو ألمانياً، إنس كل شيء، إعزل نفسك عن كل شيء.

إفعل ذلك، ثم تساءل، أنا من أكون؟ لن تسمع جواباً لأنك ما تزال في عزلة عن كل شيء.

«أنا من أكون؟» ويأتيك جواب: «أنا طبيب»، لكنك غير مرتبط بمرضاك. وقد يأتيك جواب: «أنا أستاذ»، لكنك غير مرتبط بتلاميذك. وربما تسمع جواباً آخر يقول: أنا رجل... أنا امرأة... أنا صيني... أنا فرنسي... لكن لا شيء يربطك بكل هذه.

إعزل نفسك. وهكذا لأول مرة تكون في داخل ذاتك، ولأول مرة أيضاً يكون الضيف وحده، بلا ضيوف. إنها لحظات رائعة، أنت وحدك، لا أحد غيرك.. لأنك هكذا يمكنك رؤية الضيافة لصيقة بك، وأكثر اهتماماً. الضيوف يحدثون الضوضاء وعليك الاهتمام بطلباتهم، ماء ساخن، طبق لحم مشوي، أين هي غرفتي؟ وما إلى ذلك، وأنت كضيف عليك الإجابة على تساؤلاتهم وتلبية طلباتهم. «نعم عليك الاعتناء بأولئك الناس».

حين تعزل نفسك كلياً عن العالم، لا أحد يزعجك، لا أحد قادر على إزعاجك، فجأة تكون في وحدانيتك، وهذه هي نقاوة الوحدة. أنت الآن أشبه بالأرض العذراء، أنت أشبه بقمة جبال هملايا التي لم تعرف العمران بعد.

هذا ما تكونه العذرية. وهذا ما أعنيه حين أقول: «نعم أم المسيح كانت عذراء». هذا ما أعنيه. أنا لا أتفق مع ما يقوله اللاهوتيون المسيحيون. كل ما يقولونه هو مجرد توافه. هذا ما تكونه العذرية. لا شك أن مريم حين حبلت بالمسيح، كانت في حالة انعزال كلي عن العالم. وحين تكون في حالة انعزال مريم ذاتها، وترزق بطفل، فلا شك أن هذا الطفل سيكون المسيح لا أحد غيره.

في الهند القديمة. كانوا يعلمون طرقاً للإنجاب. إن لم تكن المرأة بحالة تأمل حتى الانتشاء، لا ضرورة لممارسة الحب، التأمل هو من يصنع الحب. وهو القاعدة الأساس لممارسة الحب، وهكذا تكون توجه دعوة الروح السامية، وكلما ازددت انتشاءً كلما سمت روحك.

لا بد من أن مريم كانت في حالة عزلة متناهية، حين حل المسيح في أحشائها. كان يجب أن تكون في مثل هذه العذرية. يجب أن تكون المضيف. لم تعد الضيف، ولا تعتبر من الضيوف، لم تكن الجسد، لم تكن العقل، لم تكن زوجة، لم تكن أحداً. في مثل هذه الحال، كانت تجلس صامتة، فإذ بضوء نقي، شعلة نور من دخان تلفها. لقد كانت عذراء.

وهذا ما أقوله عن حالة بوذا. هكذا كانت أمه ماهاتيرا حين حبلت به. وهذا ما أقوله عن كثيرين من أمثال المسيح وبوذا، هذه هي رؤيتي للعذرية. ليس عندي ما أقوله عن الأفكار الخرقاء التي تدور حول ولادة المسيح، يقولون إن مريم لم تمارس الحب مع رجل،

ما يعني أن المسيح لم يكن ابناً ليوسف، ولهذا يقولون إنه ابن مريم، ولا يتحدثون عن أبيه. إنه ابن ماري وابن الله، وأين هو يوسف؟ فإذا كان الله قد استعمل مريم، فلماذا لم يكن بمقدوره أن يستعمل يوسف أيضاً. الرحم هو نصف الحكاية، وثم الحمل من دون تلقيح بويضة مريم، فلماذا تجاهلوا منها يوسف؟ إنه لسؤال يغضب اللاهوتيين المسيحيين.

الحقيقة، بمقدور الوجود استعمال الإثنين معاً، لكن لا بد من مضيف، لا عجب إن استقبل ضيفاً عظيماً... المسيح. هكذا إذاً... حين تكون منقطعاً عن جميع الضيوف، فالخلود سيحل عليك ضيفاً. هكذا تصبح المضيف الأفقي، والخلود سيكون ضيفك.

حين تعزل نفسك عن كل شيء، تصبح أنت في داخلك. والآن إسأل نفسك، ما هذا «أنت في داخل ذاتك» سؤال لن تجد له جواباً.

معلم الزن واللص حكاية تسامح

حين أعلن بانكي عن رغبته في إعطاء دروس عن التأمل، تهافت إليه الطلاب من جميع أنحاء اليابان، وصادف أن ضبط أحدهم وهو يسرق، فرُفعت القضية إلى بانكي مع اقتراح بطرد هذا التلميذ المذنب، لكن بانكي تجاهل الأمر كلياً.

ثانية ضبط التلميذ ذاته وهو يسرق، وثانية غض بانكي النظر عن جريمته، ما أغاظ الطلاب الآخرين الذين رفعوا عريضة جماعية، طالبين منه، إما طرد هذا التلميذ المجرم، أو أنهم سيضطرون إلى مقاطعة الدروس وربما الرحيل جماعياً.

ما إن قرأ بانكي العريضة حتى أخذ يستدعي تلاميذه كلاً على حدة ويقول له: «أنت أخ حكيم، تميز بين الخطأ والصواب وبمقدورك الذهاب إلى أي مكان آخر لمتابعة دروسك، لكن هذا

التلميذ لا يعرف أيا هو الخطأ ولا أيا هو الصواب، فمن يعلمه إن لم أفعل أنا؟ لهذا سأبقيه هنا، حتى ولو رحل الجميع».

وهكذا غفر الأخوة لزميلهم فعلته وامتنع هو عن السرقة.

هكذا حكاية، مسرحها دروس التأمل، إنها ليست حكاية عادية بل تتطلب فهماً وإدراكاً لما لها من مغازٍ ومعانٍ. وإلا لن تفهم ما هو التأمل. تهافت إليه الطلاب من جميع أنحاء اليابان، وصادف أحدهم وهو يسرق.

إنهم أتوا من كل مكان، كلهم يرغبون بتحصيل المال، حتى أني لا أعتقد أن السارق كان يختلف جداً عن أولئك الذين كان يسرق أموالهم. كلهم سواسية، واحد يملك مالاً والآخر لا. هذا هو الفرق الوحيد بينهما.

رفعت القضية إلى بانكي مع اقتراح بضرورة طرد التلميذ المذنب.

ولكن لماذا تجاهل بانكي الأمر؟ لأنهم كلهم لصوص، لص يحاول أن يسرق لصاً. هذه هي القضية. في عالمنا الحالي لا يمكنك ادخار المال إلا إذا كنت لصاً. وهناك نوعان من اللصوص: لصوص شرفاء محترمون يسرقون أموال الدولة والناس عن طريق الاحتيال على القانون، وهكذا لا يستطيع أحد محاكمتهم، ولصوص عاديون لا يتبعون الطرق القانونية بل يخرقونها. وفي النهاية السرقة هي السرقة.

الأذكياء لا يخرقون القوانين، بل يبحثون عن طرق تمكنهم من الاحتيال على القوانين. إنما هناك قلة لا يتمتعون بالذكاء ولا يحسنون الاحتيال على القوانين لذلك يتصرفون غير آبهين بالعواقب، يتصرفون بطريقة غير قانونية. إنما، وفي النهاية، كلهم

مهووسون بالمال، ولهذا السبب تجاهل الأمر كلياً.

لاحقاً ضبط التلميذ ذاته وهو يسرق، وثانية غض بانكي النظر عن جريمته.

فعل ذلك، إدراكاً منه أنهم كلهم سواء. ولكن المفاجأة تكمن، في أنه إذا نجح أحدهم في فعلته، ولم يضبط، فسيتحول إلى رجل محترم، أما إذا فشل، فسيصبح مجرماً. اللص الناجح قد يصبح ملكاً أما اللص الفاشل سيبقى لصاً. المسألة إذاً، ليست بكيف سرقت أو كم، بل في ما تمكنت من السرقة دون أن يراك أحد أولاً. حتى إذا كنت سارقاً ذكياً وذا مهابة، فقد تصبح امبراطوراً. الإسكندر الكبير... نعم الإسكندر الكبير هو ليس أكثر من لص.

أولئك السياسيون، كلهم لصوص، يحاولون القضاء على اللصوص الآخرين، قد يكونون ضد الاحتيال ضد اللصوصية، ضد هذه أو تلك، لكنهم في الحقيقة، هم أكثر الناس احتيالاً. هم لصوص، لكنهم يتصرفون ضمن القانون، أو يحاولون على الأقل إعطاء تصرفاتهم صيغة قانونية، ولا شك ينجحون في ذلك طالما السلطة في يدهم، وإلا لكانوا مثلهم مثل اللصوص العاديين.

نعم.. ولهذا، ما إن يخلع السياسي من منصبه، حتى يتحول إلى رمز للفساد، رمز لكل الموبئات. حتى ولو كان هذا السياسي هو ريتشارد نيكسون أو أنديرا غاندي. ما إن يفقد الواحد منهم موقع قوته وسلطته، حتى يهزأ الآخرون منه. مهما يكن، إن عرفت كيف أصبح هذا الإنسان ثرياً، فلا شك لن تحترمه، ولكن إن عرف هذا الشخص كيف يُبقي الآخرين صامتين، يبقى حائزاً على احترامهم، لأن الناس ينسون سريعاً ويسامحون أيضاً.

قرأت في أحد كتب التاريخ، أن عشرين قرصاناً، طردوا من بريطانيا، قسم منهم قصد أميركا، وقسم آخر قصد أستراليا. ولكن

ما الذي حدث بعد ثلاثين سنة، الذين قصدوا أميركا أصبح قسم منهم حكام ولايات، أو رجال مصارف في أستراليا وأصحاب عقارات، وعادوا إلى بلادهم مكرمين معززين.

لهذا السبب تجاهل بانكي الأمر... ولماذا يوليه اهتماماً طالما هم كلهم مهووسون بالمال. لماذا يتحرك، حتى ولو أقدم الطلاب على رفع عريضة مهددين بالانسحاب إن لم يطرد السارق. ولأن هؤلاء ما جاؤوا إلى بانكي لتعلم كيفية التأمل، لأن للتأمل متطلبات وشروطاً. أولها ألا تفكر بالمال، ثانيها أن تكون خالي الذهن نقيه، والأهم هو أن يكون لديك القدرة على التخلي عن كل ما تملكه. لكن تلاميذ بانكي كانوا غير ذلك، وهذا ما يدعونا إلى التعرف على وظيفة الدماغ، وعلى أهمية المال عند الناس.

أنت تتهم أحداً بأنه سرق مالك، ولكن، كيف أنت حصلت على هذا المال؟ لا بد أن تكون قد أخذته من أحد ما وبطريقة ما. ما من أحد جاء إلى هذه الدنيا، وجلب المال معه، كلنا خلقنا وأيادينا خاوية، جئنا ولا نملك إلا ذواتنا، ولا شيء يعود لأحد، من هنا فالإنسان الراغب بالتأمل، ما عليه إلا أن يتخلى عن كل الماديات، إلا أن يكون أقل تعلقاً بأمور الحياة.

لكن معظم البشر محبون للمال، وحين نكون كذلك، نتصرف وفقاً لمبادئ السياسة. لذا حين رأى أولئك الطلاب معلمهم يتغاضى عن فعلة زميلهم مرتين، راحوا يتساءلون: «أي نوع من المعلمين هو؟ لا بد أنه متفاهم مع اللص». دون محاولة منهم أن يتساءلوا: «لماذا فعل هذا؟» دون أن يدركوا أنه تجاهل طلبهم مرتين، لأنه يريدهم ألا يكونوا ماديين. نعم السرقة عمل سيء وشنيع، لكن حب المال، ليس أقل سوءاً وشناعة.

بعد تجاهل طلبهم مرتين، تملكهم الغضب، فتقدموا بالعريضة،

تصرفوا كسياسيين، قدموا عريضة احتجاج مطالبين بـ «طرد اللص، وإلا سيغادرون جميعاً».

إذاً هم هنا، ليس بهدف تعلم التأمل، وإلا لكانت ردة فعلهم اختلفت كلياً، لكانوا أكثر تسامحاً مع ذاك الإنسان، وأكثر تفهماً لطمعه بالمال. لو كانوا متأملين حقيقة، لكانوا جمعوا بعض المال وأعطوه له قائلين: «خذ هذا المبلغ بدلاً من أن تسرقه». وتصرفهم هذا سيكون دلالة على أنهم هنا، عند بانكي، بهدف التأمل، بهدف التحول.

لكنهم تصرفوا غير ذلك كلياً، لم يرفعوا عريضة احتجاج وحسب، بل هددوا بالرحيل، دون معرفتهم أن ما من أحد يقدر على تهديد معلم متنور كبانكي.

ما إن قرأ بانكي العريضة، حتى أخذ يستدعي تلاميذه، كلاً على حدة، قائلاً لكل أحد منهم: «أنت أخ حكيم وواع، تميز بين الخطأ والصواب، وبمقدورك الذهاب إلى أي مكان آخر لمتابعة دروسك، لكن هذا التلميذ لا يعرف أيا هو الخطأ ولا أيا هو الصواب فمن يعلمه، إن لم أفعل أنا؟ سأبقيه هنا، حتى ولو رحل الجميع».

علينا التنبه هنا، إلى أن المعلم بانكي، لم يقصد بما قاله: «أنت أخ حكيم وواع» أنهم بالفعل حكماء، بل قصد السخرية والإهانة. إنه في الواقع قال لهم: أنتم حكماء، لكنهم في نظره هم أغبياء، والمشكلة أن الحكيم لا يعتبر نفسه حكيماً، بينما الغبي يعتبر نفسه حكيماً.

فعلاً، إنهم أغبياء: ما جاؤوا إلى المعلم بانكي لكسب المال، جاؤوا إليه لهدف أعظم بكثير وأسمى، لكنهم نسوا السبب الذي من أجله أتوا. لو كانوا واعين فعلاً، لأدركوا أن هذا السارق منحهم فرصة ثمينة، وأن عليهم شكره قائلين: «شكراً لأنك منحتنا الفرصة

لنعرف أننا منجذبون نحو المال... لقد نسينا كل شيء عن التأمل، ونسينا لماذا نحن هنا، حتى أننا نسينا المعلم بانكي».

جاء هؤلاء الأغبياء من أماكن جد بعيدة، تكبدوا مشقات سفر قد يكون دام لثلاثة أشهر، جاؤوا ليتعلموا التأمل على يدي المعلم الذائع الصيت بانكي، لكن أحدهم أقدم على السرقة فنسوا لماذا أتوا، وبدلاً من شكره، طالبوا بفصله وإبعاده...

حين قال لهم بانكي: «أنتم حكماء أيها الأخوة»، فقد كان يقصد أنتم جد أغبياء، لكنكم تعتبرون أنفسكم حكماء، يميزون بين الخير والشر، حتى أنكم حاولتم تلقيني درساً حول هذا الموضوع، فجئتم إلي، قائلين: «أخرج هذا الرجل من بيننا وإلا سنرحل نحن». حاولتم إملاء رأيكم علي، لأنكم تعرفون ما هو الصح وما هو الخطأ، ولأنه بمقدوركم الذهاب إلى أي مكان تشاءون. ولم لا، فأنتم حكماء يمكنكم تعليم الآخرين، ولكن إلى أين يذهب ذاك الرجل؟ إنه مجرد غبي.

الذين يعتبرون أنفسهم دائماً على حق، هم أغبياء. الحياة معقدة، جد معقدة، وفيها الكثير من الغموض، لذا لا يمكنك وبسهولة اعتبار نفسك محقاً وغيرك مخطئاً، في الواقع، الإنسان المتفهم هو من لا يقع في فخ الادعاء أنه هو الأصح.

طلاب بانكي وضعوا معلمهم بين أمرين، إما أن يطرد الطالب المذنب، وفقاً لرأيهم، أو يكون هو بانكي على خطأ... إنهم يعتبرون أنفسهم جد حكماء، لكنهم لم يحاولوا تفهم مدى تسامح معلمهم، ولا مدى انغماسه في التأمل، وابتعاده عن الماديات والدنيويات، لم يدركوا أن معلمهم متنور وأنه واحد من عظام معلمي الزن. ولم ينتبهوا أمام من يقفون ويحتجون ويهددون.

هذا هو قمة الغباء. نعرف أن الإنسان يرتكب الكثير من

الحياة معقدة، جد معقدة، وفيها الكثير من الغموض، لذا لا يمكنك وبسهولة اعتبار نفسك محقاً وغيرك مخطئاً، في الواقع، الإنسان المتفهم هو من لا يقع في فخ الادعاء أنه هو الأصح.

الحماقات في حياته، لكن الحماقة الكبرى، هي في ألا يعرف المرء من يواجه، وهكذا يتصرف بصبيانية ويقول التفاهات.

طلاب بانكي احتجوا وهددوا، لكن جوابه كان واضحاً لن أدعه يرحل، حتى ولو رحل الجميع.

كثيراً ما يكون تعليم من يدعي أنه على صواب أصعب بكثير من الذي يعرف أنه ليس على صواب. من السهل تعليم مجرم، لكنه من الصعب تعليم قديس، الأول يسعى للخروج من الحالة التي هو فيها، أما الثاني فهو مقتنع أنه «يفعل الصواب» وأنه سعيد، لذا من الصعب تغييره. لذا شدد المعلم بانكي على أنه مستعد لإبقاء هذا الأخ البائس.

يحدث أن رجلاً ما، مجرماً، سفاحاً لم يترك موبقة إلا وفعلها، يريد مقابلة متنور، لكنه يخشى ألا يسمح له تابعو هذا المتنور من مقابلته. لذا يتحين فرصة عدم وجود التابعين ويأتي. لا يطرق الباب، بل يقفز من فوق الجدار الخارجي. لكنه، لسوء حظه، لا يجد المتنور الذي لربما يكون قد ذهب ليتسول طعامه، فيقبض مريدو المتنور عليه فيصرخ قائلاً: «أنا لست آتٍ بهدف السرقة، إنما، لأنني معروف بأني مجرم وسارق وسيء السمعة، خشيت ألا يسمح لي بالدخول، وألا يسمح لي بمقابلة المتنور. صدقوني، أنا آت لأعلن توبتي، وأكون واحداً من تلاميذه».

يأخذه طلاب المتنور إلى أحد الأتباع الجد متنورين، إنما دون المتنور الأعلى، الذي يملك قوة الحدس والفراسة. «أنظر إلى هذا الرجل، إنه مجرم، سارق، زانٍ، يدعي أنه آت ليعلن توبته ويريد أن

يكون في عداد متلقي العلم والمعرفة... أنظر إليه واستكشف ماضيه».

يحدق هذا المتنور التابع بعيني الرجل الواقف أمامه فيرتعش جسده. إنه إنسان مجرم بكل معنى الكلمة، ومن الصعب جداً إحداث تغيير في نمط حياته، حتى المعلم الأكبر لن يقدر على فعل هذا، ينظر إلى الطلاب ويقول: «أخرجوا هذا الرجل فوراً من هنا، لأنه حتى المعلم الأكبر لن ينجح في تحويله إلى رجل صالح. إنه أستاذ في الإجرام، لقد استقرأت كامل حيواته، عبر أجيال تواجده على الأرض، وما وجدته فعل خيراً ولو لمرة واحدة... فاخرجوه من هنا فوراً».

يخرج الرجل حزيناً مكسور الجناح، لقد أغلقت جميع أبواب الخير في وجهه، ولا يريد العودة إلى سيرته القديمة، إذاً لم يعد أمامه سوى الانتحار، فوقف عند زاوية البناء وأخذ يلطم رأسه بالحائط. في هذا الوقت، كان المعلم الأكبر قد عاد من مهمته، ورأى الرجل يلطم رأسه بالجدار، تقدم منه، أمسك بيده وأدخله معه.

وتكمل الحكاية، وتخبرنا أنه بعد وقت ليس بطويل، تغيرت حال الرجل، وأخذ يرتقي سلم المتنورين الأمر الذي حير الجميع، فجاء أحدهم إلى المعلم الأكبر: «ما هذا؟ هل كل قدراتي على الإدراك وفي الفراسة ذهبت سدى، فكيف لمثل هذا أن يحدث؟».

أجابه المعلم الأكبر: «لقد نظرت إلى ماضيه الذي مضى، لكنك لم تنظر إلى مستقبله، واعلم، ومتى يتخذ الإنسان قراراً بالتغير، فلا شك سيتغير. المهم أن يتخذ قراراً، وهذا الرجل اتخذ قراره، فجاء».

«اسمعني جيداً، أنت لم تصبح متنوراً بعد، أنت رجل طيب، وتصنع الخير في حياتك، ماضيك لا يثقل منكبيك، تعرف نفسك جيداً. أنت فعلاً معلم صالح، وإنسان محترم، لكن أنظر إلى هذا

الإنسان ضميره يتعبه، وماضيه يشكل عبئاً ثقيلاً عليه، ويريد أن يتحرر من ماضيه، يريد إراحة ضميره. كان سجين ماضيه ولهذا، وخلال هذا الوقت القصير تمكن من أن يحرر نفسه من كل ما يربطه بالماضي وأخذ ينظر للمستقبل؟)).

((من المهم جداً تحويل الرجل المجرم إلى رجل صالح. أما أولئك الذين يعتقدون أنهم على صواب، وأن حياتهم تجري على ما يرام، فهؤلاء صعب تغييرهم. كذلك الحال بالنسبة للمتدينيين واللامتدينيين. إن أتاني مؤمن، قد لا أستقبله، أما إن أتاني كافر، فسأرحب به، لأن هناك إمكانية في تغييره)).

لهذا السبب قال بانكي:

((من سيعلمه إن لم أفعل أنا. لذلك سأبقيه حتى ولو رحل الجميع)).

وبفضل هذا الغدق من صفات وتسامح المعلم، لم يعد السارق سارقاً وانهمرت الدموع على خديه فغسلت ذنوبه، كذلك غسلت قلبه. هذه هي معجزة حضور المعلم في الوقت المناسب.

إن سر الحياة يكمن في ألا تعتبر نفسك دائماً على حق. لا تتمسك بأي فكرة، ولا تعتبر أحداً غيرك مخطئاً. إن اعتبرت نفسك دائماً على حق، فهذا يعني أنك تعتبر الآخرين مخطئين، وإياك ملامة أحد. لا تنضرع من أجلك، تقبل الناس كما هم، ومن أنت لتقرر إن كانوا على خطأ أم على صواب، إن أخطأوا فهم يتحملون نتيجة أخطائهم، وإن أصابوا فهم يجنون محصول أفعالهم.

لومك الآخرين، نابع من أنانيتك. هناك مجرمون، لكنهم في طبعهم ليسوا مجرمين. هناك لصوص، لكنهم بطبعهم ليسوا لصوصاً. إدعاؤك أنك الأفضل، قد يشكل حاجزاً بينك وبين الناس.

كن متسامحاً، كن متقد الذهن، كن محباً ولا تجعل من نفسك قاضياً يدين ويبرىء. لا تشعر بأن القداسة حلت عليك وفيك.

كن إنساناً عادياً. لا تكن أحداً، هكذا تصبح المضيف.

القلوب والعقول، إجابات على تساؤلات

ماذا تعني محاولتك مساعدة الآخرين؟ غالباً، تبدو و كأنك تحاول تغييرهم. أكثر من إظهار الاحترام والحب غير المشروط. فهل تحدثنا عن هذا؟

هناك فرق كبير بين محاولاتك لتغيير الآخرين ومحاولاتك لمساعدتهم. حين تمد يد العون لأحد، فأنت تفعل هذا ليبقى هو هو، أما حين تحاول تغيير شخص ما، فإنما تفعل ذلك لتجعله على صورة أنت تريدها، أو لتجعله صورة طبق الأصل عن إنسان ما. في هذه الحال، لا تكن مهتماً بالشخص ذاته، إنما لديك فكرة معينة، لديك مثال، وأنت تحاول تغييره ليكون وفقاً لما ترى أنت، ما يعني أن المثال أكثر أهمية من الكائن البشري.

في الواقع، مثل هذه المحاولات، تحتوي نوعاً من العدائية والتعنيف، إنها جهد يبذل لتدمير الإنسان الآخر. إنها ليست حباً، ولا عطاء. العطاء يسمح للآخر أن يكون هو نفسه، العطاء، ليس أفكاراً مسبقة، العطاء لا يحدد لك مسار حياتك، بل يعطيك الطاقة، ومن ثم تتصرف أنت وفقاً لإرادتك. ومن ثم تتبرعم بذورك بناء لطبيعتها.

إنس الإنسانية، وفكر بالكائن البشري، الحقيقة، المحسوس الملموس، الذي له قلب ينبض بالحياة. إننا نستسهل التضحية بالكائن البشري، من أجل الإنسانية.

حين أقول «إذهب وساعد الآخرين». أكون أعني، ساعدهم ليكونوا هم هم. حين أقول، إن العالم

كافر أقول ذلك بسبب كثرة الواعظين الذين يسعون جاهدين، لتغيير الآخرين، بناء لأفكار مسبقة. الفكرة المسبقة ليست هي الأهم بل الإنسان بحد ذاته. حتى الإنسانية جمعاء، ليست أهم من الكائن البشري المفرد. الإنسانية مفهوم، بينما الكائن البشري هو الحقيقة.

إنس الإنسانية، وفكر بالكائن البشري، الحقيقة، المحسوس الملموس، الذي له قلب ينبض بالحياة. إننا نستسهل التضحية بالكائن البشري، من أجل الإنسانية، من أجل عقيدة ما، سياسية كانت أم دينية، نستسهل التضحية بهذا الكائن من أجل المسيحية، الإسلام، أو الهندوسية. أنت هنا لتساعده، لا لتضحي به. ومن أنت لتقدم أحداً تضحية. إياك أن تجعله وسيلة لتحقيق غاياتك.

هذا ما قصده المسيح بقوله: «وجد السبت من أجل الإنسان، وليس الإنسان من أجل السبت». كل شيء وجد من أجل الإنسان، هذا المخلوق الذي هو قيمة الوجود، حتى وجود الله هو من أجل الإنسان، أما الإنسان فلم يوجد من أجل الله. ضحِ بكل شيء من أجل الإنسان، ولا تضحِ به من أجل شيء. هكذا تكون تمد له يد العون.

إذا ضحيت بالكائن البشري، فهذا لا يعني أنك تقدم العون، بل أنك تدمر الآخرين وتعيق سيرهم، يعني أنك مجرم سفاح. إذاً كل أولئك، الذين تسميهم رجال دين يحاولون تغيير الآخرين، هم مجرمون. الإنسان هو الذي يحب، هو الذي يعطي. فكن مستعداً للعطاء بدون شروط.

أعطِ من ذاتك. دع الآخرين يتجهون نحو مصيرهم، نحو ذاك المصير المجهول. ما من أحد يعرف متى يزهر أو كيف. لا تحدد نموذجاً، وإلا، فالزهرة لن تكون هي ذاتها. تذكر دائماً، أنه ليس

لأي كائنٍ فرد نظير، لا في الماضي، ولا في المستقبل. الوجود لا يتكرر أبداً، إنه إبداع.

إن أردت جعل إنسان مثل المسيح، فأنت تدمره، فالمسيح لن يتكرر، جاء مرة واحدة، ولن يأتي ثانية. وجود إنسان وسيم شيء رائع، أما إذا كان الكل مثله، فهذا يفقده روعته. لا تحاول أن تجعل أحداً بوذا، دعه يكون هو نفسه. هذه هي البوذية، لا تحاول فعل ذلك. بغض النظر إن كنت تعرف ما في داخله أو لا، لأنه متى عرفت ما في داخله لست وحدك من سيتفاجأ، بل هو أيضاً. كل إنسان يحمل في داخله زهرة لاحتمالية القوة المطلقة، أو لإمكانية الخلود.

ساعد، أعط الطاقة والحب، تقبل الآخر واعطه ما يفرح به، لا تجعله يعتقد أنه مجرم، ولا تقدم له أفكاراً هو يدينها. كل أولئك الذين يحاولون تغييره، يقدمون له الإحساس بالذنب، وهذا الإحساس هو سجن رهيب.

حين يقول لك أحد: «كن كالمسيح» أو «كن مثل أي إنسان آخر»، فهذا يعني أنه يتنكر لوجودك ويرفضك كما أنت. يعني أنه ليس مرحباً بك وأنك أشبه بالدخيل على حياته. ولن يمنحك الحب إلا إذا كنت على صورة ومثال كائن آخر، أي نوع هذا من الحب الذي يدمر ذاتك ويجعلك كائناً مزيفاً غير موثوق فيك؟

بكل ثقة أقول لك، بمقدورك أن تكون أنت أنت. وكل ما عدا ذلك فهو زيف. كل ما عدا ذلك مجرد أقنعة. كل ما عدا ذلك هو شخصية، إنما ليس جوهر وجودك. يمكن تجميل نفسك لتكون مثل بوذا، لكن هذا التجميل، هو خارجي لا يلامس القلب، ولا يمت إليك بصلة. إنه خارجي، إنه وجه، إنما ليس وجهك الطبيعي.

إذاً، كل من يقول لك: «سأحبك إن كنت مثل بوذا أو مثل

المسيح» هو كاذب لأنه يحب بوذا والمسيح ويكرهك أنت، حتى حبه للمسيح ليس حباً بعمق وصدق، لأنه لو كان يحب المسيح فعلاً، لأدرك أن للمسيح خصوصيته المطلقة التي تميزه عن جميع خلق الله.

الحب، إحساس داخلي، الحب فهم الأعماق. لذا فإن أحببت إنساناً، فأنت تفعل ذلك، تاركاً له أو لها حرية اختيار كيف هو يريد أن يكون، دون أن تتوقع شيئاً آخر. فالتوقعات إدانة وتنكر له كما هو. بمقدورك فقط، منحه الحب، ليس من أجله، ودون التفكير بالنتائج. بكل بساطة ستساعده دون التفكير بالمستقبل.

حين ينبض هكذا حب، تتولد طاقة رائعة. حين يفيض الحب دون دوافع، نتمكن من المساعدة، المساعدة التي لا مثيل لها. ومتى تشعر أن هناك من يتقبلك كما أنت، تحس أن لك أهمية، وأنه مرحب بك في هذا الوجود. حتى لو تقبلك شخص واحد ـ على الأقل ـ كما أنت، فهذا يشعرك أنك في أمان، أنك في منزلك. حين تكون بعيداً عن نفسك، تكون بعيداً عن الوجود، عن منزلك أو مأواك. المسافة بينك وبين نفسك، هي ذاتها المسافة بينك وبين منزلك. إذاً، كل من يقول لك: «كن إنساناً آخر»، فهو يطردك من بيتك، لتصبح إنساناً مزيفاً يضع قناعاً على وجهه، ليكون لك خصائص جديدة وشخصية جديدة، وفي الواقع، كل هذه، لن تمنحك روحاً جديدة، ولن تغير في جوهرك، ستصبح أنت ليس أنت.

إذاً حين أقول ساعد، فأكون أطالب بخلق مناخ مريح يحيط بالبشر، وأكون أدعوك، أينما كنت، وأينما حللت، أن تكون معطاء ومحباً وأن تساعد الآخر ليكون هو ذاته أو ذاتها.

أن تساعد الآخر ليكون هو ذاته، أمر صعب جداً، لأنه يتنافى مع

بمقدورك أن تكون أنت أنت. وكل ما عدا ذلك فهو زيف. كل ما عدا ذلك مجرد أقنعة. كل ما عدا ذلك هو شخصية، إنما ليس جوهر وجودك.

أنانيتك التي تريد الآخرين مقلدين لك، تريد الكل تابعين لك، إرضاء لأنانيتك التي تفرض الاعتقاد بأنك المحور والآخرون يدورون في فلكك.

الأنا ترفض المثال، لأن المثال ليس أنت، ولأنها تطلب منك تغيير الآخرين ليصبحوا كما تريد. ولكن، عد إلى كتب التاريخ، هذا هو أدولف هتلر وهذا المهاتما غاندي. لا أحد ينكر أنه في الظاهر هناك فرقاً كبيراً بين الإثنين، أما الحقيقة فلا فرق بينهما، كلاهما يريد تغيير العالم وفقاً لمفهومه، وكما هو يريد العالم أن يكون. هتلر اتبع طريق الحرب والعنف، والثاني نادى باللاعنف. إنما كلاهما يقول: «الويل لك إن لم تتبعني». الأول يهدد بقتلك إن لم تتبعه، أما الثاني فيهدد بقتل نفسه إن لم يتبعه أحد.

كلاهما إذاً يضعانك في الموقف الحرج، وهكذا يتبين، أن لا هتلر يعمل لأجلك ولا المهاتما غاندي الذي يتحدث عن الحب، فيما لم يمنح حبه لأحد، لأنه ليس قادراً على ذلك... إنه يريدك أن تكون وقبل كل شيء كما يريدك هو.

هذا ليس حباً، الحب الحقيقي هو أن تحب الآخرين كما هم. هذا هو المطلوب، أن تحبهم كما هم، وإن تغيروا، فإنما يفعلون، وفقاً لما هم يريدون، وليس وفقاً لما تريد أنت.

ساعد الآخرين ليكونوا على طبيعتهم، ليكونوا أحراراً، ساعدهم ليكونوا هم أنفسهم، وإياك أن تضغط على أحد.

متى يتحول اهتمامك بشخص آخر إلى تدخل في حياته؟

حين تتدخل الشخصانية، يتحول الاهتمام إلى تدخل في الأمور

الشخصية، والحب إلى مرارة، والحماية إلى سجن.

من أنت لتمتلك حق تغيير أي إنسان آخر؟ إنها مسؤولية خطيرة. هذا ما أراده أدولف هتلر، لقد أراد أن يتحمل مسؤولية تغيير العالم كله ليصبح كما يريد. فماذا كانت النتيجة؟

إذا كنت أماً، اهتمي بطفلك، فهو بحاجة إليك ولا يقدر على الاستمرار في الحياة بدونك. إنه بحاجة للطعام وللحب وللعناية، لكنه ليس بحاجة لمعتقداتك ولا لأفكارك. لا فرق عنده إن كنتِ مسيحية أو مسلمة أو ملحدة. إنه ليس بحاجة لكتبك المقدسة، ولا يهتم بما تفكرين. اهتمي به، لأنه طفلك، هذا هو الاهتمام، وإلا تحول إلى تسلط.

حين لا تتداخل العقائد والمعتقدات مع الاهتمام، تكونين تمنحين طفلك حبك النقي، الخالص النقاء. لا تهتمي بما سيكون، مسيحياً أو مسلماً، طبيباً أو مهندساً، شيوعياً أو فاشيستياً، بل قولي له «سأحبك، ولك الحق، بعد أن تكبر، أن تختار كيف ستكون، سأحبك كيفما ستكون، بالنهاية أنت ابني. لن أحبك فقط حين تصبح رئيساً للجمهورية أو رئيساً للوزراء، بل سأحبك حتى لو أصبحت نجاراً أو عامل تنظيفات ولن أخجل بك.

لن أحبك فقط وأنت تقف أمامي على خشبة مسرح الجامعة لتتسلم شهادتك التي نلتها بدرجة امتياز. لن أحبك فقط حين تصبح رجل أعمال ناجح. سأحبك كيفما كنت، وإلا لن أكون أماً لك».

المشكلة هي أن الكل يهتم بالكل، الأم، الأب، الزوج، الزوجة، الأخ، الأخت، الصديق الكل يبدي اهتماماً بإنسان آخر وبالرغم من هذا، فالعالم ما يزال يعيش في التعاسة... لماذا؟ لأن هناك شيئاً لا يجري كما يرام، هناك شيء خطأ.

ولكن أين يكمن هذا الخطأ، ما الذي تفعله وهو خطأ؟

هل سبق لك وأحببت آخر لمجرد أنك أحببته؟ هل سبق لك وأحببت إنساناً كما هو، أو كما يقال بالرغم من علله؟ إن كان جوابك، نعم، فهذا هو الاهتمام الحق.

للاهتمام شروطه «إفعل هذا، تجلب ذاك». هل سبق لك وأحببت آخر لمجرد أنك أحببته؟ هل سبق لك وأحببت إنساناً كما هو، أو كما يقال بالرغم من علله؟ إن كان جوابك، نعم، فهذا هو الاهتمام الحق، الاهتمام الذي يغنيك روحياً ويريحك نفسياً ويجعل الآخرين يشعرون بأنهم بشر أحرار.

تذكر، أنك إذا اعتنيت بإنسان لمجرد الاعتناء ولأنه بحاجة للرعاية والاهتمام، تذكر أن هذا الإنسان سيحبك إلى الأبد. أما إذا فعلت ذلك لأهداف أخرى فلن تكون ردة الفعل سوى خيبة الأمل التي تتحول إلى حقد عليك. لهذا نرى أولاداً يرفضون مسامحة أهلهم، وإن سألت عالم النفس عن السبب لأجابك، لأنهم ما أحسوا يوماً أن اهتمام والديهم بهم، كان لأنه يجب أن يكون، بل كان الأهل يفعلون ذلك، على أنه نوع من وظيفة الأم أو الأب، كان اهتماماً بارداً، لم يلامس قلوب الأولاد. كان الأهل يفعلون ذلك إرضاء لأنفسهم فقط لا غير.

الحب هو هدية مجانية، وساعة يصبح هدية مدفوعة الثمن لا يعود حباً... لعنة الله على هكذا حب.

العطاء في الممارسة

ما من أحد بمقدوره إلا يكون أنانياً، باستثناء أولئك الغافلين عن الحياة.

الأنانية أو أتباع الأهواء الشخصية، كلمة مدانة من الجميع لأن الجميع لا يريدك أن تكون أنانياً، ولكن لماذا؟ لتساعد الآخرين.

ما زلت أذكر قصة قرأتها في طفولتي، كان طفل يتسامر مع والدته فطلبت منه مساعدة الآخرين. فسألها الطفل: «وما الذي سيفعله الآخرون إذاً؟» وبعفوية أجابت الوالدة «سيساعدون الآخرين». تعجب الطفل وقال: «ولماذا كل هذا التعقيد، فليساعد كل نفسه، أوليس هكذا أفضل؟».

الأنانية أمر طبيعي في حياة الإنسان، مما يحول دون منح الآخرين ما عندك. إنما يحدث أن تصل إلى حالة الامتلاء بالفرح وهكذا واجب عليك أن تشرك الآخرين في فرحك. الحقيقة أن التعساء يساعدون التعساء، والعميان يقودون الآخرين الذين هم أيضاً لا يبصرون، أي مساعدة هي هذه؟ إنه لأمر في غاية الخطورة نقوم به منذ قرون وقرون.

في إحدى مدارس الصغار، طلبت المعلمة من تلاميذها «عليكم أن تفعلوا خيراً ولو لمرة واحدة في الأسبوع». فتساءل أحدهم: «وهل يمكنك إعطاءنا مثلاً عما علينا فعله؟» «نعم لِمَ لا؟»، قالت المعلمة وتابعت: «مساعدة امرأة ضريرة لتعبر الشارع من رصيف إلى آخر. إنه لعمل خير حقيقي».

وفي الأسبوع التالي سألت المعلمة: «من منكم نفذ ما طلبت منكم؟» ثلاثة فقط رفعوا أياديهم. تجهم وجه المعلمة وهي تخاطب نفسها «أيعقل أن ثلاثة فقط فعلوا خيراً؟ مهما يكن فهو أفضل من لا شيء».

سألت التلميذ الأول عما فعل، فأجاب: «ساعدت امرأة عجوزاً وضريرة على عبور الطريق».

سألت الثاني، فأجاب أنه فعل كما فعل زميله.

سألت الثالث فأجاب هو أيضاً، أنه فعل كما فعل زميلاه.

تعجبت المعلمة: «وكيف وجدتم ثلاث عجائز ضريرات؟».

فأجابها الطلاب الثلاثة: «الحقيقة، لم يكن هناك إلا امرأة واحدة، حاولنا ثلاثتنا مساعدتها على عبور الطريق، لكنها رفضت فراحت تزعق، وترفع صوتها. عبثاً حاولنا إقناعها لتعبر الطريق لكنها رفضت واستمرت في الزعيق والصراخ، لكننا أصرينا عليها لأننا نريد أن نفعل خيراً. فتجمع الناس حولنا، وكادوا أن يشبعوننا ضرباً».

قالت المعلمة: «ساعدوا الآخرين، إفعلوا خيراً». لكنها لم تقل لهم كيف ومتى ولماذا. يقال أحبوا الآخرين، أحبوا أعداءكم، لكن أحداً لم يقل لنا «أحبوا أنفسكم...» كل رجال الدين يطلبون منا أن نحب الآخرين وأن نكره أنفسنا. فبالله كيف لإنسان يكره نفسه،

أن يمنح الحب للآخرين؟ قد يدعي أنه يفعل ذلك... يدعي لا غير.

في البدء، وفي الأساس، لا بد من أن تحب نفسك إلى أبعد الحدود، حتى تعطي الآخرين ما يفيض عنك من حب. أنا لست ضد المشاركة، غير أني أعارض بشدة مبدأ الغيرية. حب الغير أكثر من حب النفس. إن أردت مشاركة الآخرين بشيء، فيجب أن يكون لديك من هذا الشيء ما يكفي لك وللآخرين. ومن ثم عليك إدراك أنه لا يحق لك إجبار أحد على أخذ ما تريد أن تعطيه، وفي المقابل، عليك شكر الإنسان الذي لم يرفض مساعدتك، لأنه بقدر ما أنت كريم النفس، هو كذلك.

إني من القائلين بضرورة أن يكون الفرد سعيداً، يعيش برغد العيش، حياته غبطة وابتسام، وبعد أن يكتفي ذاتياً، يبدأ مشاركة الآخرين فرحه وغبطته وسعادته، ولَم لا، طالما لديه الكثير منها. إنه كالغيمة المشبعة ببخار الماء، الغيمة الماطرة.

أن يروي إنسان عطشه، أمر ثانوي، الأمر الأساسي هو أن يكون كل واحد ممتلئاً بالغبطة، بالنور وبالفرح، حتى يشارك الآخرين بما عنده، دون أن يسأله أحد. المشاركة هي فرح، أما العطاء، فهو أكثر فرحاً.

وبالرغم من هذا، من غير الجائز الطلب من الناس أن تحب الغير أكثر مما تحب أنفسها، إذا كانوا تعساء، فماذا بمقدورهم أن يفعلوا؟ لو كانوا عاجزين عن المشي، فماذا بمقدورهم أن يفعلوا؟ لك ما بإمكانهم إعطاؤه، هو مما عندهم، أي التعاسة والعذاب، القلق والحيرة. أهكذا نعبر عن حبنا للغير؟ لا... من الأفضل، في هذه الحال، أن نكون أنانيين، جد أنانيين.

كل شجرة هي أنانية، تمتص الماء من الأرض وتوزعه على أغصانها وأوراقها، على أزهارها وثمرها. لكنها حين تزهر، تبعث

العطر الذي تحمله الريح في كل الاتجاهات، وحين تثمر تشارك الآخرين في ثمرها، إنها غير قادرة على بعث الثمر طالما أزهارها لم تتفتح، وغير قادرة على أن تكون مثمرة طالما أغصانها لم تتبرعم بعد. ولو أردنا تعليم هذه الشجرة أن تكون غيرية، لكنا نعلمها كيف تيبس وتجف، كيف تموت كما الإنسانية التي هي أشبه بهياكل عظمية تسير... ولكن إلى أين تسير؟ إلى قبورها... إلى مثواها الأخير.

يجب أن تكون حياة كل واحد، نغمة موسيقية ورقصة فرح... إنه قانون الوجود الذي لا يفرض عليك إعطاء ما أنت لا تملكه أو حتى لا تملك الكثير منه، نعم أنا أدعو إلى الأنانية.

لا تكن قانونياً... بل محباً

جاء في إنجيل متى - الإصحاح الثاني والعشرين:

وسأله واحد منهم وهو ناموسي ليجربه قائلاً: «يا معلم أية وصية هي العظمى في الناموس؟».

فقال له يسوع: «تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى».

والثانية مثلها: تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء.

كلمتان - القانون والحب - جد مميزتان، تعبران عن نوعين من الفعل البشري، نوعين جد متناقضين؛ العقل القانوني، هو عقل بعيد عن الحب، كل البعد. والعقل المحب الذي هو أبعد ما يكون عن القانون... التوجه القانوني هو توجه غير سماوي، غير ديني، بل هو توجه محض سياسي، على عكس التوجه نحو الحب الذي هو توجه سماوي، غير سياسي.

في البدء، وفي الأساس، لا بد من أن تحب نفسك إلى أبعد الحدود، حتى تعطي الآخرين ما يفيض عنك من حب. أنا لست ضد المشاركة، غير أني أعارض بشدة مبدأ الغيرية.

موسى، ماركس، ماو، ثلاثة وضعوا تشريعات قانونية وقالوا للبشر، سيروا، تصرفوا بموجب هذه القوانين. المسيح، بوذا، لم يطلبا من البشر التقيد بأحكام معينة، لم يحاولا إدانة أحد بل نادا بالتسامح، بالتعاطف وبالعطاء.

قرأت أن امرأة جاءت لفريدريك الأكبر، ملك النمسا، تشتكي من سوء معاملة زوجها لها، فأجابها، هذا ليس من شأني أن أهتم به. لكن المرأة، قالت: «ليس هذا وحسب بل إنه يهزأ منك وينعتك بأوصاف تسيء إلى سمعتك يا صاحب الجلالة».

فأجابها فريدريك: هذا ليس من شأنك سيدتي.

هذه هي عقلية رجل القانون، لا يهتم إلا بالقانون ينسى أن هناك حباً. رجل القانون يفكر بالعدالة وليس بالتسامح. والعدالة بلا تسامح، يستحيل عليها أن تكون عدالة وكذلك التسامح في غير موقعه. أهم مميزات التسامح هي الحق والعدل، والعدالة تتبع التسامح كظله، بينما التسامح لا يتبع العدالة كظلها، لأنه هو الأساس، وكذلك الحب. ظلك يتبعك ولست أنت من يتبع ظله. وهذا ما أوجد أهم إشكالية لبني البشر أجمعين، هل الله هو محبة أم قوانين وتشريعات؟ هل الله عدل أم تسامح وعطاء؟

القانونيون يقولون «الله عدل» لكنهم لا يعرفون من يكون الله، لأن الله، هو الإسم الآخر للحب. وهذا هو البعد الذي لم يتمكن القانونيون من التعرف إليه، إنهم دائماً يلقون المسؤولية على إنسان ما، على المجتمع، على الاقتصاد، لأنه برأيهم، الآخر هو الذي يتحمل المسؤولية دائماً، بينما المحب يلقي المسؤولية على عاتقه «أنا

هو المسؤول، وليس أنت».

حين تعي أنك المسؤول، تبدأ بالتزهر والتفتح. القانون يحث على تقديم الأعذار، يحث على اتهام الآخر لحماية نفسك وللدفاع عنها. الحب هو غير ذلك. الحب إحساس، تسامح وعطاء، لذا حين تحب أحداً، لا تحدثه عن القانون، ولا عن العادات والتقاليد، لأن الحب هو أسمى القوانين، الحب يقدم لك الحماية، حتى لا تصبح بحاجة للحماية من أحد. لا تكن قانونياً، حتى لا تخسر جمالية الحياة، لا تكن محامياً بل محباً. وإلا ستمضي حياتك مرافعات ومرافعات حتى لا يعود هناك شيء لتدافع عنه، هكذا تصبح مدافعاً عن الأنا الفارغة، وليس عن أي شيء آخر، ولا شك ستجد مبررات كثيرة لدفاعك عن أناك هذه.

قرأت أن مسرحية أوسكار وايلد الأولى، منيت بفشل ذريع، فسأله أحد أصدقائه «ما الذي جرى؟» وجاء جواب أوسكار وايلد: «المسرحية كانت رائعة، لكن المشاهدين، كانوا جد فاشلين».

هذه هي العقلية القانونية، تحاول الدفاع عن الأنا الفارغة وإلقاء المسؤولية على الغير.

إنتبه، ساعة تبدأ بالاهتمام بالقانون. لا هم إن كان قانوناً حكومياً، أو كنسياً، وساعة تبدأ النظر إلى الحياة، انطلاقاً من هذه الزاوية أو زاوية المبادئ الأخلاقية والكتب المقدسة، تكون قد بدأت تفتقر إلى الحياة.

يجب على المرء أن يكون راغباً في معرفة ما هي الحياة، أن يكون مستعداً لفعل كل شيء من أجل التعرف على الحياة، أن يتقبل الموت من أجل الحياة. إن كان يخاف الموت، فلن يعرف ماهية الحياة وقيمتها. إن لم تكن تخشى وإن كنت مستعداً له، فستعرف معنى الحياة الخالدة، الحياة التي لا تنتهي أبداً، الحياة التي لا موت فيها.

القانون يخفي الخوف والحب تعبير صارخ عن عدم الخوف.

حين تحب يتبدد الخوف... ألاحظت هذا؟ وكلما أحببت أكثر، كلما ازداد تبدد الخوف. وهكذا ستصل إلى مرحلة لا خوف فيها على الإطلاق. الخوف يكون حيث لا يكون الحب، إنه كالقانون الذي لا مهمة له، سوى الدفاع عن ذاتك الصدئة، عن القليل المرتعش فيك... أنت خائف، إذاً أنت بحاجة لحماية نفسك.

إذا كان القانون سيد المجتمع، فهذا يعني أن أعضاء هذا المجتمع لا يعرفون إلا الخوف، أما إذا كان الحب هو سيده، فهذا يعني أن أعضاءه يعيشون مرتاحي البال، ولا ضرورة لقانون ينظم شؤونهم اليومية ولا علاقتهم ببعضهم البعض، ولن تكون هناك حاجة لمحاكم وقضاة، لا للخوف من جهنم، ولا للرغبة بدخول الجنة. القانون أوجد جهنماً، ليرمي بها المدانين والمعاقبين، لأن القانون يقول: من يرتكب خطأ، يعاقب. هكذا هم رجال الدين، الذين يقولون من ارتكب إثماً، فجهنم مصيره. جهنم حيث النار وصرير الأسنان... لا شك أن جهنماً هذه، هي من اختراع بشر ساديين، ولماذا؟ لإبقائك خائفاً من ارتكاب إثم قد لا يكون إثماً، لكنهم يعتبرونه كذلك، فتمضي حياتك خائفاً معذباً. وفي الوقت ذاته، اخترعوا الجنة، واستفاضوا في الحديث عنها وجعلوها مقراً للذين عملوا بنصائحهم وإرشاداتهم وتعاليمهم، أي الذين يتبعونهم كظلهم. أما جهنم فهي مقر أولئك الذين رفضوا الانصياع لمشيئتهم، ورفضوا أن يكونوا تابعين لهم... إنه مبدأ الجريمة والعقاب. المجرم يجب أن يعاقب.

لكن العقاب لم يوقف الجريمة، بل هي في ازدياد، لأنه، في الواقع، أن كلاً من المحامي رجل القانون والمجرم هما وجهان لعملة واحدة، لا فرق بينهما أبداً، ولا يشكل كل منهما عالماً خاصاً به، إنهما

ينتميان لعالم واحد. الجريمة في ازدياد ورجال القانون ماضون في سن القوانين ووضع التشريعات.

العقاب لا يغير بالفرد، بل يفسده، كذلك المحاكم، خاصة بغياب أي مفهوم واضح للثواب والمكافأة؛ الجنة، الاحترام، فإن كانت جهنم مصدر الخوف، فالجنة مصدر الجشع. الخوف والجشع، هذه المشكلة، فكيف بمقدورك أن تحدث تغييراً من خلالهما. إنهما العلة التي لا دواء لها، والقانونيون يصرون على أنهما الدواء.

نحن بحاجة لتوجه جديد كلياً... التوجه نحو الحب. المسيح منح الالم الحب، قضى على القوانين وكل ما يمت بها بصلة، ولهذا اعتبر مجرماً، وحوكم... لقد أراد تقويض كل مبادئ مجتمعهم الإجرامي. لقد أراد تدمير الحجر الأساس لمؤسسة العالم المجرم، عالم الحروب، والعنف. لقد أراد بناء مؤسسات جديدة، مؤسسات ترتكز على الحب، هذا ما يجب فهمه واستيعابه بعمق بقدر الإمكان.

وسأله واحد منهم وهو ناموسي ليجربه قائلاً:

«يخضعه للتجربة»... لقد أراد استدراج المسيح إلى نقاش قانوني. وكثيراً ما أراد استدراج المسيح إلى نقاش ينزله عن قمة الحب، إلى وديان الظلمة، واتبع أصحاب هذه المحاولات أساليب الخداع والاحتيال. حاولوا من خلال أسئلتهم أن يتبينوا، ما إذا كان هو المسيح حقيقة أم لا، حاولوا وضعه في مآزق يصعب الخروج منها: حاولوا إجباره على اختيار جواب من جوابين، وكلاهما ليس لمصلحته.

لا بد أن سمعت عن هذه القصة المشهورة التي حدثت له. كان المسيح جالساً عند ضفة النهر وجاءه جمع ومنهم امرأة. قالوا: إنها امرأة زانية «فماذا تقول؟» إنهم يخضعونه للتجربة، فبموجب العهد

القديم يجب رجمها بالحجارة حتى الموت. والآن في فعلتهم هذه يضعونه أمام خيارين لا ثالث لهما. إن قال إفعلوا ما تنص عليه الكتب، سيسألونه «إذاً أين هي دعوتك للحب والتسامح؟ أما يجدر بك مسامحتها؟ إذاً كل قولك عن المحبة هو مجرد كلام.» وهكذا يكون قد وقع في الشرك الذي نصبوه له. وإن قال: «اغفروا لها»، فسيقولون له: «أما قلت أمام الجموع إنك ما جئت لتنقض بل لتكمل؟» وهكذا أيضاً، يكون قد وقع في الشرك الذي نصبوه له. اعتقدوا أن ليس هناك سوى هذين الجوابين، إما رجمها حتى الموت، أو غفران خطاياها.

غير أنهم لم يدركوا أنه لدى إنسان كالمسيح، جواب ثالث، لا ـ ولن ـ يخطر على بالهم، ففي لغتهم جوابان، نعم ولا... الشيء ونقيضه فقط لا غير. لكن المسيح نظر إليهم وقال: «من منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر»فاحتار الجمع مما سمع. «من منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر.» ومن، من البشر، لم يرتكب إثماً، إن بالفعل أو بالتفكير؟ ولا فرق بين الإثنين.

واحداً بعد الآخر، أخذ الناس ينصرفون. لقد اختار هذا الرجل الواقف أمامهم الخيار الثالث، الخيار الذي لم يخطر على بالهم، ولم يتوقعوه. لم يقل، اتبعوا الناموس، ولم يعطها المغفرة بل توجه إلى الجمع قائلاً: «من منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر» وما كان من المرأة إلا أن ركعت عند قدميه «نعم أنا امرأة زانية فبمقدورك معاقبتي».

أجابها المسيح: «ومن أكون أنا لأدينك؟ وحده الله يدينك... هذا أمر بينك وبين الوجود، فمن أنا لأتدخل؟ إن كنت مقتنعة أنك ارتكبت إثماً، فلا تفعلي ذلك مجدداً».

أرادوا استدراجه للنقاش، لكنهم فشلوا. إنها دلالة واحدة،

لكنها مهمة، على أنه اتخذ الحب، وهكذا بقي واقفاً على القمة، ولم ينجحوا بإنزاله عنها.

وسأله واحد منهم وهو ناموسي ليجربه قائلاً: «يا معلم أية وصية هي العظمى في الناموس؟».

إنه لسؤال مميز... أية وصية هي العظمى؟... إنها مؤسسة الناموس ـ القانون، وكل قانون مرتبط بالآخر، ويرتكز إلى آخر.

في الهند يتساءلون: أي هي القاعدة، اللاعنف أو الحقيقة؟ وهكذا إن اخترت الحقيقة، فسيكون العنف بالمقابل، إما إذا لم تقل الحقيقة، فتكون تتجنب العنف، ولكنك رفضت الحقيقة فماذا بإمكانك أن تقول؟

لو كنت واقفاً عند مفترق طرق، وجاءك مجموعة من رجال الشرطة، يسألونك إن كنت رأيت رجلاً مر من أمامك، وأوضحوا أنه مجرم هارب من العدالة ومحكوم بالإعدام، والمشكلة أنك رأيته فعلاً، فماذا تفعل؟ إن قلت الحقيقة، تكون مساهماً في تسليم هذا الرجل إلى حبل المشنقة، وإن قلت لا، تكون أنكرت الحقيقة... إنك في الوضع الصعب.

فقال له يسوع: أن تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك.

إنه ليس جواباً على السؤال الذي وجه إليه، إنه جواب عن سؤال آخر، لم يتمكن السائل من استدراجه إلى النقاش في الناموس. السؤال كان عن الناموس، وجاء الجواب عن الحب. في الواقع، لم يجب المسيح عن السؤال، أو لربما هناك من يقول إنه قد أجاب. وهذا هو الجواب الأوحد رداً على السؤال.

هكذا هو عالمنا اليوم، مجنون يساعد مجنوناً، وأعمى يقود أعمى،

وإنسان مضطرب نفسياً يحاول أن يريح نفوس الآخرين، فماذا ستكون النتيجة، فوضى... فوضى. الكل ينصح الكل، حتى أصبحت النصيحة أرخص سلعة في هذا الكون، والكثيرون يقدمونها بالمجان. منها ما يصلح العمل بها، لكن الأغلب الأعم هي مجرد كلام، يقال عنه نصيحة، ولكن من يحق له النصح؟ وحدهم العالمون بالأمور يحق لهم، وحدهم بمقدورهم الإجابة على تساؤلاتك.

هناك ثلاث احتمالات لأي حوار. الاحتمال الأول، شخصان جاهلان يتحدثان، عن لا شيء، وبلا أي هدف، فقط هما يتكلمان، بالتفاهات يتفوهان، غير مكترثين بشيء. إنهما يتحادثان. إنهما يقومان بعمل... يتحدثان.

الاحتمال الثاني، متنوران يتحدثان بصمت، ما من واحد منهما ينطق بكلمة، لكن كلاً منهما يفهم على الآخر. لا ضرورة للكلام فهما متفاهمان. هذا هو التنور، اجتمع جاهلان، فكرت سبحة الكلام، دون أن يتمكنا من التفاهم، إنه النموذج الذي يحدث مليون مرة يومياً، أما النموذج الثاني فنادراً ما يحدث.

أما الاحتمالية الثالثة، فهي احتمالية لقاء رجل متنور بآخر جاهل، إذاً هناك طائرتان، إحداها رابضة على مدرج المطار والثانية تحلق في السماء. الرجل على الأرض يسأل سؤالاً محدداً. أما الثاني الذي في السماء فيجيب على سؤال آخر. إنها الطريقة الوحيدة لمساعدة الرجل على الأرض. لقد تساءل معلم، أية وصية هي العظمى في الناموس؟

لم يسأل عن الحب، لكن المسيح غيّر مجرى الحديث، أعطى السؤال بعداً جديداً لم يكن السائل يتوقع أن يطلب منه التعرف إليه.

فقال له المسيح: تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك ومن كل فكرك.

«من كل قلبك» تعني أن تحب الرب إلهك بكل أحاسيسك، وهكذا تكون الصلاة. حين تكون كل أحاسيسك ومشاعرك مجتمعة لتؤلف وحدة لا تنفصل، تكون الصلاة، الصلاة من صميم القلب.

«من كل فكرك» هذا هو معنى التأمل. حين تصبح كل أفكارك واحدة، حين تصبح كذلك، لن تعود بحاجة للتفكير، وحتى أنك لن تعود بحاجة للأحاسيس. حين تكون مشاعر متعددة، فهذا يعني أنك عاطفي، التضرع ليس عاطفة، إنما هو تناغم الأحاسيس، إنما هو وحدة الأحاسيس التي بسبب نوعيتها قد تتغير، تماماً كما تضع الماء على النار، تبدأ ترتفع حرارتها شيئاً فشيئاً، حتى تصل إلى نسبة مئوية وتبقى ماء، أما حين تصل الحرارة إلى مئة ساعتئذ تبدأ عملية التحول، فالماء لم تعد ماء، بل بدأت تتحول إلى بخار. هكذا تغيرت الخصائص أيضاً، من أهم خصائص الماء أنه يتجه إلى الأسفل أما البخار فيتجه إلى الأعلى.

حين تعيش مع أحاسيسك ومشاعرك، مع أحاسيس ومشاعر متعددة، لا شك أنك ستكون مشوش الذهن، غير قادر على التفكير بأمر معين بحد ذاته، إلا إذا توحدت تلك الأحاسيس والمشاعر وأصبحت واحدة، عندئذ تأتي لحظة التحول، وتصل إلى درجة الحرارة مئة، أي إلى درجة التبخر، وهكذا، فجأة تختفي طبيعة المشاعر والأحاسيس... لقد بدأت بالتبخر والصعود نحو السماء. هذا ما يسمونه الصدق، التقي والورع.

كذلك الحال حين تتوحد اهتماماتك، فلن تكون بحاجة للتفكير. أن يكون لديك اهتمام واحد، يعني لست بحاجة للتفكير، لأن الواحد لا يتواجد وحده. الواحد بمقدوره أن يتعايش فقط مع

مجموعة، وما دام لا جمع ولا جموع، إذاً ليس هناك واحد، فرد واحد، وهكذا تأتي لحظة اللا تفكير.

هذا ما فعله المسيح بكلمات قليلة، اختصر جميع الديانات.

تحب الرب إلهك من كل قلبك... هذا هو التقي... من كل فكرك، وهذا هو محور التأمل.

ومن كل نفسك، النفس هي أسمى من التفكير والأحاسيس. النفس هي جوهر التقى وجوهر التأمل. النفس هي طبيعتك. إنها سمو الوعي في ذاتك.

افترض أنك بمثلث. القاعدة هي الأحاسيس والأفكار، غير أن الأحاسيس والأفكار هما الأمران الوحيدان اللذان اختبرتهما حتى الآن، وحتى هذه اللحظة، لم تكتشف الأمر الذي لن تعرفه إلا متى تحولت الأحاسيس إلى التقى والورع وإلا متى تحولت الأفكار إلى تأمل، التقى والتأمل يلتقيان عند نقطة واحدة... إنها النفس. أينما التقى قلبك وعقلك، تكون أنت. إنه لأمر غير مرئي، أبعد من أن يرى، وهذا ما سماه المسيح، النفس.

هذه هي الوصية الأولى والعظمى.

إنه في قوله هذا، يستعمل المسيح لغة القانونيين... بينما في مكان آخر يتلفظ بجمل تعود له فعل هذا لأنه أراد أن يبني جسراً يصل بين اللغتين.

هذه هي الوصية الأولى العظمى: الحب هو الوصية الأولى والعظمى. لكن الحب لا يوصى به، ليس بمقدورك الطلب من أحد أن يحب، وليس بمقدورك مراقبة الحب، إنه أرفع وأسمى من كل هذا. لو أمرت أحداً أن

حين تكون مشاعر متعددة، فهذا يعني أنك عاطفي، التضرع ليس عاطفة، إنما هو تناغم الأحاسيس.

يحب، تكون تتصرف كأنك في الجيش تأمر أحد جنودك: إلى اليسار در... إلى اليمين در... إلى الأمام سر. ولكن إلى أي جهة تريد من الحب أن يتجه... فهو الذي يأخذك إلى حيث يريد.

يمكنك الادعاء أنه بمقدورك فعل ذلك. أن تأمر بالحب، إنه اللعنة الكبرى التي حلت على الجنس البشري. الحب بالإكراه، من الصغر وكل يحاول تعليم الطفل أن يحب، ولكن متى كان الحب مادة تدرس؟ «حب أمك، أباك، إخوتك، أخواتك... هذا أو ذاك» ويحاول الطفل تنفيذ ما يطلب منه. أقول يحاول، لأنه لا يدري أن الحب حالة حلولية، وليست إكراهية.

هكذا تبدأ بالتشوق للحب، بالرغم من أنك تسعى جاهداً للوصول إليه. الكل يبحث عن الحب، يمكنك أن تسميه الله، أو أي شيء آخر، لكنك تبقى في قرارة نفسك تبحث عن الحب، وقد تصبح عاجزاً عن نيله، ليس لأنك لم تحاول، بل لأنك حاولت جاهداً، بل لأنك أجهدت نفسك وأنت.

الحب حدوث، الحب عمل لا إرادي، لا يمكن أن تأمر به، وإن فعلت، فسيكون الحب، منذ البدء، مزيفاً، يسمم حياتك. إياك والقول للطفل ـ لا ترتكب هذا الإثم ـ أن تأمره بالحب «حب أمه» كل ما عليك هو أن تحب الطفل وتترك الحب يحل عليه. لا تقل له «امنحني الحب لأني والدتك». الحب ليس وصية. كل ما عليك أن تحب الطفل هكذا لمجرد الحب، الحب الحقيقي، وستأتي الساعة التي فيها ينتقل الحب إلى الطفل... ويشرع بمحبة الآخرين الذين يختارهم هو، وليس الذين توصيه أن يحبهم.

والثانية: تحب قريبك كنفسك.

الوصية الأولى: تحب الرب إلهك... والله هنا يعني الكل، إنه الكلي الشمولي... إنه الوجود... إذاً ما عليك إلا أن تحب الوجود.

هذه هي الوصية الأولى والأكثر أهمية. والثانية، تحب قريبك كنفسك.

كل ما عليك هو أن تحب الطفل وتترك الحب يحل عليه. لا تقل له «امنحني الحب لأني والدتك». الحب ليس وصية.

لأنه من الصعب جداً أن تجد الله، وكيف لك أن تحبه وأنت لم تعثر عليه بعد... كيف يمكنك أن تحب الله وهو «المجهول». إذاً لا بد من رابط بينه وبين المعلوم، لهذا جاءت الوصية الثانية «تحب قريبك كنفسك».

قرأت قصة وأحببتها... جاء إنسان إلى أحد الحاخامات وقال: «يقال إن لديك عقاقير عجائبية، وإنها جد فعالة. أعطني واحداً يجعلني أخاف الله».

«أنا لا أعرف دواء يجعلك تخاف الله»، قال الحاخام، وتابع «ولكن، إن شئت أعطيك دواء يجعلك تحب الله».

«هذا هو ما أريد»، صاح السائل: «أرجوك أعطني واحداً منه».

إنه حب واحد من أقربائك، قال الحاخام.

إن أردت فعلاً أن تحب الله، فما عليك إلا أن تبدأ بمحبة من هم حولك من بني البشر، فهم الأقرب إليك، وشيئاً فشيئاً تتسع دوائر حبك. الحب كالحجر الذي يرمى في مياه بحيرة ساكنة، فما إن يلامس وجه الماء، حتى يحدث ترقرقات، تأخذ بالاتساع حتى تصل إلى الشاطئ. إنما، في البدء، هناك ملامسة الحجر للمياه. وتبدأ الترقرقات من نقطة الملامسة، لتنتشر إلى ما هو أبعد. هكذا أنت، إبدأ بحب المقربين منك وإليك، وستجد الحب أخذ يتسع وينتشر، بعدها قد تحب، تحب حيواناً، شجرة، صخرة أو أي شيء. ومن ثم يصبح بمقدورك أن تحب الوجود أكثر من ذي قبل.

إذاً، إن منحت حبك لبني البشر، تكون قد خطوت خطوتك

الأولى نحو محبة الله. لكن، ولسوء الحظ، إن الذي يحدث على هذه الأرض هو العكس تماماً. الناس يحبون الله ويفتكون ببني البشر، ربما يفعلون ذلك لأنهم يحبون الله أكثر مما يجب، المسيحي يقتل المسلم، المسلم يقتل المسيحي والهندوسي الذي بدوره يقتل المسلم، ولماذا؟ لأنهم كلهم يحبون الله، وباسم الله يتقاتل بنو البشر، ويقتل الواحد منهم الآخر. لا ريب أنهم يحبون إلهاً مزيفاً، لأنهم لو كانوا يعبدون الرب الحقيقي، ويعرفون حقيقة معنى الألوهة، لكانوا أحبوا بعضهم بعضاً أولاً وقبل كل شيء، ولكانوا أحبوا الحيوانات، الأشجار، الطبيعة وما فيها، وهكذا يصبح الحب جوهر وجودك ككائن. إن لم تتمكن من محبة البشر، لا تنخدع، فما من معبد مستعد لاستقبالك مرحباً، أو ليمد لك يد العون.

قل لا للرب، ما من مشكلة، أما إذا قلت لا لبني البشر، فإنك تقطع كل صلة بهم، ولن يكون بمقدورك الارتقاء إلى السمو والورع. قل لا لجميع مراكز العبادة، للكنيسة للجامع، للمعبد ولكن إياك أن تقول لا للحب، فالحب هو المعبد الحقيقي، هو هيكل الألوهة. وكل ما عداه مجرد أماكن... هناك معبد أساسي واحد... إنه معبد الحب. إذاً لا تقل لا للحب.

الوصية الثانية: تحب قريبك كنفسك، لأنه، وفي الواقع، كل البشرية هي أنت، إنما بوجوه متعددة وبأشكال متنوعة، ليس بمقدورك أن تراها، فجارك هو لا أحد غيرك، إنه كينينك إنما بشكل وهيئة مختلفين.

هناك في العالم أنهر كثيرة تحمل أسماء الألوان، في الصين هناك النهر الأصفر، في مكان من جنوب إفريقيا، هناك النهر الأحمر، وفي الولايات المتحدة هناك النهر الأبيض والنهر الأخضر... النهر بحد ذاته لا لون له. وكل نهر، مهما أسميته، يصل في النهاية إلى

مصيره النهائي، إلى مصبه في المحيط، ولا يعود نهراً بل محيطاً.

الاختلاف بين البشر عن بعضهم، يعود إلى بيئتهم، كذلك الألوان. أما الذات الداخلية، فهي لا لون لها، كلها الشيء نفسه. واعلم، أن ألوان بني البشر هي انعكاس البيئة التي يعيشون فيها على بشرة وجوههم. الإنسان لا لون له. الإنسان ليس جسداً ولا عقلاً ولا قلباً. تفكيرك يختلف عن تفكير الآخرين بسبب التربية التي تربيتها. جسدك يختلف، بسبب البيئة التي تعيش فيها وبسبب عامل الوراثة. فقط لهذه الأسباب، أنت تختلف عن غيرك.

قال المسيح: تحب قريبك كنفسك، بمعنى كما تحب نفسك أحبب قريبك، لكنه نسي أن يقول أمراً جوهرياً ألا وهو «أحبب نفسك» لأنه إن لم تحب نفسك، فليس بمقدورك أن تحب قريبك. هذه هي مشكلة ما يقال إنها المسيحية؛ تعلمك أن تكره نفسك وتطلب منك أن تدينها أيضاً. أحبب نفسك، لأنك الأقرب من السمو والورع فمن نفسك ستخرج أول دوائر ترقرق المياه... إذاً حب الذات هو القاعدة الأساس، لا تصغ إلى أولئك الذين يدعونك للتخلي عن ذاتك والذين يعتبرون أن حبك لنفسك بمثابة خطيئة.

أحبب نفسك، فأنت لست مخطئاً ولا مجرماً. إنما هم زرعوا في رأسك مثل هذه المفاهيم. تقبل نفسك كما هي وامنحها الحب، عندئذ بمقدورك أن تحب قريبك، وإلا يستحيل عليك أن تحب أحداً. إن لم تحب نفسك، فكيف تتمكن من محبة الآخرين؟ أنا أدعوك لحب نفسك. إفعل هذا طالما أنت ـ على الأقل ـ غير قادر على فعل شيء آخر. أحبب نفسك، ومن حبك لنفسك، سترى أن الحب أخذ يفيض، وينتشر ليصل إلى أقربائك.

المعضلة الكبرى، هذه الأيام، هي أنك تكره نفسك، وعليك أن تحب إنساناً آخر، وهذا أمر مستحيل. والآخر عليه، بدوره، أن

تقبل نفسك كما هي وامنحها الحب، عندئذ بمقدورك أن تحب قريبك، وإلا يستحيل عليك أن تحب أحداً.

يكره نفسه ويحب إنساناً آخر... كيف تمنح الحب؟ هذا ما عليك أن تتعلمه من حبك لنفسك.

إذا سألت فرويد وكل علماء النفس سيقولون لك، إن الطفل يبدأ بحب ذاته، لذا فهو يستفق ليلاً من تلقاء ذاته. الطفل يبدأ بحب ذاته، ومن ثم يحب أبناء جنسه. فالفتيان يلعبون مع الفتيان، والبنات مع البنات، ولا يحب أي منهم الاختلاط مع الجنس الآخر، ومن ثم يبدأ حب الجنس الآخر، الصبية يرغبون بالاختلاط مع الفتيات. والفتيات يرغبن بلقاء الصبية والوقوع في حبهم، إذاً ما يصح على الجنس، يصح على الحب أيضاً.

أولاً، تحب نفسك، ومن ثم قريبك، ومن ثم الآخرين، وبعد كل هذا، تتسع دائرة الحب لتشمل الوجود. إنما أنت هو الأساس. إذاً لا ترفض ذاتك، أحبب نفسك، لقد اتخذ الخلود منك منزلاً، والوجود أحبك، إلى حد أنه استوطن فيك... جعل منك معبداً له. والخلود يعيش فيك، فإن رفضت الأقرب، فمن المستحيل أن تمنح حبك لمن تفصل المسافات بينك وبينهم.

حين قال المسيح: «تحب قريبك كنفسك، كان يقول، أحبب نفسك أولاً، ومن ثم قريبك».

أبهاتين الوصيتين يتعلق الناموس و كل الأنبياء؟

هناك وصية واحدة: الحب. الحب وحده ولا شيء غيره. إن فهمت الحب، تكون فهمت كل شيء، وإلا تكون تعرف أشياء كثيرة، غير أن كل الذي تعرفه هو مجرد توافه. قارن في سلة المهملات، وابدأ من البداية، عد طفلاً وابدأ بحب ذاتك من جديد.

سأروي لكم قصة العنكبوت التي بنت بيتاً لها على عارضة في مخزن قديم، وذات يوم قدمت على خيط نسجته، حيث وجدت الكثير من الذباب الذي يسهل اصطياده، فقررت بناء عش فعادت؟؟ لها، إلا أنه صادف أن رأت العتمة أخذت تسيطر على بيتها الجديد فقالت: «لا أريد هذا بعد اليوم»، فمزقت كل الخيطان التي نسجتها وعادت إلى حيث كانت.

وهذه حكاية أخرى ـ هناك خيط يصلك بالجوهر ـ بالعلى، اسمه التاو، الوجود، الألوهة، السمو. يبدو أنك نسيت كلياً أنك أتيت من هناك، من الكلي وعليك العودة إليه. كل شيء يعود إلى مصدره الأساسي... هكذا تكتمل الدائرة. ولربما قد تشعر كالعنكبوت، أن الخيط الذي يصلك بالجوهر، ما يزال أمامك. وبسببه لا تستطيع فعل شيء ما، إنه امامك دائماً ودائماً وأنت لست بقادر أن تكون عنيفاً، كما تريد أن تكون، ولا عدائياً كما تريد أن تكون، حتى ولا يمكنك أن تكره إلى الحد الذي تتمناه. فالخيط دائماً وأبداً يقف حجر عثرة دون ذلك، حتى أحياناً، تفكر كما العنكبوت، لاقته وعادت إلى حيث كانت.

نيتشيه قال: «مات الله»، لكنه أصبح مجنوناً... ففي قوله هذا قطع كل صلة تربطه بالمصدر الأساسي للحياة. هكذا تصبح جوعاناً لشيء حيوي وجوهري. ومن ثم ستفتقد أمراً مهماً، وتتناسى كلياً أنه كان أساس حياتك. إعلم، أنه حيثما كنت، حتى في ظلمة الليل الحالكة، هناك شعاع ضوء مصدره الوجود ما يزال متصلاً بك. إنه حياتك، إنه كيف أنت ما تزال حياً. جد الخيط، لأنه قد يعيدك إلى المنزل.

في الخامس من حزيران عام 1910 توفي أوهنري[1]، حيث كان أصدقاؤه إلى جانبه يلقون عليه نظرة الوداع، فإذ بهم يفاجأون أنه

يفتح عينيه ويسألهم «إضاءة النور» لأنه لا يريد الذهاب إلى منزل معتم، وبالفعل أضيء قبره، فأغمض عينيه وهو يبتسم.

إن الخيط المتصل بك، هو شعاع ضوء الحياة الأوحد، والذي يجعلك حياً هو طريق عودتك للمنزل. فأينما ذهبت بعيداً فليس بمقدورك أن تنفصل عن الوجود. قد تكون نسيت ذلك، لكن الوجود لم ينسك. حاول أن تجد فيك شيئاً يصلك بالوجود. إبحث عنه، وستصل إلى الوصية التي تحدث يسوع عنها. لو بحثت جيداً لعرفت أن هذا الشيء هو الحب، الذي يصلك بالوجود، إنه ليس الثراء، ليس النفوذ ولا الشهرة... إنه الحب، وكلما شعرت بالحب، ستشعر بفيض من السعادة، ذلك لأن المزيد من فرص الحياة ستتوفر لك.

المسيح أو بوذا كلاهما كالنحلة تذهب بعيداً، بحثاً عن حقول الزهور، وحين تجد حقلاً تعود إلى قفيرها، ترقص رقصة الغبطة والفرح أمام بقية النحل وكأنها تقول لهن: لقد وجدت حقلاً مليئاً بالأزهار، فهيا إليه معي، المسيح هو تماماً كالعسالة، التي وجدت المصدر الأساسي للحياة، حقلاً مليئاً بالزهر، زهر الخلود والأبدية. جاء إلى هذه الأرض ليرقص بالقرب منك، ورقصة رسالة تقول لك: «تعال واتبعني».

إذا فهمت رسالته، فستجد أنه الحب، أنه الأكثر تميزاً، والجوهر الأهم في كينونتك، لا تهمله، دعه ينمو، هكذا يصبح شجرة وارفة الظلال، وهكذا بمقدور عصافير الجنة أن تتخذ مأوى لها داخل ذاتك، وهكذا يفيض الحب من ذاتك وتصبح قادراً على مشاركة الآخرين، وهكذا تصبح عسالة، تشارك الآخرين بفرحك مما وجدت.. حقلاً مليئاً بالزهور.

الجريمة والعقاب

عقوبة الإعدام هي أدنى برهان على وحشية الإنسان تجاه الإنسان. إنها توضح أن البشرية ما تزال تعيش في عصور البرابرة، وأن الحضارة ما تزال مجرد فكرة، ولم تصبح حقيقة بعد.

عليك أن تنظر من جميع النواحي، لتتمكن ـ إن قدرت ـ من فهم لماذا هذا العمل الإجرامي، عقوبة الإعدام، ما يزال معمولاً بها في العديد من الحضارات والثقافات والأمم. هناك أمم كثيرة ألغت هذه العقوبة، لكنها عادت وعملت بها. وهناك أمم استبدلتها بعقوبة السجن مدى الحياة التي هي أبشع من عقوبة الإعدام. إنه لمن الأفضل أن يموت المرء مرة واحدة، على أن يموت ببطء خلال مدة محكوميته التي قد تمتد إلى خمسين عاماً أو أكثر. إن استبدال عقوبة الإعدام بالسجن المؤبد، لا يعبر عن توجه حضاري، بل إلى أننا ما نزال أكثر بربرية من ذي قبل، إلى الوحشية، إلى فقدان الضمير.

أول ما عليك إدراكه أن الحكم بالإعدام هو في الحقيقة ليس عقاباً. فإذا كنت غير قادر على وهب الحياة، كثواب، فليس بمقدورك إنزال الموت كعقاب أو جزاء. إنه المنطق، هناك عدم إمكانيتين، إذا كنت غير قادر على إعطاء الحياة للناس، فبأي حق تقضي على حياتهم؟

أتذكر قصة حقيقية. حدث أن مجرمين وجدا كنزاً ثميناً في إحدى القلاع، حاول الكثيرون تباعاً إيجاده لكنهم فشلوا. أحد هذين الإثنين صمم أن يحتفظ بالكنز لنفسه ولا يشارك الآخر به. فكر بقتل رفيقه، لكن هذه مخاطرة جسيمة قد تقوده إلى حبل المشنقة واستيلاء الدولة على الكنز.

فكر بحيلة بارعة، اختفى عن الأنظار وشيع بين الناس أن رفيقه قتله، وترك أدلة تبين أن رفيقه قتله. أمسك رجال الشرطة القاتل

المزعوم، لكن كل الأدلة تشير إلى أنه القاتل فعلاً، ولم يتمكن من إثبات براءته... فما كان من القاضي إلا أن حكم عليه بالإعدام... كان يعي تماماً أنه لم يفعل، وأنه ضحية مكيدة مدبرة وأن رفيقه ما زال على قيد الحياة، وأنه دبر له المكيدة للاحتفاظ بالكنز لنفسه.

إنما وقبل تنفيذ الحكم، تمكن الرجل من الفرار. وبعد إثني عشر عاماً، سمع أن رفيقه الذي أصبح خلال الفترة رجلاً سياسياً محترماً قد توفي، فما كان منه إلا أن عاد وسلم نفسه للقاضي الذي حكم عليه بالإعدام «أنا هو من حكمت عليه بالإعدام قبل اثني عشر عاماً، غير أني تمكنت من الهرب قبل تنفيذ الحكم... صدقني أنا بريء غير إني لا امتلك دليلاً على براءتي».

وتابع يقول: «اليوم بالذات توفي الرجل الذي اتهمت بقتله قبل اثني عشر عاماً، إنه الشخص ذاته، إذاً كيف أكون قد قتلته قبل اثني عشر عاماً؟.. جريمتي الوحيدة التي ارتكبتها هي أني هربت من السجن، ولكن هل بمقدورك القول إن هذه جريمة؟ حين تحكم على رجل بريء بالإعدام، من يكون المجرم أنت أم أنا؟».

وتساءل الرجل: «ماذا لو لم أهرب، ونفذ حكم الإعدام بحقي، فماذا كنتم ستفعلون اليوم أمام هذه القضية المستجدة؟ اليوم وقد تأكدتم أن الإنسان الآخر، كان ما يزال حياً، فهل كان بإمكانك أن تعيد لي حياتي إلى الوراء؟ فإذا كنت لست قادراً على هذا، فبأي حق سلبتها مني؟».

وقيل إن القاضي استقال، واعتذر من الرجل وقال: «لربما ارتكبت جرائم كثيرة في حياتي».

في كل العالم الحقيقة المرة، هي في إن لم تتمكن من إثبات براءتك فأنت مجرم. وهذا مبدأ يتناقض مع الإنسانية والديمقراطية والحرية ومع احترام الفرد. كما أنه ضد المبدأ القانوني القائل «الإنسان بريء

حتى تثبت إدانته». هذا ما يقال، غير أن الحقيقة هي عكس ذلك كلياً.

يقول الإنسان شيئاً ويفعل نقيضه، يتحدث عن الحضارة والثقافة، وهو في الواقع، لم يتعرف بعد لا إلى الحضارة ولا إلى الثقافة وعقوبة الإعدام خير دليل.

إنها من أحكام المجتمعات الهمجية، العين بالعين والسن بالسن... وما تزال البشرية تفعل الشيء ذاته، من يقتل أحداً يُحكم بالإعدام إما شنقاً أو رمياً بالرصاص، أو على الكرسي الكهربائي، لا فرق... إنه إعدام. الغريب في الأمر، أنه إذا أقدم أحد على قتل آخر، فهذه جريمة، إنما كيف يمكنك القضاء على الجريمة بارتكاب الجريمة ذاتها ثانية؟ حين يقتل إنسان ما، فهذا يعني أن هناك اثنين ماتا. المغدور ومن يحكم بالإعدام. مع أنه ليس من السهل إثبات براءته، وكيف يفعل ذلك وهو خلف القضبان؟

إذا كان القتل جريمة، فلا هم إذاً من يرتكبها، إنسان فرد، أو المجتمع أو حتى القضاء.

القتل بالطبع هو جريمة. أما حكم الإعدام فهو جريمة يرتكبها المجتمع بحق إنسان لا معين له. أنا شخصياً لا أسمي الحكم بالإعدام عقاباً بل جريمة... إنها جريمة ترتكب أخذاً بالثأر، فالمجتمع يأخذ بثأره من إنسان لم ينصع للقوانين. المجتمع مستعد ليعدمه، إنما ما من أحد مستعد لإزعاج نفسه والتساؤل عما إذا كان القاتل مريضاً نفسياً، وتجب معالجته. في حال ثبوت مرضه بدلاً من زجه في السجن بانتظار موعد تنفيذ الحكم... ماذا لو ثبت فعلاً أنه مريض، أوليس يستحق الرحمة والتسامح، بدلاً من معاقبته؟

رجل قتل رجلاً، فماذا بمقدورنا أن نفعل؟ لا شيء... هل إعدامنا القاتل، يعيد القتيل إلى الحياة؟ لو كان هذا ممكناً، لكنت من أشد

إذا كان القتل جريمة، فلا هم إذاً من يرتكبها، إنسان فرد، أو المجتمع أو حتى القضاء.

مناصري عقوبة الإعدام... لكنه أمر مستحيل... مات الرجل ولن يعود للحياة، والذي نفعله نحن اليوم، هو أننا نعدم إنساناً آخر. وهكذا نعود إلى شريعة الدم بالدم.

مجتمعنا اليوم، يدّعي الحضارة والتقدم الفكري والاقتصادي غير أنه ما يزال يعيش في عقلية القرون الغابرة. لم يتعلم من عبر التاريخ... أراد أن يكون حضارياً، لكنه لم يتخل عن وحشية القرون الغابرة. في ما مضى، وقبل ثلاثماية عام أو أكثر، كانت المجتمعات تعتبر المجنون مدعياً للكذب، أو مسكوناً بالأرواح الشريرة، أو أن في جسده كمية فائضة عن الحاجة من الدم، فماذا كانوا يفعلون لمعالجته؟

كانوا يسحبون من دمه حتى يصيبه الوهن والضعف، فيهدأ، يهدأ لا لأنه شفي، بل لأنه فقد كل قواه الجسدية. كانوا يفعلون ذلك اعتقاداً منهم أن الدم الزائد، إن كان هو كذلك يعطيه طاقة فائضة تتجلى في نوباته العصبية.

أما الذين، كان يشك في أنهم مسكونون بالأرواح الشريرة والأشباح، فداؤهم الجلد ـ أي علاج غريب هو هذا ـ الجلد.

كانوا يجلدون المجنون، وهم يعتقدون أنهم يجلدون الأرواح الشريرة والأشباح. وطبيعي جداً، أن يستكين جسد الإنسان الذي يجلد، فيقولون، ها هي الأرواح الشريرة هربت وتركت جسده... فكانوا يقولون إن الجلد يبرىء الإنسان المختل عقلياً من جنونه، ولكن هذا كان يصح بنسبة واحد أو اثنين بالمئة. فماذا عن الـ 98 %؟

زرت مرة، مركزاً مشهوراً لمعالجة المجانين. أقول مركزاً وليس مصحاً... لأنه لا صلة بين الإثنين. كان هذا المركز معبداً يقع عند ضفة نهر، يقصده مئات المجانين، ويشرف عليه كهنة، يقال عنهم

كهنة، أما في الواقع فهم جزارون سفاحون. كانوا يقيدون المجانين بالسلاسل الحديدية، يمنعون الطعام عنهم، ويعطونهم أقوى أنواع المسهلات حتى تفرغ أحشاؤهم من كل شيء. وفوق هذا يجلدونهم... نعم بقوة يجلدونهم، صدقوني لو جلد الصخر الأصم كما يجلد هؤلاء المجانين، لكان أنّ وعبّر عن وجعه.

رجل جوعان، لا شيء في معدته، ويجلد. فماذا ستكون النتيجة؟ هدوء وسكينة جسدية ليس أكثر. كثرة الطعام والحياة الرغيدة يولدان الجنون.

نعم... نعم، كلما ازدادت رفاهية مجتمع ما، كلما عاش سعيداً، وتوفرت لأفراده كل وسائل الحياة. كلما ازداد عدد مجانينه، أما أولئك الجوعى الذين يعانون من شظف الحياة، فنادراً ما يصابون بالجنون.

الجنون، يحتاج بالدرجة الأولى، عقلاً، وإلا لماذا يطلق على المجنون، المختل عقلياً، والفقير، بحاجة للتغذية، وقلة الغذاء يحول دون حيوية العقل، إذاً نسبة الإصابة بالجنون هي جد متدنية. ولهذا السبب فالجنون هو مرض الأغنياء الذين يتغذون جيداً ويتمتعون بطاقة عقلية زائدة... إذاً الثراء هو سبب للجنون، أما الفقر فلا.

وهكذا، حين تبقي إنساناً يعاني من الجوع وتعطيه المسهلات لتنظيف أحشائه مما فيها، يصبح مهتماً بجسده وينسى أن له عقلاً. اهتمامه منصب على جسده، غير آبه بعقله وألاعيبه.

الجنون هو لعبة العقل

ما عرفت مرة، بالرغم من ترددي هذا المكان، مجنوناً شفي من علته، وبالرغم من الشائعات التي تقول عكس ذلك. ما جعل المئات يقصدونه بقصد الشفاء، حتى أصبح المعبد واحداً من المؤسسات

التي تتمتع بالثراء. وللحقيقة، عرفت أن واحداً، واحداً فقط لا غير، قد شفي أما الباقون فقد عادوا إلى بيوتهم، بعد الجلد، وبعد معاناة الجوع، وحالتهم أسوأ مما كانت عليه، وكثيرون ماتوا بسبب علاج الرهبان ـ الجزارين.

في الهند، إذا توفي رجل وهو يتلقى العلاج على يد أحد كهنة المعبد ـ المعبد الذي يعتبر مكاناً مقدساً، لا يعتبر هذا الحدث جريمة، بل نعمة للمتوفي الذي سيولد من جديد، وفي مرتبة أعلى من تلك التي كان يحياها في حياته هذه. إذاً أين الجريمة هنا؟... لهذا ما يزال الرهبان يعالجون الناس و بالطريقة ذاتها، والناس يموتون وهم ـ أي الرهبان ـ يزدادون ثراء.

أما اليوم، نعلم أن المجانين لا يعالجون هكذا. لكننا بتنا أكثر وحشية. صرنا نعزلهم، في سجن، دون حكم قضائي... نفعل هذا، لأننا لا نعرف ماذا نفعل، ولأننا لا نعرف ما علينا فعله نضعهم في أماكن معزولة وننسى أمرهم.

لي صديق ثري يقيم في ذات المدينة التي أقيم فيها... كثيراً ما أزوره، دون أن أدري أن عمه مجنون، وبعد فترة من الزمن علمت بالأمر، وعرفت أنه مرمي في طابق سفلي مقيد اليدين والرجلين.

وسألت صديقي «لماذا؟».

وجاء الجواب صريحاً، إنه مجنون، وكنا أمام خيارين، إما أن نقيده ونبقيه مقيماً بيننا يراه الزوار والأصدقاء، ويصيبهم الهلع والخوف، هم وأبناؤهم وزوجاتهم، وهكذا تتشوه سمعتنا، وإما نرسله إلى سجن، اخترناه أن يكون في الطابق السفلي، ونؤمن له خادماً يعتني به، يؤمن طعامه ويهتم بنظافته، وهكذا لا أحد يعلم بوجوده.

أبديت لصاحبي رغبتي برؤية عمه. وبعد إلحاح وافق وهو يقول «غير أني لن أكون معك، إنه مجنون خطر، حتى وهو مقيد، قد يتسبب بأذيتك».

وأجبته: «ليس بوسعه أن يفعل أكثر من قتلي، كن ورائي وهكذا، إن قتلني يمكنك الهرب... أتمنى عليك أن تكون معي».

وبسبب إلحاحي، وافق صاحبي على طلبي... وتدبر الأمر مع الخادم... الذي كان يسمع منه دائماً: «قل لهم أنا لست مجنوناً». كان الخادم يهزأ منه، وكذلك الأهل حين ينقل الخادم إليهم رسالة المجنون «قل لهم أنا لست مجنوناً».

والتقينا معاً... المجنون وأنا، لم يبدُ لي أنه مجنون، بل كإنسان عادي جداً بادر إلى مخاطبتي: «وجودي هنا لثلاثين عاماً أكسبني تجربة حياتية لا توصف، تجربة رائعة. الحقيقة أني جد محظوظ لأني أمضيت هذه الفترة بعيداً عن عالمكم المجنون. يعتقدون أني مجنون، لا ضير في ذلك، فليعتقدوا ما يشاؤون المهم أني جد محظوظ لعدم اختلاطي مع عالمكم المجنون... ما رأيك أنت؟».

ابتسمت وقلت: «إنك محق مئة بالمئة، العالم في الخارج هو أكثر جنوناً مما اتهمت فيه لمدة ثلاثين عاماً مضت، عرف العالم خلالها تطورات عدة، حتى في الجنون. عليك ألا تحاول إقناع الآخرين بأنك لست مجنوناً، لئلا يخرجوك من هنا. إنك هنا تعيش أفضل حياة، ولديك مساحة واسعة تسمح لك بالتحرك بحرية... أن تمشي».

«إنه الشيء الوحيد الذي أقوم به... المشي»، هذا ما قاله.

نظرت إليه ثانية وأنا أبتسم، قائلاً: «إسمع يا صاحبي، إنك في وضع مريح وحالتك تسمح لك أن تكون بوذياً صالحاً: لا قلق، لا

المجانين بحاجة لتلقينهم أصول التأمل. وهكذا يشفون، أما المجرمون فهم بحاجة لمعالجين نفسيين ودعم روحي... إنهم مرضى، فكيف يحق لنا معاقبة المرضى. المرض ليس جريمتهم.

إزعاج ولا انزعاج... إنك لمبارك». ثم التقيته مرة ثانية قبل وفاته، ومن خلال عينيه ووجهه وكلماته، أدركت مدى التحول الذي طرأ على حياته، لقد صار إنساناً جديداً أكثر إيجابية وتفاعلاً مع الحياة.

المجانين بحاجة لتلقينهم أصول التأمل. وهكذا يشفون، أما المجرمون فهم بحاجة لمعالجين نفسيين ودعم روحي... إنهم مرضى، فكيف يحق لنا معاقبة المرضى. المرض ليس جريمتهم... إذا أقدم أحد على ارتكاب جريمة فهذا يعني أن في داخله نزعة عدائية، لا أحد يدري متى تتحول إلى فعل.

إذا وقعت جريمة، فعلى المجتمع بكامله أن يتحمل المسؤولية، وإن كان لا بد من عقاب، فيجب معاقبة المجتمع... وعلينا أن نتساءل «لماذا يحدث مثل هذا في هذا المجتمع أو ذاك، كيف تعاملتم مع ذاك الإنسان الذي قد يرتكب جريمة؟ لماذا تحول هذا الإنسان إلى مجرم؟ يولد المرء وتولد فيه طاقة خلاقة، قد تتحول إلى طاقة تدميرية، إذا منعناه من التعبير إيجابياً عن ذاتها. وكلما حاولت الطاقة أن تعبر عن طبيعتها، تجد المجتمع يحاول منعها من ذلك، يحاول إعاقة محاولتها، ما يجعل المرء في حالة من الحيرة، لا يدري ماذا عليه أن يفعل، ولماذا يفعل ما فعل؟» الأسباب الحقيقية لحيرته، تبقى بعيدة عن المعرفة، إلا أن التحولات التي تطرأ عليه تجعله في حالة ذهنية مشوشة.

لا أحد موافق على عقوبة الإعدام، وما من أحد يجب أن يعاقب بها. في الواقع، لا الحكم بالإعدام، ولا أي عقاب آخر، هو في موقعه الصح، لأن العقاب لن يشفي أحداً. يوماً بعد يوم يزداد عدد

المجرمين ويوماً بعد يوم يزداد عدد السجون... إنه لأمر غريب، يجب ألا يكون. إنما النقيض هو الأفضل. مخطىء من يعتقد أن كثرة عدد المحاكم وزيادة أحكام العقوبات وتشييد المزيد من السجون، قد تنقص عدد الجرائم والمجرمين، بل يجب فعل العكس.

الحقيقة، أننا نعتمد المنطق الخطأ. ليس بالعقاب نعلم الناس. بالرغم من أن القضاة وخبراء القانون والسياسيين، ما يزالون يرددون منذ عهود «إن لم نعاقب الناس، فكيف إذاً سنعلمهم؟» هذا يعني أن عدد المجرمين سيزداد، وعلينا معاقبتهم حتى نزرع الخوف في قلوبهم. «الخوف هو الطريقة المثلى للتعليم، بالرغم من أنه ليس كذلك أبداً». كل ما بإمكان العقاب أن يعلم الناس هو أن يتعرف إلى الخوف، مما يعني أن الصدمة لن تبقى طويلاً، وهكذا يصبح الكل يقول: «طالما هناك من تحمل الجلد، فهذا يعني أني قادر على تحمله»... إضافة إلى ذلك، فمن بين مئة لص، لن يتم القبض على اثنين أو ثلاثة، إذاً هناك ما يفوق الـ 95 % سيفلتون من العقاب. فأي نوع من البشر نحن؟

ما من أحد اتعظ من العقاب، حتى الذين عوقبوا لم يتعظوا، بل عرفوا أن آثار الضرب ستبقى واضحة على أجسادهم لفترات، ومهما طالت ستزول بعدها.

وإذا اقتيد أحدهم إلى السجن، فسيتحول السجن إلى منزل، حيث يجد الكثيرين غيره ومن مختلف المشارب والأهواء... في السجن سيجد نفسه وسط مجتمعه الحقيقي، بينما خارج السجن يشعر بالغربة، هنا في السجن كل يتحدث عن ذنب اقترفه، وكل يتحدث عن تجربته، فيكتسب قليلو الخبرة خبرة أكثر.

أدخل رجل إلى إحدى الزنزانات المظلمة في أحد السجون، في الزنزانة التقى عجوزاً سأله «كم ستبقى هنا؟».

أجاب السجين الجديد: عشر سنوات.

فأجاب العجوز: «إذاً إبق قريباً من الباب... عشر سنوات قريباً تنقضي، أما أنا، فسأبقى هنا لخمسين سنة... إبق قريباً من الباب، لن يطول مقامك هنا».

إنما خلال وجودك عشر سنوات، مع خبراء في الجريمة، ستتعلم تقنيات جديدة، أساليب جديدة ستكسبك خبرة جديدة، وهكذا يتحول السجن إلى نوع من مؤسسة تعليمية. جامعة مثلاً، حيث تتلقى كيفية أن تكون مجرماً ناجحاً وعلى نفقة الدولة. ستجد في السجن أساتذة في الإجرام، عمداء كليات إجرام، مستشارين قانونيين وخبراء في ابتداع وسائل الاحتيال... ستجد بشراً ارتكبوا جرائم متنوعة، من السرقة، إلى التزوير والقتل، ومن كل هؤلاء تبدأ أنت بالتعلم.

زرت سجوناً كثيرة، واكتشفت أن نزلاءها، هم فيها ليسوا لأنهم مجرمون، بل لأن الشرطة تمكنت من القبض عليهم. إذاً عليك ابتداع الوسائل لارتكاب الخطأ بطريقة صائبة. والأغلب الأعم من المساجين، يتعلمون في السجن، كيف يرتكبون الأخطاء إنما بطريقة سليمة تبقيهم بعيدين عن الشبهات. في السجون التقيت العديد من المتشوقين للخروج، لا رغبة في بناء حياة جديدة، بل لتطبيق ما تعلموه في السجن، من طرق وأساليب، وحتى لا يبقى ما تعلموه نظرياً فقط، إنهم يريدون تطبيقه.

حين يصبح إنسان ما مرتاداً للسجن، سيجد من السهل عليه أن يعود إلى السجن الذي تحول إلى مجتمع بديل لمجتمعه الأساسي، إلى السجن حيث يشعر بالراحة ويعتبره كبيت له، لا أحد فيه ينظر إليه نظرة احتقار. الكل هنا مجرمون، لا كهنة ولا قديسين، لكن بشر عاديين.

خارج السجن سيجد هذا الإنسان نفسه مرفوضاً ممن هم حوله.

في المدينة التي أسكن، لي صديق نزيل سجون، اسمه بركات ميان، يمضي ثلاثة أشهر خارج القضبان والتسعة الأخرى وراءها، وبالرغم من هذا فإني ما زلت أزوره وأكن له الود، رغم اعتراض عائلتي على هذه العلاقة ويرددون دائماً على سمعي، لماذا هذه العلاقة بينك وبين بركات؟ أما سمعت بالقول: «قل لي من تعاشر لأقول لك من أنت».

ودائماً كنت أجيب،: «أعرف، ولكن لماذا لا يكون العكس، فبدلاً من اعتباري سيء السمعة كبركات، لماذا لا يعتبر هو إنساناً محترماً مثلي؟» من جهتي أنا أرى أن بركات لا يقلل من شأني، بل أنا أرفع من شأنه. أعرف أنكم تعتقدون أن الشيطان الذي يسكنه هو أقوى مني، وهذا يعني أنكم لا تحترمون قدراتي بقدر ما تحترمون قدرات بركات... مهما يكن، لي كل الثقة بنفسي، وأثق أن بركات لن يتسبب بأذيتي. وإن كان لا بد أن يتأذى واحد منا، فهو بلا شك بركات من سيتأذى.

للحقيقة أقول، إنه كان رجلاً محباً واعياً، ولطالما طلب مني عدم مقابلته في المدينة، بل حيث يقيم بالقرب من المقبرة الإسلامية التي تقع على ضفة النهر، أي إلى حيث لا يذهب أحد إلا يوم وفاته. لم يكن في المدينة من هو مستعد تأجيره منزلاً. بالرغم من استعداده لدفع قيمة الإيجار مهما كانت ومسبقاً.

سألت بركات: كيف أصبحت لصاً؟

حين أدخلت السجن لأول مرة، أدخلت زوراً وبهتاناً... كنت بريئاً صدقني كنت بريئاً، وكنت فقيراً لا أملك مالاً لأوكل محامياً يدافع عني. «ولكن لماذا؟» تساءلت.

سؤالك رائع... كنت دون الخامسة عشر حين توفي والداي، وأراد أقربائي الاستيلاء على كل ما نملك، من بيت وأراضٍ، ولن يكون بمقدورهم تحقيق ذلك وأنا موجود، فدبروا مكيدةً لي... وضعوا مبلغاً من المال في حقيبتي وادعوا أني اختلسته. وهكذا، أدخلت السجن بتهمة السرقة. ودون أن أتمكن من إثبات براءتي، وكيف يكون ذلك، والمال وجد في حقيبتي؟ وحين خرجت من السجن، كان أقربائي قد اختفوا واختفى معهم البيت وكذلك الأراضي، وهكذا أصبحت أبيت على أرصفة الشوارع.

«هكذا دخلت السجن لأول مرة دون ذنب ارتكبته... نعم كنت بريئاً، إنما خرجت مجرماً». في السجن أخبرت السجناء ما أصابني، فقالوا لي «لا تقلق، خلال إقامتك معنا، سنعلمك كيف تنتقم من أقربائك، بعد خروجك من هنا».

بعد خروجي أخذت أنتقم من أقربائي، تطبيقاً للقول «السن بالسن» لقد أجبروني أن أكون لصاً، وها أنا أصبحت لصاً بالفعل. وشيئاً فشيئاً تعودت على السرقة، أصبحت لصاً محترفاً، أقوم بعشر عمليات دون أن يقبض علي، ولكن الحادية عشر لن تكون كسابقاتها اليوم لم تعد هناك أية مشكلة، فالسجن صار بمثابة منزل لي، بمثابة عطلة أمضيها خارج مدن الخوف، الجشع والطمع. بضعة أشهر في السجن هي كافية لتعويدي على حياة نظامية، النوم في ساعة محددة وكذلك الاستيقاظ، كل شيء معد مسبقاً، والأهم نعطي ما يكفي من الطعام لنبقى أحياء.

ومضى يقول: «في السجن ما أحسست بالمرض، إنما كنت أدعيه أحياناً للذهاب إلى المستشفى، حيث كانت ممرضة ممشوقة القوام دائمة الابتسام، كنت معجباً بها. في السجن كلنا متساوون، أما خارجه فهناك أسياد وآخرون أقل قدرة وقيمة... في السجن فقط،

كنت أتنفس هواء الحرية».

أي مجتمع هو هذا الذي يجبر الناس على الشعور بالحرية في السجن، ويشعرهم أنهم خارجه هم مساجين؟

هكذا تكون البداية، سرقة شيء تافه، سرقة رغيف خبز لسد جوعه، أو سرقة غطاء يقيه البرد. إنما بعد أن يقبض عليه ويودع السجن، يتعلم أشياء كثيرة، يصبح أكثر تفنناً، فلا يعود يكتفي بالرغيف أو بالغطاء، بل صار يريد ما هو أثمن وأغلى، وهكذا يتحول إلى لص محترف.

للقضاء على الجريمة، لا بد من تقليل عدد سكان العالم حتى الثلث.

غير أن ما من أحد يتمنى اختفاء الجريمة، لأن هذا يعني الاستغناء عن القضاة والمحامين والخبراء القانونيين ورجال الشرطة والسجانين، ولا يعود أعضاء مجلس النواب مهتمين بسن القوانين ووضع التشريعات لمحاربة الجريمة والمجرمين. إذاً ما من أحد يريد زيادة عدد العاطلين عن العمل، ولا لتغيير الحال.

الكل ينادي بالتغيير نحو الأفضل، إنما يعملون العكس، لأن الأشياء السيئة هي التي تتطلب محاربة وبالتالي زيادة العاملين. ومن ثم فالشرفاء ـ كما يدعون ـ هم بحاجة للمجرمين ليثبتوا أنهم شرفاء، القديسون بحاجة للخطأة، إذ لا قديس إلا بوجود الخطأة، ولو كان المجتمع كله صالحاً، فهل ستجد من يتذكر المسيح؟ إنها الجريمة والخطيئة اللذان جعلا الناس يتذكرون المسيح والأنبياء ولو على مدى آلاف السنين. ولماذا يتذكرون طالما كل واحد منهم هو مسيح آخر، طالما هو بوذا آخر، طالما هو محمد آخر؟

الحقيقة، أن مبدأ العقاب، هو منافٍ كلياً لما ندعيه من حضارة

وتقدم علمي واقتصادي. وإلى ما هنالك... إلى متى سنبقى هكذا، أشراف وطبقات دنيا؟

برأيي، ليس في هذا العالم مجرم، إنما هناك من هم بحاجة للعطف وللتضامن معهم، وليس للسجن أو للعقاب. لذا أنادي بضرورة تحويل جميع السجون إلى مراكز علاج نفسي.

مسألة الحياة والموت

إجابات على تساؤلات

تعرضت شقيقتي لحادث، هي اليوم عاجزة عن الحركة، فاقدة البصر، صماء، خرساء، هل من المستحسن أن أدعها تموت؟

إنه السؤال الجوهري الذي يطرحه العديد من البشر، وفي كل أنحاء المعمورة. ذلك لأننا، ومنذ قرون ونحن نؤمن بأن فكرة الموت مرفوضة، لأنها عمل شيطاني. الحياة هبة من الله أما الموت فهو عمل شيطاني.

حتى الأطباء حين يتخرجون، وفي العالم كافة، عليهم أن يقسموا قسم أبقراط قائلين إنهم لن يساعدوا أي إنسان، ولا بأي شكل من الأشكال، للموت، وإن عليهم مساعدة الآخرين للحفاظ على حياتهم بقدر ما يستطيعون.

كان هذا جائزاً أيام أبقراط، أيام كان يموت تسعة أطفال مولودين حديثاً، ولا يبقى على قيد الحياة إلا واحد فقط. هكذا كانت هي الحال، وكان عدد سكان العالم، أيام بوذا، لا يتجاوز المايتي مليون نسمة، بينما عدد سكان الهند وحدها، هذه الأيام، يفوق المليار نسمة.

للقضاء على الجريمة، لا بد من تقليل عدد سكان العالم حتى الثلث.

اليوم يقولون، معدل الأعمار هو سبعون سنة، بينما، وكما تبين للعلماء، لم يكن هذا

المعدل، قبل خمسة آلاف سنة، الأربعين سنة. إذاً كان الناس بتعلقهم في الحياة، كانت الحياة أروع وأجمل. كانت أقصر بكثير مما عليه اليوم، ما من أب كان ينتحب على ابنه، اللهم باستثناء أولئك الأطفال الذين كانوا يموتون وهم دون الثانية من عمرهم.

اليوم، نجد بشراً ناهزوا المئة سنة من العمر، وهناك من هم ناهزوا التسعين وما يزالون يعملون، مثلهم مثل غيرهم من الذين هم أصغر سناً منهم. ويقول العلماء، إذا توفرت التغذية السليمة، والمناخ الصحي، وإذا ما قام الإنسان بالتمارين الرياضية الصحيحة، فقد يعيش حتى ما فوق المايتين وخمسن عاماً... إنه لأمر خطر ومزعج جداً... ماذا سيفعل هذا الإنسان، بهذه السنوات؟ وما الجديد الذي سيراه؟ لا شيء، حتى أن علاقته بأحفاد أحفاده أو بأحفاد أحفاد أحفاده... ومن ثم، وهذا هو السؤال الأهم، ما الذي سيفعله؟ لقد عاش، أحب وتزوج وأنجب بنيناً وبناتاً. عرف الحياة بحلوها ومرها، بنجاحاتها وإخفاقاتها، فما الجديد الذي سيراه؟ ستصبح أيامه تكراراً لأيامه التي مضت.

لنعد إلى مسألة الموت. انطلاقاً من وجهة نظري الشخصية ما المانع القانوني والأخلاقي الذي يحول دون رغبة إنسان وصل إلى مرحلة من العمر، شعر فيها أنه لم يعد هناك حاجة لوجوده؟ لقد عاش ما يكفي - في الواقع، يجب أن يكون في كل مستشفى، قسم خاص لمثل هؤلاء الراغبين بالموت بهدوء وصمت، شرط أن تكون العناية الطبية بهم، لا لإطالة حياتهم، بل لمساعدتهم على استقبال الموت بهدوء وصمت، والابتسامة تعلو شفاههم.

لذا أقترح أن يكون في مثل هذه الأقسام، من يلقن هؤلاء الراغبين بالموت مبادىء التأمل، هكذا يصبح موتهم أكثر أهمية من بقائهم على قيد الحياة. هكذا يكون لدى الواحد منهم وقت للتفكير ملياً

بالأمر، لربما هناك من يبعد فكرة الموت عن باله، ويعود راغباً بالحياة. لربما هناك أشياء حدثت جعلته يعتقد «أنه من الأفضل أن أنهي حياتي» ولربما أثناء وجوده في المستشفى لمدة شهر استعداداً للحظة الفراق، قد تطرأ أمور معاكسة لتلك التي جعلته يفكر بالموت، فيخرج من المستشفى ليكمل حياته كأي إنسان آخر.

علينا ألا نؤثر فيه عاطفياً، ولنعلم أن ما من أحد انتحر، وما كان لينتحر لو فكر لثوان معدودات قبل إقدامه على الانتحار. مهمة العاملين في هذه الأقسام هي السماح لهؤلاء البشر، بالتفكير ملياً وبهدوء، فإما يعودون إلى حياتهم الطبيعية، وإما يمضون نحو ساعة الموت مبتسمين واعين لما يفعلون.

جواباً على السؤال، أطلت المقدمة لأوضح أن الموت ليس عملاً شيطانياً، بل هو أمر طبيعي. أما والسؤال يتعلق بأختك الصغرى العاجزة عن الحركة، التي لا ترى، صماء خرساء، وكل حواسها معطلة فهل تعتقد أنها هذه حياة؟ بكل بساطة هذه تغذية، ولا بد من أنها تتعذب وتتألم، لكننا لا نعرف هذا. وكيف سنعرف وهي غير قادرة على التكلم ولا التواصل بيننا وبينها؟ إنها بالفعل أشبه بالميت الذي نجبره على البقاء حياً، إلى متى سنبقى نمدها بالغذاء، إلى خمسين عاماً، سبعين، ثمانين أو لربما ألف تكون خلالها عبئاً على العائلة؟ لا شك أنها ستكون سبب تعاسة كل من يحيط بها، وعذابه أيضاً، ينظر إليها، يتألم وهو عاجز عن فعل شيء من أجلها.

إن شقيقتك هذه أشبه بحالة إنسان في غيبوبة تامة. أنا شخصياً تعرفت إلى امرأة كانت في غيبوبة. كل أعضائها الحيوية معطلة حتى الدماغ، باستثناء القلب، والأطباء عاجزون عن فعل شيء، حتى أن أحدهم قال: لقد مرت سنة وهي على هذه الحال ومن يدري قد تمضي عشرون أو ثلاثون سنة أيضاً. لقد تحولت إلى حمل ثقيل على

زوجها وأولادها. إنهم عاجزون... والأطباء يفضلون الموت لها، لكن القانون يمنعهم من إماتتها، وإن فعلوا، فلا شك سيعتبرون مجرمين.

القانون بدائي، لا يعرف معنى الرحمة. المرأة بحاجة للموت الرحيم، وهي عاجزة أن تطلب هذا.

هكذا هي حال شقيقة السائل، إنها تريد الموت لكنها عاجزة عن طلبه. لذا، أرجو من كل من يحبها أن يرفع الأمر أمام المحاكم ويلح على أن استمرارها في الحياة هو جريمة بحقها وحق عائلتها... إبقاؤها على قيد الحياة، لا يعتبر حباً، بل تمسكاً بأفكار بدائية. أطلب منه أن يعلن استعداد العائلة كلها، دون استثناء، إطلاق روحها من سجن جسدها المتألم لتعود وتولد في جسد جديد، ترى، تسمع، تتكلم وتتحرك. تذرع أرض الغرف جيئة وذهاباً، موتها ليس جريمة بحقها، بل نعمة سماوية تحل عليها.

أنا أقول هذا، وقولي لا يجبر السائل على العمل به، إذ عليه معرفة ما إذا كانت قوانين بلاده تسمح بالموت الرحيم أم لا. خاصة وأنه قد تكون مئات الحالات المشابهة لحال أخته. المشكلة هنا هي قانونية وليست أخلاقية، المشكلة هي في القانون الذي يمنع الأطباء من مساعدة أحد ما على خلع جسده.

لقد حان الوقت، لنفهم، وليفهم الأطباء بشكل خاص، ألا ضرورة بعد اليوم لقسم يمين أبقراط، بل استبداله بيمين جديد لمساعدة الناس على الاستمرار في الحياة، طالما هو قادر على الاستمتاع بها، ليس لمساعدة أحد على التنفس فقط... ومن قال إن التنفس هو الحياة؟ في مثل هذه الحال، من الأفضل مساعدته ليموت وفي كلتي الحالتين سيكون الطبيب رحوماً عطوفاً، فالرحمة تعني أن

عليك مساعدة إنسان ما ليعيش أفضل حياة، لينعم بالأيام المتبقية من عمره.

إن على كل الدول، أن تسن قوانين مشابهة لتلك التي سنتها بعض الدول الأخرى بتحديد النسل، أوليس منع طفل من إبصار النور هو إماتته ولو قبل أن يولد؟ إذا كانت هذه الدولة ارتضت بمثل هذه التشريعات، فلماذا لا تسمح للمسنين الذين يرغبون بترك هذا العالم بتحقيق رغباتهم؟

ولادتك ليست رهن إرادتك، إنما، لنترك لك، على الأقل حرية اختيار موعد موتك. هناك دول عدة، بدأت تتقبل الفكرة. عدد السكان يتزايد يوماً بعد يوم، ونحن، في بعض الدول، نحول دون إنجاب طفل أو طفلين، منعاً للانفجار السكاني. إذاً علينا ألا نمنع الراغبين بالموت من تحقيق ذلك، هكذا يستقر عدد السكان، وقد يتناقص، ويقل عدد الفقراء.

المسألة ليست في أن عدد الفقراء سيتناقص أو مسألة الاكتظاظ السكاني، بل هي أبعد من ذلك بكثير. في العالم الغربي، وفي الولايات المتحدة بالأخص، هناك مئات الألوف، الذين تتراوح أعمارهم بين التسعين والمئة، يعيشون في المستشفيات بسبب عجزهم عن الحياة وحدهم في بيوتهم. إنهم بحاجة لعناية دائمة، ونحن ما نزال نحتفظ بهم أحياء ـ إنما كيف نبقيهم أحياء بالتنفس الاصطناعي، ولا أعتقد أن هذا يمنح هؤلاء ولو جزءاً يسيراً من السعادة، ولا يعطيهم أمل الشفاء للعودة إلى منازلهم. بل هم في المستشفيات حتى تأتي الساعة. والأهم لا أرى أي منطق في إبقائهم يتنفسون اصطناعياً، بينما أجسادهم ترفض التنفس الطبيعي. إذاً رجاء اسمحوا لهم ألا يتنفسوا، إنها مشكلتهم.

إننا نتدخل في كل شيء، ولا نسمح لهم بالموت، بالرغم من أنهم

في الواقع أموات نجبرهم على الاستمرار بالتنفس، بدون أي هدف. إن بقاء الآلاف أحياء، يعني إشغال آلاف الأسرّة في المستشفيات التي قد يكون هناك من هم بحاجة أكثر إليها، ويعني أيضاً إضاعة وقت الأطباء والممرضات، وإشغال الآلات الاصطناعية... ولكن لماذا؟ بعد سنتين أو ثلاث، سترفض أجسادهم التنفس، حتى اصطناعياً، وسيتركون هذا العالم، ولكن خلال السنوات هذه، لماذا نبقيهم يتعذبون؟ قد يجيب أحدهم: «إن واجب الدولة تأمين الخدمات لمواطنيها، وواجب علينا أن نكون رحومين، وهذه هي مبادئنا كمسيحيين. في الواقع هذا هو الإجرام بعينه».

دعوا هؤلاء يموتون، كما وهناك مئات الألوف، في جميع أنحاء العالم يتمنون الموت... هم يعانون من الأمراض، يتوجعون، يتعذبون وغير قادرين على فعل شيء سوى تحمل العذاب غصباً عنهم.

إنه عالم غريب فعلاً، ما يزال ينفذ قوانين بالية تفتقر إلى الواقعية، وتتسبب بعذاب الإنسانية دون أن تكون هناك ضرورة لذلك.

أما بالنسبة لشقيقتك يا سائلي، فأرى ضرورة أن تتخلى عن هذا الجسد لأنه تحول إلى سجن. إن كنت تحبها فعلاً، قل لها وداعاً ولا عجب إن ذرفت الدمع وشعرت بالحزن والأسى، ولكن قل لها وداعاً وأنت تصلي من أجلها، وتتضرع أن تسكن روحها جسداً أفضل من هذا الذي تسكنه الآن. ولكن عليك أن تأخذ من دولتك ولا تخشى ملامة لائم.

الأمر الأكثر غرابة في مسيحيتي. هو أنه علي محبة الآخرين ونسيان نفسي. إنما اليوم تذكرت أن لي نفساً محبتها واجبة، إنما خائف أن أكون أرتكب إثماً... فهل تحدثني عن ذلك؟

كل الديانات تعلم أتباعها نكران الذات وحب الآخرين، إنما

المسيحية غالت في هذا الموضوع، باستعمال تعابير تبدو براقة ظاهرياً، غير أنها تحطم الإنسان عملياً؛ أن تطلب من إنسان أن يكون غيرياً، وهو لا يعرف ذاته، أمر جد خيالي، لا يمكن لامرئ التصديق أن المسيحية تفعل ذلك منذ ألفي عام.

قال سقراط: «إعرف نفسك»، وكل ما عدا ذلك فهو أمر ثانوي لا قيمة له. معرفة النفس هي الطريق إلى اللاأنانية. معرفة نفسك، لا تعني أن تتعرف إلى ذاتك فقط، بل إلى معرفة ذات أي إنسان آخر. الأمر هو ذاته، وهكذا يصبح البشر أكثر تلاحماً وتعاطفاً. البشر ليسوا جزيرة مستقلة عن كل ما يحيط بها، إنما المسيحية لعبت دوراً مهماً وخطيراً في هذا المجال، منذ ألفي سنة وهي تخاطب الناس بكلمات تدخل القلب مباشرة: «الغيرية أو اللاأنانية» هكذا تقضي تعاليم الدين، وهي بحد ذاتها تعبير رائع. أما إذا قلت: «كن محباً لنفسك أولاً فهو قول مرفوض».

منذ الصغر، وأنت مدعو لتكون «لاأنانياً»، إنما يستحيل أن تكون كذلك. طالما أنت تجهل نفسك وتتنكر لها. اللاأنانية هي المرحلة الثانية، أما المرحلة الأولى، فهي معرفة الذات، فهي في أن تكون أنت ذاتك. وهكذا تصبح اللاأنانية ليست تنفيذاً لأمر بهدف مكافأة سماوية، إنما، وبكل بساطة، تصبح جزءاً مهماً من سلوكك اليومي غير المصطنع. وهكذا، تكون كلما تصرفت وفقاً للاأنانية، تكون تكافئ نفسك بنفسك.

المسيحية فعلت العكس، وضعت الحصان وراء العربة. فكيف ستتحرك العربة؟ إنها بحاجة للحصان ليجرها، ولكن أين الحصان، إنه خلف العربة...

معظم المسيحيين يعتبرون التأمل أشبه بالإثم، حين يكون العالم يعاني عذابات متنوعة، يعاني من الجوع، من مرض نقص المناعة، فلا

يحق أن تمارس التأمل، وإلا تكون جد أناني، إذ عليك مساعدة الآخرين أولاً...

كانت الأم تطلب من صغيرها «ألا يكون أنانياً، هذا ما يطلبه الدين منا... لا تكن أنانياً بل عليك مساعدة الآخرين».

التفت الصغير نحو أمه، وببراءة الطفولة خاطبها: «يبدو هذا أمراً غريباً... أنا أساعدهم، وهم يساعدونني، فلماذا هذا اللف والدوران، فليساعد كل منا نفسه أوليس أفضل؟» أنا أساعد نفسي وهم يساعدون أنفسهم.

في الواقع، المسيحية تدين الديانات الشرقية، لسبب بسيط لأنها تميل إلى الأنانية، أكثر منها إلى الغيرية، فماهاتيرا، بدلاً من تمضية اثنتي عشر عاماً مستنسكاً، كان عليه أن يكون أستاذاً في مدرسة أو عاملاً في مستشفى، أو يعتني بالأيتام، كما فعلت الأم تيريزا التي حازت جائزة نوبل.

ما من ناسك حاز جائزة نوبل. ولماذا؟ ما تصرفوا إلا بموجب ما تطلبه نفوسهم، إنهم أكثر الشعوب أنانية، يستنسكون، يستمتعون بحالات الصمت التي تريح نفوسهم لأنهم غير منخرطين في مشاكل الناس، لأنهم بعيدون كل البعد، عما يجري خارج صوامعهم. هذه هي قمة الأنانية، لهذا، فالمسيحية ترفض فكرة الاستنساك والاستغراق في التأمل، في المسيحية لا تأمل، بل صلاة.

المسيحيون لا يعترفون ببوذا كرجل دين، أو كمؤسس لديانة سماوية. ما الذي فعله للفقراء، أو للمرضى والمشردين؟ ماذا فعل للمسنين؟ كل ما فعله هو أنه أصبح متنوراً، وهذه قمة الأنانية. إنما للشرق رؤية أخرى، الشرقيون، أكثر واقعية، وأكثر تفهماً للواقع. الشرقيون يعتقدون، أنه طالما لا تعرف السلام الداخلي، ولا السكون في قلبك، وطالما كينونتك ليست أشبه بأغنية، طالما النور لا

يلف جسدك، فلن يكون بمقدورك أن تكون خادماً لأحد... أنت نفسك مريض. أنت نفسك هو اليتم الذي لم يستفد من الوجود، ولم يلق أي عناية... أنت جد معوز والظلمة تسكن داخلك، فكيف ستساعد الآخرين؟ أنت نفسك غريق فكيف ستساعد غريقاً آخر؟ لا شك أنك ستكون سبب وفاته. عليك أولاً أن تتعلم السباحة جيداً ومن ثم تحاول إنقاذ الآخرين من الغرق.

أنا واضح وصريح. في البدء، كن أنانياً، واكتشف كل ما تحتويه ذاتك، تعرف إلى البهجة والغبطة، إلى كل مباهج الحياة. وهكذا فالغيرية ستصبح كظلك الذي يتبعك. يجب أن تكون تجيد الرقص. أن تكون قريباً من التسامي والألوهية. هكذا يمكنك مشاركة الآخرين بما عندك وإلا إن احتفظت بهمومك، واستمريت في تعاستك، فلا شك ستجد الموت بانتظارك.

الاقتصاد الداخلي، يختلف جداً عن الاقتصاد الخارجي، هذا روحياً. أما في الاقتصاد العادي، فكلما أعطيت، كلما جنيت القليل، أما روحياً، فكلما أعطيت، كلما ازددت كسباً. هناك تناقض كلي بين الاقتصاد الروحي والاقتصاد المتعارف عليه عالمياً.

في البدء كن ثرياً في داخل ذاتك، كن إمبراطوراً. هكذا يكون لديك الكثير لتشارك الآخرين به، وهكذا تكون تتخلى عن أنانيتك، ولن تكون لديك الرغبة بنيل مكافأة، لا الآن ولا بعدئذ، حتى ولن تطلب شكر من أعطيت. على العكس، فالجائزة الكبرى ستكون في قبول ما أعطيته، لقد ارتضى أن تسكب نورك على قلبه، وارتضى أن يصغي إلى أغانيك الصادرة من القلب.

نظرة المسيحية للغيرية، تعبر عن الغباء، على عكس نظرة الشرقيين الذين عبر تاريخهم الطويل، وجدوا أن عليك، أولاً وقبل كل شيء، الاهتمام بنفسك ومن ثم توجه اهتمامك للآخرين.

وهكذا فالغيرية ستصبح كظلك الذي يتبعك. يجب أن تكون تجيد الرقص. أن تكون قريباً من التسامي والألوهية. هكذا يمكنك مشاركة الآخرين بما عندك وإلا إن احتفظت بهمومك، واستمريت في تعاستك، فلا شك ستجد الموت بانتظارك.

يشعر السائل أنه مذنب... هكذا بكل بساطة، يشعر أنه مذنب لا لسبب، إلا لأنه اكتشف أن عليه محبة نفسه.

لقد خدعت المسيحية الملايين خلال مئات السنين، الأصوليون المسيحيون جد متعصبين، إنهم أكثر البشر تعصباً على الإطلاق. أما اليوم، فقد فَقَدَ الشرق رونقه، وهوى إلى سحيق وديان الظلمة... لم يعد كما كان أيام بوذا ومهاتيرا بل انعمس في المفاهيم المسيحية. في الهند اليوم، تركز الحكومات اهتمامها على مساعدة الفقراء وبناء المدارس والمستشفيات لهذه الفئة من السكان، وكل هذه لا تمت بصلة إلى مفاهيم بوذا، لا لأنه ضد الوقوف إلى جانب الفقراء، بل لأنه يعرف أنك لو كنت متأملاً، متفكراً، لكان بمقدورك مد يد العون.

والحقيقة، أن تعليم التأمل لا يعتبر فعل محبة، على عكس بناء مدرسة أو مستشفى... وماذا ستعلم في المدرسة، الجغرافيا؟ وماذا ستعلمهم عن الجغرافيا؟ أين نيودلهي، أين تيمبوكتو وماذا سنعلمهم عن التاريخ، ستحدثهم عن جنكيز خان، عن الإسكندر ذو القرنين عن إيفان الرهيب؟ هذه هي المحبة بنظر المسيحيين. أما أن تعلم الناس، الصمت، الهدوء الداخلي، الحب، البهجة، فهذه ليست محبة.

ثلاث مرات، كاد المهاتما غاندي أن يعلن مسيحيته، لكنه في النهاية اختار البوذية ديناً له، مع أنه مسيحي بنسبة 99 % حتى الدكتور أمبدكار الذي وضع مسودة الدستور الهندي وأتباعه كانوا

يفكرون مثلهم مثل المسيحيين. الدستور الهندي متأثر جداً بالمفاهيم المسيحية لهذا لا تجد أي تلميح للتأمل، الذي صدره الشرق إلى العالم. في الدستور الهندي نلمس انعكاس تأثير الإرساليات المسيحية ولا نلمس أي انعكاس للبوذية.

شخصياً لا أرى محبة دون تأمل، وما عدا ذلك، فهو نوع من الترهات، دعك منه... لن تكون لا أنانياً إلا إذا كنت أنانياً، ولا يمكنك مشاركة الآخرين بشيء لا تمتلك منه ما يفيض عنك، أو يكفيك وحدك على الأقل. أنت كالغيمة الماطرة، إن لم تكن مشبعة ببخار الماء، فلن يكون بمقدورها أن تشارك الأرض العطشى ماءها. قل للغيمة التي لا بخار فيها «كوني لاأنانية وامطري»، فكأنك تقول لها استديني من الآخرين.

كثيرون يأتون إلي ويقولون: «لماذا لا تبني مدرسة للفقراء أو مستشفى يعنى بالتعساء، لماذا لا توزع الثياب على المعوزين. عليك مساعدة أولئك الذين هم بحاجة للمساعدة.» غير أني مختلف مع هؤلاء كلياً. أنا أدعو الفقراء إلى تحديد النسل، سنوزع عليهم حبوب منع الحمل، وهكذا نصبح غير مهددين بانفجار سكاني... نعم أنا أختلف كلياً معهم... أنا لا أؤمن بما يؤمنون به، علينا إيجاد الفقراء واليتامى أولاً، ونفكر بكيفية مساعدتهم ثانية.

حين بدأت حياتي هذه عام 1960، كان عدد سكان الهند لا يتجاوز الأربع ماية مليون نسمة... ومنذ ذلك الحين أخذت أطالب بوضع خطة فعالة لتحديد النسل، إلا إن العقلية المسيحية المهيمنة والمسيطرة، ترفض مثل هذه الاقتراحات رفضاً باتاً. فماذا كانت

في البدء كن ثرياً في داخل ذاتك، كن إمبراطوراً. هكذا يكون لديك الكثير لتشارك الآخرين به، وهكذا تكون تتخلى عن أنانيتك، ولن تكون لديك الرغبة بنيل مكافأة، لا الآن ولا بعدئذ.

النتيجة؟ لقد أصبح عدد سكان الهند اليوم يفوق المليار نسمة، خمسون عاماً وستماية مليون نسمة... لو اتبعنا سياسة تحديد النسل، لكنا منعنا ثلاثماية مليون طفل من المجيء إلى هذا العالم ودون أن نؤثر على حميمية العلاقة بين الرجل وزوجته. ولكنا لسنا بحاجة للأم تيريزا ولا لمجيء البابا إلى الهند لينادي بالغيرية ومحبة الغير.

بالفعل، إنه عالم مجنون... يدعوك لتمرض أولاً ثم يعطيك الدواء. فلماذا لا يحاول تجنيبك المرض أولاً؟ اليوم في أندية الروتاري يضعون صناديق لجمع الأدوية؟ إنها ما يفيض عن حاجة مريض معين، وبدلاً من أن يرمى في سلة المهملات، يضعونه في هذه الصناديق، ويوزعونه على الناس، ويدعون فعل الخير واللاأنانية... لماذا لا نفكر أولاً، بكيفية جعل هذا العالم خالياً من الفقراء والمعوزين، بدلاً من الاستمرار في كيفية مساعدتهم؟

لذا أعود وأقول: كن أنانياً أولاً، إعرف نفسك، كن لنفسك ومن ثم لن تكون حياتك سوى لحظات مشاركة وتشارك مع الآخرين دون التفكير بما سيعود عليك من نفع.

بطريقة أو بأخرى، نزرع في عقل كل فرد أن عليه أن يكون مثالياً، إذ لا مكان للواقعية. وهكذا تحولت المثالية إلى مرض الإنسانية.

بطريقة أو بأخرى، نزرع في عقل كل فرد، أن عليه السعي ليكون إنساناً مرموقاً في الحياة. يرسمون لك صورة، عليك أن تكون مثلها، وهذا ما يجعلك في حالة توتر دائم. الآن، الحقيقة، أنك إنسان آخر ولا ضرورة أن تكون نسخة طبق الأصل عن إنسان ما.

وهكذا نستمر في رفض الواقعية، إكراماً للاواقعية... وهكذا أيضاً تجرك الأحلام لتخرج من حاضرك نحو مستقبل مرسوم لك.

وهكذا أيضاً، تتحول المثالية إلى كابوس ليلي. كل ما تفعله هو مرفوض، لأنك لم تنفذ ما طلب منك، ومهما حققت وأنجزت يبقى غير كاف. لأنهم كانوا يتوقعون منك أشياء يصعب تحقيقها.

قوة الحب الشفائية

أنت كائن بشري، تعيش في زمن معين، في مساحة معينة، وضمن حدود. تقبل هذه المحدودية. الكمال من أفكار المجانين. إنهم بشر مهووسون، مسكونون بالهواجس، لا يقتنعون بأي أمر يفعلونه ما لم يلامس حدود الكمال، وليس هناك من طريقة تساعدك على فعل ذلك. الإنسان غير قادر على بلوغ الكمال. في الواقع، ارتضِ بما تفعله، ولو كان غير تام.

إذاً لماذا أنا هنا؟ أنا هنا لا لأعلمك القداسة، بل التمام وهنا يكمن الفرق الكبير. كن تاماً، كن كاملاً، لا تفكر بالقداسة، وحين أقول التمام أو الكمال، أكون أعني الواقع، أعني الحقيقة. كل ما تريد فعله، إفعله بكليته. قد تكون النتيجة غير مرضية، ليس هماً، فعدم الرضا سيكون نوعاً من الجمال، سيكون معبراً عن كليتك. لا تحاول أبداً أن تكون الكامل المنزه. وإلا تكون تخلق القلق والأرق، ولا أعتقد أنك بحاجة للمزيد من المشاكل في حياتك.

روى أحدهم على مسمعي أن رجلاً مبلل الثياب كان في أحد القطارات وعلى ركبتيه طفل بحدود الثالثة من عمره، ومن حين لآخر كان الرجل يصفع الطفل على قفاه.

فإذ بامرأة تجلس قبالته تقول «إن صفعت هذا الطفل بعد، ولو مرة واحدة، سأتسبب لك بمشاكل لن تنساها مدى حياتك».

«مشاكل»، قال الرجل «أنت ستتسببين لي بمشاكل؟ اسمعي يا سيدتي، شريكي خطف زوجتي وسيارتي، ابنتي حامل وهي ما تزال عزباء، فقدت حقائبي، صعدت إلى القطار غير القطار الذي يوصلني إلى حيث أريد، وهذا الطفل مزق بطاقة السفر ورماها من النافذة. أوبعد هذا، ستتسببين لي بمشاكل؟».

«أية مشاكل؟ أما يكفي ما أنا فيه؟».

الحياة كلها تعب ومعقدة. أرجوك كن رحوماً مع ذاتك، لا تفكر بالمثاليات. الحياة مصدر متاعب كثيرة، إنما يمكن حلها. إن صعدت إلى القطار الخطأ، فيمكنك النزول منه، والركوب في القطار الصح. إذا فقدت بطاقة السفر، فيمكنك شراء بطاقة جديدة، إذا زوجتك هربت مع رجل آخر، فهناك نساء كثيرات غيرها. مشاكل الحياة يمكن حلها، أما تلك التي يخلقها المثاليون، فيستحيل عليك إيجاد حلول لها.

يحاول البعض أن يكون المسيح. هذا مستحيل، فالطبيعة لن تسمح له بذلك. المسيح جاء مرة، مرة واحدة. ولن تنجب الخليقة مسيحاً ثانياً. كذلك، هناك من يحاول أن يكون بوذا... وهذا مستحيل أيضاً، إنه ضد الحياة وضد الطبيعة. بمقدورك أن تكون نفسك فقط. إذاً كن كاملاً، أينما كنت ومهما فعلت، إفعله بحب، دعه يكون تأملك. لا تقلق إن كان رائعاً أم لا، فلا ضرورة أن يكون رائعاً. التمام يكفي، إن كان كذلك فستفرح به، ستشعر أنك فعلت شيئاً بحب، شيئاً عبر عنك وهكذا تبقى في ريعان الشباب.

كل عمل ينفذ بكليته هو تجديد للشباب، وكل عمل ينفذ بكليته لن يكون بمثابة قيد. يصعب بزوغ الحب الكلي وملحقاته، أما بعض

الحب فيبزغ. عش حياتك بكليتها، ولن تخاف الموت، عش حياتك بجزئياتها، فلا شك أنت خائف من الموت.

عليك التأكد أن ما من أحد «خالٍ من العيب» هذا تعبير يجب شطبه من جميع لغات العالم وعقول البشر، ما من أحد خال من العيب وما من أحد سيكون كذلك، يستحيل أن يبلغ المرء مرحلة الكمال الكلي. العيوب في كل شيء، حتى في خلق الله، أما ترى ذلك؟ ولهذا السبب يختبئ البعض، لأنه يخاف من مواجهة أخطاء، أخطاء، وأخطاء. هل بمقدورك أن تحصى كم من الأخطاء ارتكبت؟ إني لعلى يقين أنك لن تقدر على هذا. في الواقع، لو أنك باحث عن الأخطاء، لما وجدت شيئاً غير الخطأ، قد يكون هناك شيء صح، لكنه وجد في الزمن الخطأ، أو في المكان الخطأ. كل شيء هو أشبه بخبيصة.

حتى الله، ليس كاملاً كل الكمال... إنه الكمال، يتمتع بما يفعل ويستمر في الفعل، لكنه ليس كاملاً كلياً، فلو كان كذلك، فلماذا مخلوقاته ليست كاملة، أوليسوا هم على صورته ومثاله؟ الكمال الكلي، لا يأتي إلا من الكمال الكلي.

تشدد كل الديانات على أن الله، هو أسمى الكمال، أما أنا فلا أرى ذلك، إنه الكمال، إنه مقدس، لكنه ليس بالغ الكمال. لو كان كذلك، لكان قضي على البشر، لأن البشر يحاولون جاهدين للوصول إلى مرحلة الكمال الكلي، ومتى وصلوا إليه، تنتفي الحاجة إلى البقاء. ولكن ها هم الأطفال يولدون، والأشجار

كن تاماً، كن كاملاً، لا تفكر بالقداسة، وحين أقول التمام أو الكمال، أكون أعني الواقع، أعني الحقيقة. كل ما تريد فعله، إفعله بكليته. قد تكون النتيجة غير مرضية، ليس هماً، فعدم الرضا سيكون نوعاً من الجمال، سيكون معبراً عن كليتك.

تنبت، وكل يسعى إلى تحسين نوعه، هذا يعني التطور. لقد تطورت القردة حين أصبحت إنساناً، ومن يدري فقد يستمر الإنسان في تطوره للوصول إلى مرحلة الخلود، إلى مرحلة يصبح فيها الله بحد ذاته... هذا هو النشوء والتطور.

يقول تيلهارد دي شاردان إن كل شيء يصل إلى نقطة نهايته، حين يصل مرحلة الكمال الكلي، إنما الحقيقة هي العكس. لا وجود لنقطة نهاية. العالم يتابع مسيرة تطوره، إننا نتقدم ونتقدم، إنما حتى الآن، لم نصل، لأنه متى وصلنا إلى مبتغانا، ينتهي كل شيء، وسيحاول الله إيجاد طرق جديدة للتطور.

هناك أمر متفق عليه، إنه سعيد في عمله، وإلا لكان توقف عن العمل. ما يزال يصب طاقته فيه. ومتى كان الله سعيداً بك. فمن الغرابة ألا تكون أنت سعيداً بنفسك. كن مسروراً بذاتك، دع السعادة هدفك الأسمى. مهما فعلت، كن سعيداً، هذا كل شيء، إنما إياك التفكير بالنتيجة.

لماذا هذا الهوس بالكمال الكلي؟ لم يؤدِ إلا إلى القلق والتوتر والانفعال، الاضطراب النفسي. الكلمة الإنكليزية Agony ـ الكرب ـ مشتقة من الجذر أن تكون في صراع To be in conflict أن تكون تصارع ذاتك هذا هو الكرب، ستبقى تعاني الكرب، طالما أنت غير متصالح مع نفسك... لا تطلب المستحيل، كن طبيعياً، أحبب نفسك... وأحب الآخرين.

عليك معرفة أن من ليس بمقدوره أن يحب نفسه، لأنه يكره نفسه، فليس بمقدوره أن يحب إنساناً آخر. الرجل الذي لا يحسن التعامل مع ذاته، يصعب عليه التعامل مع الآخرين. إنه يطلب المستحيل.

المهاتما غاندي، كان إنسان مميزاً، لكنه كان لا يعرف كيف يتعامل

مع أتباعه الذين كان ممنوعاً عليهم شرب الشاي. ولماذا؟ لأنها تحتوي مادة الكافايين... شرب الشاي صار خطيئة، حتى الحب كان محرماً، صار خطيئة قد تدمر العالم كله. كان يتجسس دائماً على تلاميذه، من خلال ثقب مفتاح الباب. فإن كان هكذا كان يتعامل مع نفسه، فكيف مع الآخرين؟

مثل هؤلاء البشر يصبحون قادة عظماء، لأنهم يجعلون الآخرين مهمشين محركين. كلما أقنعت الناس أن هناك الكثير من المجرمين، كلما ازدادت فرصك للوصول إلى القيادة، إلى زعامة الذين صاروا يتوهمون أنك قادر على مساعدتهم للوصول إلى الكمال. إنهم بشر عاديون، عيوبهم كثيرة، وأنت الوحيد القادر على تنقية حياتهم من العيوب.

أنا هنا لا لمساعدتك للوصول إلى الكمال، بل لمساعدتك لتكون ذاتك. إن كنت غير كامل، فهذا رائع، وإن كنت كاملاً فهذا أروع، في الحالتين، أنت إنسان رائع.

كذلك لا تحاول أن تكون غير كامل. لأنك حتى في هذه الحالة مثالياً... قد تكون مثالياً... غير أن إصغائك لي قد يولد لك المتاعب والمشاكل «قال لي هذا الرجل ألا أكون كاملاً». لا حاجة لذلك، عليك تقبل نفسك كما أنت.

حاول أن تحب نفسك... إياك أن تحقد عليها، في اللحظة التي تبدأ الإنسانية فيها، تقبل بعضها البعض. ستقفل كل الكنائس أبوابها، ولن يعود هناك سياسيون ولا كهنة.

سمعت الحكاية التالية.

كان صياد سمك يجلس قرب موقد النار، إلى جانب دليله الذي أخبره عن رحلة صيد سمك برفقة هاري إيرسون فوسديك.

حاول أن تحب نفسك... إياك أن تحقد عليها، في اللحظة التي تبدأ الإنسانية فيها، تقبل بعضها البعض. ستقفل كل الكنائس أبوابها، ولن يعود هناك سياسيون ولا كهنة.

نعم... قال المرشد... كان رجلاً طيباً لكنه كان يحنث بيمينه.

إنما إنتبه، قال صياد السمك، «إني لعلى يقين أنك تعني أنه كان مجدفاً».

لقد كان كذلك يا سيدي... كان كلما يصطاد سمكة، كانت السمكة تفلت من السنارة وتعود إلى البحر، فقلت له: «إنها لعنة حلّت» فما كان منه إلا أن أجابني «إنها لكذلك». إنما هذه هي المرة الوحيدة التي سمعته يتحدث فيها بمثل هذه اللغة.

إنها العقلية المثالية. لم يقل هاري فوسديك سوى «نعم إنه لكذلك». وهذا ما اعتبره المثاليون خطأ.

أرجوك لا تكن مثالياً ولا تجالس مثالياً. ابتعد عنه بقدر ما تستطيع، وإلا سيشوش تفكيرك. إنهم كلهم متعصبون لأفكارهم، أنانيون وغير متواضعين. المتواضع هو من يتقبل الحياة كما هي، حتى ولو لم تكن مثالية ويتقبل فكرة أن لقدراتنا حدوداً.

هذا هو طريقي للتواضع، لا تحاول بلوغ الكمال، هكذا تصبح متواضعاً، المتواضع سيصبح أكثر شمولية؛ أكثر تفهماً لا يرفض شيئاً ولا يتنكر لشيء. يتقبل كل شيء، الحسن والعاطل، إنه ثري جداً، فهو يتعامل مع الغضب، مع الجشع ومع كل شيء. وهذا ما يحدث تغيراً رائعاً في داخله.

أنا لا أحبذ القديسين، غير أني أقدر القداسة. القديس مثالي متحجر. رهبان الزن مقدسون إنما ليسوا قديسين كما قديسو الطوائف الكاثوليكية. كلمة قديس بحد ذاتها كلمة غير مستحبة،

إنها تعني أنك أعطيت حق منع غفران الذنوب للآخرين. اليوم، من هو الذي يعطي مثل هذا الحق؟ من هو القادر على تسمية أي أحد قديساً. إنها بمثابة الإجازة الجامعية... غير أن الكنيسة ما تزال تطوب القديسين، حتى بعد وفاتهم بمئات السنين... تغير العالم خلالها، كل شيء تغير، لم يبق شيء على حاله، وبالرغم من هذا تصدر الكنيسة تعميماً تعترف به أن كلانا كان قديساً.. قد تكون الكنيسة هي التي قتلته، ومن ثم وبعد مئات السنين تعود وتعلنه قديساً. هذا الذي حصل مع جاندارك التي قتلت بأمر من الكنيسة، غير أن تعاطف الشعب معها وازدياد هذا التعاطف يوماً بعد يوم، أجبر الكنيسة على تغيير رأيها وإعلانها قديسة. في البدء أعدمتها، وبعد مئات الأعوام قدستها، بعد مئات الأعوام فتح قبرها ونقلت عظامها. الكنيسة ذاتها أمرت بإعدامها حرقاً، والكنيسة ذاتها، إنما بعد مئات السنين عادت وأعلنتها قديسة. القديس كلمة غير مستحبة أما الإنسان المقدس، فهو مقدس من ذاته، وليس بناء لأمر من الكنيسة.

وحده الحنان هو الدواء

كل أمراض الجنس البشري هي بسبب نقص الحب. وكل أخطاء الإنسان قد تكون بسبب الحب، إنه غير قادر على أن يحب، أو أن يُحب. إنه غير قادر على مشاركة كينونته. هذه هي التعاسة، وهذه هي الأسباب التي تخلق كل أنواع التعقيدات في داخل الذات.

إن الجراح الداخلي قد تطفو إلى السطح، بطريقة أو بأخرى، قد تتسبب بأمراض جسدية أو باختلال عقلي. أما أعماق الذات البشرية فتتعذب بسبب نقص الحب. كما الطعام ضروري لغذاء الجسد، فالحب ضروري لغذاء الروح، الجسد يستحيل أن يستمر حياً بدون طعام، والروح يستحيل عليها البقاء حية بدون حب، وفي

الواقع، لولا الحب لما ولدت الروح.

بكل بساطة أنت تعتقد أن لك روحاً، تعتقد ذلك بسبب خوفك من الموت، ولكنك لا تعرف هذا إلا بعد الإحساس بالحب. وحده الحب يجعل الإنسان يشعر أنه أكثر من جسد، أكثر من عقل.

وحده الحنان هو الدواء. ما هو الحنان؟ إنه أنقى أنواع الحب. الجنس أدنى درجات الحب، والحنان هو أعلى درجات الحب. الجنس هو علاقة جسدية، الحنان هو علاقة روحية، وفي الحب يمتزج الإثنان: الحنان والجنس، الجسدي والروحي. الحب هو منتصف الطريق بين الجنس والحنان.

كذلك يمكنك القول الحنان هو التأمل، وهو أسمى أنواع الطاقة.

في الجنس أنت تستغل الآخر، تجعله مجرد وسيلة، تجعله شيئاً، ولهذا السبب تعتبر ممارسة الجنس ذنباً. وهذا الذنب هو ذنب لا يغتفر دينياً. كل ذلك بسبب تحويلك كائن بشري إلى مجرد شيء، إلى سلعة تستهلك ومن ثم ترمى.

ولهذا السبب أيضاً، تشعر وأنت تمارس الجنس، أنك مقيد، لأنك، حتى أنت، تحولت إلى مجرد شيء، وحين تصبح شيئاً تختفي حريتك.، الحرية تتواجد فقط، حيث يوجد الإنسان. وكلما أحسست إنسانيتك، أحسست أنك حر أكثر، وكلما أصبحت شيئاً، كلما فقدت تلك الحرية.

الأثاث في منزلك ليس حراً. لو تركت غرفتك ليوم أو يومين أو لسنوات، فالأثاث سيبقى في مكانه، ستجده كما تركته لأنه ليس حراً. بينما إذا تركت إنساناً في الغرفة ذاتها، لا ليوم ولا حتى لساعة واحدة، أو للحظات، فلن تجده، في المكان ذاته الذي تركته إذ ليس بمقدورك أن تلتقي الإنسان ذاته مرتين. لهذا يقول هيراقليطوس:

«ليس بمقدورك عبور ذات النهر مرتين.» من المستحيل أن تلتقي الإنسان ذاته مرتين. فالإنسان دائم التغير، إنه كالنهر دائم الجريان، وأنت لا تدري ما الذي سيحدث، فالمستقبل قابل لكل الاحتمالات.

بالنسبة للشيء، لا مستقبل... فالصخرة ستبقى صخرة، ليس عندها أية إمكانية للنمو أو للتغير. بينما الكائن البشري لا يبقى هو ذاته. قد يمشي، قد يهوي، قد يذهب إلى الجحيم، قد يذهب إلى الجنة، لكنه لن يبقى هو ذاته. إنه دائم الحركة والتغير.

حين تمارس الحب مع أحد، فأنت تحول هذا الأحد إلى شيء، وبتحويلك للآخر، تكون تحول نفسك إلى شيء، هكذا تقضي التسوية بينكما «بأني أسمح لك بتحويلي إلى شيء، وأنت تسمح لي بتحويلك إلى شيء. أنا أسمح لك باستغلالي، وأنت تسمح لي باستغلالك. إننا نستغل بعضنا، وكلانا يصبح شيئاً».

راقب عاشقين، لم يتزوجا بعد، ولاحظ كيف كل منهما ينظر إلى الآخر باشتياق، بلهفة، ولاحظ أيضاً أنهما ينبضان بالحياة مفعمان بالحيوية، مستعدان لاكتشاف المجهول، ثم راقب إثنين متزوجين فلا شك سترى اثنين أشبه بالموتى، يجلسان جنباً إلى جنب، إنما ليس هناك نظرات اشتياق، ولا ابتسامات فرح. يساعدان بعضهما للبقاء موتى غير مدفونين، كل يجبر الآخر ليبقى ميتاً. هذه هي مشكلة الزواج المستمرة منذ دهور. ما من أحد يريد أن يتحول إلى شيء.

الجنس هو أدنى أشكال الطاقة **X**. إذا كنا متدينين نسميها «الورع أو الألوهة» أما إذا كنا علميين، فنسميها **X**. هذه الطاقة **X** يمكن أن تتحول إلى حب، وحين تتحول إلى حب، تبدأ انت بإبداء الاحترام للشخص الآخر. لا تنكر، أنك تستغله أحياناً. لكنك تشعر أن عليك شكره وأنك مدين له بالامتنان. أنت لا تقول ـ أبداً، شكراً

للشيء، بينما تقولها لإنسان. حين تكون على علاقة حب مع امرأة، ومارست الحب معها، تقول لها شكراً. إنما، هل تفعل ذلك حين تمارس الحب مع زوجتك؟ لا... ولا هي تفعل ذلك... لماذا؟ لربما حصل هذا، إن كنت ما تزال تتذكر، منذ سنوات عدة، يوم كنتما ما تزالان عازبين، أما بعد الزواج، فهل قالت لك شكراً ولو لمرة واحدة على شيء فعلته؟ لقد فعلت الكثير من أجلها، وهي كذلك. إنما دون أن يقول أحدكما للآخر شكراً... لا أحد منكما يشعر بالامتنان تجاه الآخر.

في الحب، الامتنان واجب، لا بل يجب أن يكون عرفان بالجميل، في الحب، الآخر ليس شيئاً، بل هو إنسان، هو روح، هو ذات. يعطيك، إنها علاقة تبادلية، إنما باحترام، أما في الجنس، فهي علاقة تبادلية أيضاً، إنما دون احترام.

الحنان يعني أنك تعطي، بدون التفكير، ولا بأي شكل من الأشكال، أنك ستأخذ مقابل ما أعطيت، وكن على ثقة أنك ستكسب أكثر مما أعطيت.

حتى في الحب، تشعر في قرارة نفسك أنك ستنال شيئاً مقابل ما تعطي، وإن لم يحصل ذلك، تشعر بشيء من الأسى. قد لا تقول شيئاً. إنما بطريقة أو بأخرى، ستستنتج أنك متذمر وأنك خدعت. الحب يبدو وكأنه صفقة، إنما بطريقة مهذبة.

في الحب، تكون شاكراً لأن أحداً قدم لك شيئاً، أما في العطاء فأنت تشكر من قبل أن يأخذ منك، ولم يرفض ما قدمته له. فعلت ذلك وأنت بكامل طاقتك، فعلت ذلك وأنت تحمل بضعة أزهار لتقدمها وقبل الآخر هديتك بكل احترام. إذاً عليك شكره لأنه تقبل هديتك.

العطاء هو قمة أشكال الحب... الكثير سيعود إليك... ليس هنا

بيت القصيد. فأنت لست قلقاً، ولن تتذمر، إنما ستكون مفاجأة حين تعطى مقابل ما أعطيت، وبالطريقة ذاتها... وإن لم يحصل، فلا تتذمر أبداً، فأنت لم تعط قلبك لأحد كجزء من صفقة. كل ما فعلته أنك أعطيت مما لديك الكثير منه، ولو لم تفعل، تحول عبئاً ثقيلاً تماماً، كما الغيمة المشبعة بالبخار. ستأتي ساعة يتحول البخار إلى ماء ويهطل المطر، وحين يهطل ستمتصه الأرض العطشى. اصغ إلى ما ستقوله الغيمة للأرض «شكراً... لقد خففت عن كاهلي عبئاً ثقيلاً».

حين تنفتح الوردة، ينبعث عطرها، فتحمله الريح... إنه أمر طبيعي أن يحدث هذا، أن تحمله الريح، لم ينبعث العطر بموجب صفقة، بل انبعث لأنه من الطبيعي أن ينبعث. الوردة مشبعة بالعطر، فما العمل؟ لو احتفظت به لنفسها ستصاب بالتوتر، وبألم لا يحتمل. الألم الأعظم في الحياة، هو في عدم القدرة على التعبير والتواصل مع الآخرين، وبعدم المشاركة. الإنسان الفقير لا يملك شيئاً يتقاسمه مع الناس أو هو من يملك شيئاً، لكنه يفتقد إلى القدرة، إلى كيفية المشاركة. إذاً هو إنسان معدم.

الرجل المهووس بالجنس هو جد فقير، أما المحب فهو ثري، أما المعطاء فهو الأغنى... إنه الإنسان الذي لا حدود له... بكل بساطة إنه يعطي ويمضي في طريقه، حتى أنه لا ينتظر سماع كلمة شكراً. بحب رائع شارك الآخرين طاقته.

هذا هو ما أسميه الدواء أو العلاج.

يعتقد المسيحيون أن المسيح فعل عجائب عدة. أنا لا أؤمن بذلك. المعجزة الكبرى كانت العطاء... وكل ما حصل، حصل من دون أن يفعل أي شيء، بدون أن يبذل مجهوداً. كان الناس يأتون إليه

وهو كان أشبه ببركة طاقة هائلة. وكل من كان مستعداً لمشاركته هذه الطاقة، فعل.

المعجزات حدثت؟! كان مداوياً، كان واحداً من أعظم المعالجين عرفتهم الإنسانية. كذلك كان بوذا ومهاتيرا وكريشنا، إنما بطريقة مختلفة. نعم لم تسمع ولم تقرأ أن بوذا شفى مريضاً أو أعاد النظر إلى أعمى أو أحيا ميتاً... ستتفاجأ... هل كان حنان المسيح أعظم من حنان بوذا؟ ما الذي حدث؟ لماذا لم يقصد الناس بوذا بهدف الشفاء؟ ليس هذا هو السؤال. بوذا استغل حنانه وعطاءه في مجالات أخرى. كان لديه مستمعون يختلفون عن أولئك الذين كانوا يستمعون للمسيح، وكذلك كل من حوله.

كلما أذهب إلى الغرب، يتهافت الناس علي، وما من أحد جاء يشكو علة في جسده، لا وجع رأس، ولا ألم معدة أو أي شيء من هذا القبيل، على عكس الهنود أبناء بلدي.

ودائماً كنت أتساءل لماذا؟ ما الذي حدث في الهند؟ لماذا يأتي الهنود لمشاكل جسدية؟ أما من مشاكل أخرى تعترض طريقهم؟ البلاد الفقيرة، الجد فقيرة، تعاني من المشاكل المادية أما البلاد الغنية، كبلاد الغرب، فتعاني من المشاكل الروحية.

كانت الهند، أيام بوذا، تمر في عصرها الذهبي تتربع على قمة المجد، ثرية جداً، في الوقت الذي كان العالم يعاني من الفقر. لذا كان الناس يقصدون بوذا للاستشارة الروحية لم تكن لديهم مشاكل جسدية أو مادية، بل روحية.

الحنان يعني أنك تعطي، بدون التفكير، ولا بأي شكل من الأشكال، أنك ستأخذ مقابل ما أعطيت.

في المقابل، ولد المسيح وعاش في بلاد فقيرة، الكل يجري وراء لقمة عيشه. لذا فمشاكل هؤلاء القوم، كانت جسدية مادية وليست روحية. الأمراض الروحية هي

أمراض طبقة الأثرياء، أما الفقراء، فأمراضهم جسدية مادية.

زارني قريب لي وأمضى شهراً في ضيافتي. كان إنساناً متأملاً، لذا توقعت منه أسئلة روحية، غير أن توقعاتي لم تكن في محلها، قبل مغادرته بيوم أو يومين تقدم مني وقال: أوشو ابني لا يجني الكثير من المال... شهر بكامله أمضاه في ضيافتي يصغي إلى أقوالي ومحاضراتي، وكان هذا سؤاله الوحيد «أوشو ساعدني ابني لا يجني الكثير من المال، إنه يعمل سائق سيارة أجرة وسيارته كثيرة الأعطال... إفعل شيئاً يا أوشو».

أنا لست ميكانيكي سيارات لذا قلت له: بع هذه السيارة واشترِ بدلاً منها.

فقال: المشكلة أن ما من أحد يرغب في شرائها، فافعل شيئاً يا أوشو.

مشاكل الفقراء متأتية من اختلاطهم بالعالم، ومشاكل الأثرياء فسببها عدم الاختلاط بالناس... وحدهم الأثرياء يعانون أمراضاً روحية، أما الفقراء فأجسادهم هي التي تمرض.

أنا لا أقول، إن للفقراء شخصية إنسانية، إذ حتى الفقراء قد يعانون من مشاكل روحية، إنما هذا استثناء، لأنه كمبدأ عام للفقراء هموم دنيوية: المال، الطبابة، المنازل، السيارات...

عاش المسيح بين الفقراء الذين كانوا يبحثون عن حلول لمشاكلهم الذاتية. كثيرون هم من نالوا المساعدة، إنما ليس المسيح هو من قدم لهم المساعدة، فالمسيح كان يردد دائماً «يمانكم هو الذي خلصكم» الإيمان يسمح للرحمة أن تستوطن ذاتك، وحين تكون مؤمناً تكون قادراً على تفهم معنى الحنان، معنى العطاء. وبوذا ومهاتيرا، عملا عجائب عدة، إنما عجائب ليس بمقدور أحد أن يراها إلا من حصلت له.

هؤلاء؛ المسيح، بوذا، مهاتيرا، كان كل يعالج فئة معينة من الناس. أما الحنان، فهو علاج للجميع، دون التمييز بين طبقة شعبية وأخرى، إنه يساعد، إنه يجعل الحب تقياً طاهراً، وهكذا يصبح المرء يعطي دون السؤال عن ردود عطائه.

كان بوذا يردد على مسمع تلاميذه. «بعد الانتهاء من التأمل، كونوا معطائين، وفوراً. ذلك لأن التأمل يعطيك فائضاً من الحب، ويجعل قلبك مملوءاً بالطاقة، إذاً، وبعد كل تأمل، شارك العالم كله بحبك وحرر ما اختزنت من طاقة، أطلقها في الفضاء حتى يستفيد منها الآخرون».

وأنا كذلك، أطالبك أن تفعل ذلك. بعد كل تأمل، دع طاقتك تنطلق منك لتساعد الناس، أينما كانوا، وبالطريقة التي يرتأونها. هكذا تكون قد خففت من أثقالك، وشعرت بالراحة، بالهدوء والسكينة. واعلم أن الذبذبات التي صدرت عنك، لن تذهب سدى، بل ستساعد كثيرين غيرك. إذاً عليك إنهاء تأملك بالعطاء، العطاء غير المشروط، غير الموجه لفئة محددة دون أخرى، العطاء للجميع، سواء كانوا أصدقاء لك أم لا، سواء كانوا من أفراد عائلتك أم لا.

جاء رجل صيني إلى بودهيدهارما وقال: إني أتبع جميع تقنياتك ومستوعب لما تعلم. ما إن أنتهي من التأمل حتى أشعر بالرغبة بالعطاء للجميع دون استثناء، للعالم كله، أشعر أني متعاطف مع الجميع، باستثناء جاري... فهل يحق لي أن أفعل هذا؟ أعطي العالم كله الذي أعرفه والذي لا أعرف. إنما هل تسمح لي باستثناء جاري؟ إنه رجل عنيد صعب المراس، ولا يمكنني التعاطف معه؟

فما كان من بودهيدهارما، إلا أن أجاب: «إذاً، إنس التأمل وانس كل ما علمتك إياه، لأن التأمل لا يستثني أحداً».

العطاء هو فعل شمولي، لا استثناءات فيه، ولا يحق لك استثناء جارك في العطاء. لا امتيازات لأحد تفوق امتيازات أحد آخر. كن معطاء بدون شروط ودون استثناءات، هكذا تصبح قوة شفافية في هذا العالم الذي يعاني من البؤس.

المسيح قال «أحبب قريبك كنفسك. أحبب أعداءك كنفسك».

ماذا يعني هذا؟

بكل بساطة، يعني، أن العطاء هو شامل، لا يستثني جارك أو عدوك، وكما تحب نفسك، عليك أن تحب الناس كلهم، لأنه وكتحليل نهائي في هذا العالم هو أنت، الذي ينعكس وجهه على مرايا متعددة... إنه أنت، غير منفصل عنك. جارك هو شكل من أشكالك، وكذلك عدوك. وإن كنت تستثني أحداً، لأنه قد تكون غير قادر على رؤية نفسك من خلال الآخرين وهذا يعني أن عينيك لا تريان الحقيقة أو أن هناك خللاً بهما.

الحنان هو علاج... وحتى تكون حنوناً، عليك أولاً، أن تعرف كيف تتعامل مع نفسك، فإن كنت عاجزاً عن أن تحب نفسك فهذا يعني، ليس بمقدورك أبداً أن تحب أحداً آخر... إن لم تكن رؤوفاً بنفسك فكيف سترأف بالآخرين؟

كما تكون مع نفسك، هكذا تكون مع الآخرين. إن كنت تكره نفسك، فلا شك ستكره الآخرين، وقد يكون ذلك لعدم وجود من أوصاك بضرورة حب نفسك. إن قال لك «أحبب نفسك» كلنا بحاجة للحب، غير أن الحب عملية تبادلية، وإن لم تكن تعي كيف تحب نفسك فكيف ستعي كيف تحب الآخرين؟ وكيف يشعرون بحبك؟

منذ صغرك وهم يعلمونك أن تحب الآخرين، أن تتناسى ذاتك،

كن معطاء بدون شروط ودون استثناءات، هكذا تصبح قوة شفافية في هذا العالم الذي يعاني من البؤس.

ولطالما رددوا على مسمعك: عليك أن تفعل كذا... عليك ألا تفعل كذا... عليك... عليك دون دراية أن هذا الذي يطلب منك، يصعب عليك، إن لم يكن مستحيلاً تنفيذه وإن لم تتمكن فالويل لك، تنعت بالعاجز، وتتهم بعدم الجدارة. وهكذا تكون نفسك بدلاً من أن تحبها.

كيف بمقدورك أن تحب الآخرين، وأنت مشبع بالحقد؟ وأين ستجد الحب؟ إذاً ما عليك إلا الادعاء بحب الآخرين، بينما في قرارة نفسك أنت لا تحب أحداً وحتى أنك لا تحب نفسك لكن الادعاء شيء والفعل شيء آخر.

إدعاء الحب، قد يتحول إلى لعنة تحل على رؤوس الجميع. الأب يدعي حب ابنه، والابن يدعي حب أبيه، الأم تدعي حب ابنتها والإبنة تدعي حب أمها. الكل... الكل يدعي الحب، وما من مؤشرات إلى وجود حب إلا في الأحاديث والأقاويل ولذا يكثر الشعراء بنظم القصائد المتعلقة بالحب، واعتقد البشر الأخذ بتلك القصائد، وصدق بعض لا يستهان به. إننا نحب، وكأننا لا ندري، أننا نتحدث دائماً عما نفتقده في الحياة، نعبر عنه في قصائدنا، في أفلامنا السينمائية. في حين لا وجود مطلقاً للحب... لأننا منذ البدء، لم نتعلم كيف نحب.

في البدء، عليك تقبل ذاتك كما هي، لا تفكر بأي قول «أنه عليك»، لا تختزن أية توقعات في قلبك. أنت لست إنساناً آخر، وغير متوقع منك القيام بعمل سيء هو ليس لك... أنت عليك أن تكون نفسك. استرخ... كن نفسك فقط، احترم فرديتك، وكن شجاعاً في إثبات وجودك، ولا تكن صورة طبق الأصل عن الآخرين.

ليس متوقعاً منك أن تصبح المسيح أو بوذا... كل ما هو متوقع منك هو أن تكون ذاتك. أن تكون أنت، أنت. لم يحاول المسيح أن يكون إبراهيم جديداً، ولا موسى ثانياً، ولهذا بقي المسيح هو المسيح، وكذلك بوذا، لم يحاول أن يكون أحداً غير بوذا.

حين لا تحاول أن تكون أي إنسان آخر، ساعتئذ تستريح، وتحل عليك النعمة الإلهية، وتصبح مشبعاً بالجلال والعظمة، متناغماً مع ذاتك إذ لن تعود بحاجة للصراع مع شيء آخر، ولن يكون لديك ما تقاتل من أجله، ولا شيء يجبرك على فعل شيء. أنت نموذج النقاء والبراءة، التي من خلالها تشعر بالحنان والحب نحو ذاتك. ستشعر بالسعادة وأنت مع نفسك، لدرجة أنه لو جاء الله وطرق بابك ليسألك «هل تريد أن تصبح شخصاً آخر؟» سترد عليه «أجننت؟ إني جد مقتنع بما أنا عليه، ولا تحاول طرح مثل هذا السؤال علي مرة أخرى. أنا جد ممتن لما أنا فيه» هذا يعني ـ عند الشرقيين ـ أنك وصلت إلى نقطة الثقة بالنفس، وأنك تقبلت نفسك. ومن خلال تقبلك لنفسك، تتقبل الوجود ككل.

تنكرك لذاتك، يعني تنكرك للوجود الذي أوجدك. وحين تقول «أريد أن أكون كهذا أو ذاك»، تكون كمن يحاول تجاوز الوجود وتتخطى صلاحياته. إنك تتهمه بارتكاب خطأ فادح «أنا أريد أن أكون كهذا، وأنت خلقتني كذاك.» وكأنك تحاول القيام بما لم يقم هو به، وهذا ليس ممكناً. إنك تهدر طاقتك في سبيل شيء لن تحصل عليه أبداً. إنك تقوم بفعل محكوم عليه ـ سلفاً ـ بالفشل.

وكلما أصابك الفشل مرة تلو أخرى، كلما أزداد الحقد في قلبك، وكلما فشلت، كلما شعرت بالإهانة، كلما فشلت، كلما أحسست أنك إنسان واهن. وأي حب وحنان، أية رغبة بالعطاء، بعد هذا؟

تتفتح الوردة تلقائياً، وتلقائياً تنفث العطر. تفعل ذلك لسبب بسيط، لأنها لم تحاول أن تكون زهرة اللوتس. هذه هي حال جميع أنواع الورود والأزهار والنبات، ما من نوع يحاول أن يكون نوعاً آخر، إنه متقبل ذاته كما هو، ولهذا يبقى على لونه الخاص، وعطره الخاص.

ما عليك إلا أن تكون أنت «كن نفسك»، وتذكر أنه يستحيل عليك أن تكون أي شيء آخر... كل جهودك ستذهب سدى. ما عليك إلا أن تكون أنت ذاتك.

أمامك وسيلتان، أولاً يمكنك أن ترفض ما أنت عليه، لكنك ستبقى أنت أنت. يمكنك أن تحقد على ما أنت فيه، لكنك ستبقى أنت أنت. أما ثانياً، فهي أن تتقبل ذاتك كما هي وهكذا تشعر بالغبطة والسعادة، وتبقى أنت ذاتك. قد تحاول تغيير الأساليب التي من الممكن التي تجعل منك إنساناً آخر، لكنك ستبقى أنت أنت... وحين تقتنع بضرورة تقبلك لذاتك، يغمرك الحنان والحب، ومن ثم تبدأ بتقبل الآخرين.

كيف تلاحظ ذلك؟ إنه لمن الصعب أن تعيش مع قديس، جد صعب ويمكنك العيش مع الخطأة، ولا يمكنك العيش مع القديسين. فالقديس، سيهزأ منك باستمرار، بنظراته، بطريقة حديثه معك، القديس لا يتحدث إليك، بل يتحدث عنك. إنه لا ينظر إليك، بل إلى الصورة التي في مخيلته، إلى الصورة المثال التي تضع غشاوة على عينيه. إنه لا يراك، وإن رآك فيقارن بينك وبين المثال الذي في رأسه، ولا شك لن تكون على مستوى مثاله، وهكذا يجعلك مخطئاً، يستحيل العيش مع قديس، إنه يرفض ذاته، فكيف سيتقبل أي إنسان آخر؟

برأيي، الإنسان القديس هو من يتقبل نفسه، لأنه في تقبله لنفسه،

كلما أصابك الفشل مرة تلو أخرى، كلما أزداد الحقد في قلبك، وكلما فشلت، كلما شعرت بالإهانة، كلما فشلت، كلما أحسست أنك إنسان واهن. وأي حب وحنان، أية رغبة بالعطاء، بعد هذا؟

يكون يتقبل العالم كله، بالنسبة لي، الحالة الفكرية هذه، هي حالة القداسية، حالة تقبل كل شيء. وهذا هو الشفاء بالعلاج... وجودك مع إنسان آخر، يتقبلك كلياً، وكما أنت. هو العلاج، وستشفى قريباً.

إذاً ما عليك إلا أن تمضي قدماً وبتأنٍ، بحذر بيقظة. كن محباً، وإن أردت ممارسة الجنس، فمارسه بحذر، كنوع من التضرع. أنظر إليه بسمو وباحترام، وهكذا يتحول إلى حب، وإن مارست الحب، فمارسه باحترام أكبر، بفرح، باحتفالية، إنه أشبه بالتأمل وهذا ما سيصبح حناناً وعطاء الذي هو أشبه بتزهر الورود. وحين ينال أحدهم نعمة العطاء، ستشفى الملايين بمجرد المرور قربه أو الاقتراب منه.

العطاء هو العلاج.

الأحكام الحرة اللامشروطة تسامح الزن

ذات مساء كان شيكيري كوجان يتلو صلاته، فإذ بلص يدخل عليه، شاهراً سيفاً حاداً، مخيراً إياه بين المال و حياته.

أجابه شيكيري: «أرجوك عدم إزعاجي، المال في الجارور إلى يمينك» وتابع تلاوة صلاته.

بعد لحظات قليلة توقف شيكيري عن الصلاة وخاطب اللص، قائلاً «لا تأخذ المال كله، علي أن أدفع ما يتوجب من ضرائب غداً».

أخذ اللص القسم الأكبر من المال وهمّ بالخروج إلا أن شيكيري خاطبه مجدداً دون أن يلتفت إليه «أما تعتقد أنه عليك شكر الإنسان

الذي قدم لك هدية؟» شكره اللص وخرج مسرعاً.

شكره الرجل وخرج وبعد أيام عدة، اعتقل، واعترف بكل السيئات التي قام بها وحين استدعى شيكيري للإدلاء بشهادته قال: «هذا الرجل ليس لصاً، هذا ما أعتقده أنا، لأنه لم يسرق مالي، بل أنا من أعطاه المال، وشكرني جداً قبل مغادرة منزلي». وحكم على اللص بالسجن، وبعد انتهاء فترة عقوبته، جاء هذا اللص مجدداً إلى حيث شيكيري يعلم تلاميذه، ويهذبهم ليصبح واحداً منهم.

قال المسيح «لا تدينوا...» هذا ما فعله الراهب الزن، إنما المسيح، ولأنه كان يخاطب، أكمل قائلاً «كي لا تدانوا».

«لا تدينوا» قول كافٍ بحد ذاته. ولم يكن هناك من ضرورة لإضافة «كي لا تدانوا». «لا تدينوا» تعني لا تجعلوا من أنفسكم قضاة. تعني انظروا إلى الحياة ببساطتها، دون السماح لأنفسكم بتقييمها، فلا تقولوا «هذا جيد»أو «هذا سيء». لا تكونوا متزمتي الأخلاق... لا تسمحوا لأنفسكم بتصنيف الأشياء، هذا علوي رباني وهذا من فعل الشيطان. «لا تدينوا» عبارة، ما عرفت الإنسانية مثيلاً لها عبارة تعني أن لا إله ولا شيطان.

لو توقف المسيح بعد قوله هاتين الكلمتين فقط «لا تدينوا»، لكان أعطى المسيحية أبعاداً أبعد بكثير مما هي عليه اليوم. إنما بسبب إضافته «كي لا تدانوا»... لقد وضع شرطاً، جعل الفعل مشروطاً... إذاً صار الأمر أشبه بصفقات رجال الأعمال.

طالما أنت خائف، فلن تكون قاضياً عادلاً... إذاً لا تدن أحداً. ولكن كيف يمكنك أن تنطق بالعدالة وأنت خائف، والطمع يشغل بالك؟ كي لا تدانوا، لا تدينوا _ غير الجشع والخوف لا يسمحان بإطلاق الأحكام الحرة _ غير المشروطة. قول المسيح جاء مشروطاً:

«لا تدينوا كي لا تدانوا» إنها الأنانية، التي دمرت روعة القول «لا تدينوا»... وصوله إلى مجرد نصيحة عادية، إنما ليست جوهرية، فالقسم الثاني من القول «كي لا تدانوا» ألغت جوهر الموضوع.

الزن عكس ذلك. «لا تدينوا». يقولون هذا ويتوقفون. لا يضيفون أية كلمة إليه، ولا يضعون شروطاً... الزن يقولون كل شيء هو كما هو لا شيء جيد، ولا شيء سيء... الأشياء هي كما هي... بعض الأشجار باسقة الطول، وأخرى لا... بعضهم أخلاقي وبعضهم لا يعترف لا بالأخلاق ولا بالقيم. البعض يذهب للصلاة، فيما البعض الآخر يذهب لسرقة بيوت الناس. ولهذا فالزن لا يدينون ولا يفهمون. لا يقولون، إفعل هذا، ولا تفعل ذاك، لا يقولون «عليك» أو «عليك ألا». إنهم لا يضعونك داخل سجن «يجب».

الزن ليسوا مثاليين، ولا محللين نفسيين، يعلمون أن المثالية هي نوع من أنواع الاضطراب العصبي... الزن متدينون فقط. إنهم يتقبلون كل شيء كما هو، ولهذا فهم لا يقولون عن اللص، إنه لص، أو عن المجرم إنه مجرم. عليك محاولة الدخول إلى روحه لتكتشف مدى نقاوتها، لتتعرف إلى الأسباب التي جعلته يفعل ما فعل.

الزن، أحكام حرة غير مشروطة، إن وضعت شروطاً، تفقدها قيمتها. في الزن، لا خوف، ولا طمع، لا الله ولا شيطان، وليس عند الزن جحيم ولا نعيم، ولا يغرون بما سيحصلون عليه في الجنة، ولا يخيفونهم مما قد يصيبهم في جهنم.

إنهم لا يكافئونك بجائزة، ولا يعاقبونك بعذاب، إنهم يمنحونك نظرة ثاقبة لترى ما في الأشياء... نظرة تحررك، نظرة لا تتخذ الخوف منطلقاً لها ولا الطمع. كل ما عداهم من رجال دين جشعون، بنوا مفاهيمهم على الخوف، ولهذا يرددون - دائماً وأبداً - ضرورة مخافة

الله... الله خوف... هذا ما يؤمنون به ويعلمونه لأبنائهم.

ولكن كيف لخائف أن يكون مؤمناً؟ إنه لمن المستحيل. الخائف لن يكون مؤمناً أبداً... بل الذي لا يشعر بالخوف هو من بإمكانه أن يكون مؤمناً، أما إذا كنت تبني أفكارك على أساس هذا جيد، وهذا سيء، فسيبقى الخوف مسيطراً عليك، لأنها نظرية تجعل الآخرين مجرمين، وتعيق مسيرتهم... وفي مثل هذه كيف يمكنك أن تساعدهم لتحريرهم من الخوف؟... إنه لمن المستحيل... على العكس، فإنك تخلق المزيد من الخوف.

مبدئياً، غير المؤمن هو الأقل خوفاً، من ذاك الذي ندعوه مؤمناً؟ إن من ندعوه مؤمناً، هو دائم الاضطراب داخلياً، دائم القلق، دائم التساؤل عن نتائج ما سيقوم به، هل سيلقى في جهنم، أو هل سيكون قادراً على فعل المستحيل لدخول الجنة؟

من تلامذة المسيح، كانوا خائفين، وكانوا يتساءلون، بعد صعود المسيح إلى السماء، أين سيكون موقعهم؟ في الجنة؟ هل سيلتقون المسيح مجدداً في السماء، كانوا على قناعة تامة أن المسيح سيجلس إلى يمين الله - الآب السماوي - ولكن من سيكون إلى جانبه؟ تساؤلهم هذا هو بسبب خوفهم وطمعهم في آن. لا، ما انصب اهتمامهم على أن المسيح سيصلب غداً، بل على مصالحهم الخاصة... أين سيكونون، ومن سيكون إلى جانب المسيح.

كل الديانات الأخرى، بنيت على أساس الطمع والخوف. حتى الطمع ذاته الذي تشعر به نحو المال، سيتحول يوماً إلى طمع بالله، إذاً الله هو مالك الآن، المال هو إلهك... هذا هو الفرق الوحيد. وهكذا تحول الله إلى مال. الآن، وبعد هذا التحول، تبدأ الإحساس بالخوف من جهنم، زمن محكمة الله العليا يوم الدينونة.

من يقال عنهم، إنهم القديسون المسيحيون، حتى في لحظات

حياتهم الأخيرة، كانوا يرتجفون خوفاً ـ هل سيصعدون إلى السماء، أم سيرمون في جهنم؟

هذا الخوف ليس موجوداً عند الزن. الزن لا يصدر أحكاماً مشروطة. دع هذ ينغرس في أعماق أعماقك، لأنه نقطة الانطلاق. أريدك أن تعي. هذا كل شيء، الوعي يكفي دع الوعي هو القانون الأوحد، ولا شيء آخر. لا تتصرف تبعاً لما يمليه عليك الخوف، لئلا تغرق في الظلمة. كذلك، لا تتصرف تبعاً لما يمليه عليك الطمع، لأن الطمع هو الوجه السلبي للخوف. إنهما وجهان لشيء واحد، وجه يمثله الخوف، والآخر يمثله الطمع. الرجل الخائف هو رجل جشع دائماً، والعكس صحيح، إنهما معاً متلازمان دائماً.

كن مدركاً... كن واعياً، وامتلك القدرة على رؤية الأشياء كما هي... أليس بمقدورك تقبل الوجود كما هو؟ وماذا يعني هذا؟ إنه لا يعني شيئاً، نعني عدم تقبلك له، كما هو، لن تغير شيئاً، لا شيء سيتغير... فكر ملياً ما الذي تغير؟ منذ آلاف السنين، نحن نرفض أشياء كثيرة، لكنها ما تزال موجودة،، ليست موجودة وحسب، بل ازدادت عدداً وقدرة، فلا اللصوص انقرضوا ولا المجرمون. لا شيء تغير، فالأشياء ما تزال كما كانت، عدد السجون في ازدياد، والقوانين صارت أكثر صرامة وتعقيداً، وبسبب التعقيدات القانونية ازداد عدد العاملين في اللصوصية. لا المحامون ولا القضاة تمكنوا من إحداث تغيير ما... نظام العقوبات بني على أساس فاسد ومفسد... لا أحد ينكر مدى قساوته، لكن نظام السجون حولها إلى جامعة، تعلّم الإجرام وتخرّج المجرمين.

ما إن يدخل امرئ مرة إلى السجن حتى يصبح زائراً دائماً. يخرج منه لفترة، ثم يعود إليه ثانية وثالثة ورابعة. نادراً جداً أن نرى رجلاً انهى مدة محكوميته، خرج من السجن ولم يعد إليه. لأنه

يخرج من السجن أكثر مهارة وحنكة، يعرف كيف يتصرف، يخرج خبيراً في ارتكاب الجريمة. خروجه من السجن، أشبه بتخرجه من الجامعة حاملاً إجازة في الإجرام، يتقن مهنة ارتكاب المحرمات دون أن يتمكن أحد من القبض عليه، ويعرف ما هي الثغرات القانونية.

حتى أولئك الذين يطبقون القانون، هم مجرمون مثلهم مثل غيرهم... بالطبع عليهم أن يكونوا أكثر صرامة، إنهم يتعاملون مع مجرمين، لذا عليهم أن يكونوا أكثر صرامة أو أكثر إجراماً، إن صح التعبير، البوليس، حراس السجن، السجانون، كل هؤلاء هم أكثر إجراماً من أولئك الذين أجبروا على دخول السجن.

لا شيء تغير... هذه ليست الطريقة الأسلم لإحداث التغيير. لقد ثبت فشلها الذريع. الزن يقولون، التغيير يأتي عن طريق التفهم، لا عن طريق الإكراه.

ومن ثم ما هي الجنة بالنسبة إليك وما هو الجحيم؟ لا شيء على الإطلاق، إنما الأساس هو ذاته، كلاهما بعد الحياة. كذلك هي فكرة السجن، تتحول إلى فكرة عن الجحيم. كذلك هو التفكير بالجوائز والمكافآت المالية والميداليات الذهبية، الخ. كل هذه تكوّن معاً فكرة عن الجنة، أما نفسياً فالشيء ذاته.

مذهب الزن لا يعترف بعلم النفس على الإطلاق. هو مذهب لا يصدر أحكاماً على شيء... إنه مذهب التفهم والإدراك، ينادي باستيعاب الأمور كما هي، إنه يحاول فهم الإنسان كما هو، لا يضع مثالاً نصب عينيه يطلب منه أن يكون مثيلاً له، ولا يقول كيف يجب أن يكون.

حين تقول، كيف يجب أن يكون هذا الإنسان، تكون تتعامى عن حقيقة ما هو عليه. «يجب» تحول إلى حاجز، إلى سد يمنع عنك

رؤية الحقيقة... لديك تصور خاص عما يجب أن يكون هذا الإنسان، تصور جد متعالي، وكل من لا يكون مطابقاً له ـ لهذا التصور ـ يكون إنساناً مداناً، إنساناً غير سوي.

أما أولئك المغرورون، فهم يجعلون أنفسهم، بطريقة أو بأخرى، متمسكين بتلك المثاليات، ولو ظاهرياً، ويتظاهرون وكأنهم قديسون، وهم، ليسوا أكثر من بشر أنانيين. ولو نظرت إلى عيونهم، لوجدت أنهم جد مغرورون. وأنهم القلة المختارة، إنهم شعب الله المختار الذي أرسله الله ليحكم على تصرفاتك وليجعل منك إنساناً آخر وفقاً لمشيئتهم.

الزن غير معنيين بمثل هذه الأمور، إنهم لا يريدونك أن تتحول إلى إنسان آخر، إنهم غير معنيين بما يجب عليك أن تكون، إنهم معنيون بما أنت عليه، التحول عند الزن يتم طبيعياً، يتم بحب، دون بذل أي جهد. إنه يحدث تلقائياً.

الزن يتحولون، لكنهم لا يتحدثون عن التحول. إنهم يتغيرون، لكنهم غير مهتمين بالتغيير. التغيير يعطيهم جمالية أكثر من أي شيء آخر، لكنهم غير مهتمين بكل هذا. إنه يأتي كنعمة إلهية، كهدية لا تقدر بثمن... بالتالي هو نتيجة للتفهم والوعي. هذه هي جمالية الزن، أحكامهم حرة غير مشروطة، إصدار الأحكام هو مرض العقل. لهذا، الزن لا يقول هذا جيد وذاك سيء... إنهم ينظرون إلى الأشياء كما هي.

عند الزن يحدث التحول بدون أي جهد، إنه يحدث طبيعياً بعيون نقية صافية، ومن خلال النظر إلى طبيعة الأشياء مباشرة، وبدون أي موانع أو معيقات.

في اللحظة التي تقول هذا إنسان جيد، في هذه اللحظة بالذات تكون قد أشحت بنظرك عنه، تكون أعطيته لقباً، تكون صنّفته

الزن يتحولون، لكنهم لا يتحدثون عن التحول. إنهم يتغيرون، لكنهم غير مهتمين بالتغيير. التغيير يعطيهم جمالية أكثر من أي شيء آخر، لكنهم غير مهتمين بكل هذا.

ضمن فئة معينة. في اللحظة التي تقول، هذا إنسان جيد، لا تعود مهتماً به، لأنك عرفت من هو ومن يكون.

الرجل الصالح، قد يتحول إلى رجل طالح، والرجل الطالح قد يتحول إلى رجل صالح، عند المساء يكون طالحاً، وعند الصباح يعود صالحاً مرة آخرى، لكنك ستتعاطى معه وفقاً لتصنيفك له، ولن تكون تتحدث إلى هذا الإنسان بذاته، بل إلى الإنسان الذي أنت تراه، أي الإنسان الذي صنفته.

وهكذا تفقد الحقيقة، تحتار من هو الإنسان الحقيقي، وهذا ما يخلق ألافاً من التعقيدات والمشاكل، مشاكل لا حلول لها. هل أنت فعلاً تتحدث مع زوجتك؟ حين تكون في السرير إلى جانب زوجتك، فهل أنت فعلاً إلى جانب زوجتك، أو مع صورة معينة رسمتها في خيالك؟ لأنه طالما اجتمع شخصان في مكان واحد، فهذا يعني أن هناك جمعاً من البشر وليس اثنان فقط. سيكون هناك أربعة أشخاص على الأقل. تصورك للشخص الآخر، وتصور الشخص الآخر لك. إذاً صرتما أربعة أشخاص إثنان حقيقيان، واثنان تخيلاً وتصوراً. الإنسان الحقيقي هو إنسان غير مستقر، هو في تغير دائم، إنه كالنهر الذي يجري وتتغير ألوانه وفقاً للبيئة التي يمر فيها. الإنسان الحقيقي ما يزال حياً، وتصنيفك له لا يعني أنه مات... إنه ما يزال حياً.

سأل أحدهم شوانغ تزو مرة: «هل انتهى عملك؟»، فأجاب «وكيف يمكن أن ينتهي؟ فأنا ما أزال حياً.»

فكر ملياً بالجواب. «كيف يمكن أن ينتهي؟... فأنا ما أزال

حياً... يمكنه أن ينتهي فقط يوم وفاتي، أما طالما أنا متدفق الحيوية ستستمر أشياء كثيرة بالحدوث».

حين تكون الشجرة ما تزال يافعة، تتجدد أزهارها عاماً بعد عام، في الخريف تتساقط، وما إن يبدأ فصل الربيع، حتى تعود الأزهار تكسو الأغصان، وستبقى العصافير تزورها وتبني فيها أعشاشها، وتحت ظلها يجلس العابرون طلباً للراحة واتقاء لحرارة الشمس، سيحدث هذا عاماً بعد عام. أما حين تقول عن شخص ما إنه جيد، ثري، خلوق، متدين، ملحد، أو أي شيء آخر، تكون قد اعتبرته في عداد الموتى. وحده الميت نذكر صفاته، نزور قبره ونعدد حسناته أو نعدد سيئاته ولن يكون بمقدوره الدخول في نقاش معك. لقد توقف النهر عن الجريان.

حتى الطفل الصغير، لا يحق تصنيفه، لا يحق لك أن تقول «هذا طفل مطيع، هذا طفل عنيد، هذا طفل مرح، هذا طفل مشاكس». تصنيفك هذا، سيولد له المشاكل، لأنك، عن قصد، أو غير قصد تكون تدفعه ليكون كما وصفته، لأنه يبدأ بالشعور أنه مجبر على إثبات أنك على حق. إذا قال والد عن طفله «طفلي يخلق المشاكل»، يبدأ الطفل بالتفكير «علي إثبات ذلك وإلا يكون أبي على خطأ». وهل من طفل يقبل أن يكون والده على خطأ؟ ولهذا يبدأ بخلق المشاكل.

كانت ثلاث نساء يتحدثن عن أطفالهن. قالت الأولى: «طفلي عمره خمس سنوات ويكتب الشعر... قصائده تجعل الشعراء المعروفين يخجلون أمامه».

أما الثانية فقالت: «ابني عمره أربع سنوات، يرسم بدقة متناهية، يرسم وفقاً لمفاهيم الرسم الحديث، حتى بيكاسو لا يضاهيه... لا يستعمل فرشاة، بل يديه فقط... إنه فعلاً رسام فذ».

قالت الثالثة: «كل هذا لا يعني شيئاً، ابني عمره ثلاث سنوات فقط ويذهب وحيداً إلى المعالج النفسي».

لا تنعت أحداً، فالنعوت قد تدمر المنعوت. لا تقل هذا خاطىء وذاك قديس، لأن قولك سينتشر بين الناس. إنها عادة الناس أن يتناقلوا ما يقال. إن سمعت أن تلك المرأة زانية، وتقبلت ما سمعت، ومن ثم أخبرت بدورك إنساناً آخر، وهذا الآخر أخبر آخر، هكذا تنتشر الإشاعة، فيستحيل على المرأة إثبات العكس، فتصبح زانية، فالمجتمع يرفض الاقتناع أنها غير زانية، وإن تصرفت العكس سيقال لها ما الذي تفعلينه؟ أنت زانية. فلماذا تحاولين أن تكوني قديسة... تصرفي كما أنت.

هذا هو المجتمع يريدك كما هو يريد «تصرف عن نفسك... لا تفعل شيئاً معاكساً للنظرة التي تنظرها إليك».

هذا أولاً، أما ثانياً، فمن المستحيل على هذا الإنسان أن يتصرف وفقاً للمواصفات التي حددتها له، بمقدوره ـ فقط ـ أن يتظاهر بموجبها وهكذا، لا بد من حين لآخر، من أن يعود إلى حقيقته ويتصرف عكس ما حققه الآخرون. وهكذا تعتبر نفسك مخدوعاً، قلت إنه هادئ الطباع، ها هو صاحب طباع حادة... إنه إنسان مخادع محتال. بالأمس كنت تعتبره رجلاً صالحاً، ها هو اليوم يسرق مالك... ما هذا؟ منذ سنوات كان قديساً في نظرك لكنه اليوم لص محترف.

أتعتقد أنه خدعك؟ لا... ليس هو من فعل ذلك، بل أنت خدعت نفسك. أنت أردته أن يكون كما تريد، متناسياً أنه إنسان مثلك، وأن له كياناً مستقلاً، ويتصرف بناء لحقيقة وجوده. حاول جاهداً أن يبقى ضمن الإطار الذي حددته له، لكن يوماً ما سيأتي

عاجلاً أم آجلاً سيخرج فيه من هذا الإطار، ويعمل ما يريد هو عمله.

ما من أحد قد يحول توقعاتك إلى حقيقة، وحدهم الجبناء يفعلون ذلك. الرجل الرجل، يحول توقعات الآخرين عنه إلى أوهام، لأنه يرفض أن يكون سجيناً لتوقعات أي إنسان آخر... ومتناقضاً مع نفسه... إنه حر يذهب اليوم غرباً أما غداً يتجه شرقاً، وقد يعمل غداً نقيض ما فعله اليوم، الأمر الذي يجعلك في حيرة من أمره، الرجل الحقيقي، الرجل الواقعي، يحمل تناقضات في داخله، ويتصرف بموجبها، لأنه حر... حر كل الحرية له خيارته الخاصة ولا معوقات تقدر على منعه من تنفيذ خياراته هذه. إنه حر أن يمضي نهاره داخل جدران منزله، وحر أن يخرج منه باكراً ولا يعود إليه إلا في اليوم التالي... إنه حر، وانطلاقاً من حريته هذه، له الحق في اختيار ما يحب فعله في كل لحظة.

غير أننا نفرض شخصية معينة على إنسان ما، ونريده أن يتقمص هذه الشخصية، ومن ثم نقول، هذا إنسان متماسك الشخصية، ثابت على مواقفه، إنه عظيم، ثابت على مواقفه. ولكن ما الذي نعنيه بهذا القول؟ ما الذي نعنيه بـ «ثابت على مواقفه؟» هذا يعني الموت، يعني إعلان وفاة هذا الرجل. ويعني وهذا الأهم، أنه مجرد جسد يتحرك، لا حياة فيه. الإنسان، لا يبقى يوماً كما الآخر، إنه متغير.

حين تقول امرأة «زوجي جدير بالثقة». ما الذي تعنيه بهذا القول؟ تعني أنه توقف عن الحب، توقف قلبه عن الخفقان. لا ينجذب لأي امرأة، وإن لم يكن هناك امرأة قادرة على إغوائه. فكيف أنت ستتمكنين من إغوائه؟ ألست أنت امرأة؟ إذا كان رجل ما يزال حياً يعرف ما هو الحب، لا بد أن ينجذب لامرأة جميلة

جذابة كذلك بالنسبة للمرأة... إنها الحياة، وأنا لا أقول، إن على هذا الرجل ترك زوجته والذهاب مع هذه المرأة الجديدة التي التقاها مؤخراً، لكن الانجذاب أمر طبيعي لا أحد ينكره..

يقول الزن: ابق صادقاً مع حريتك، ومن ثم ستنبعث من ذاتك شخصيات مختلفة كلياً، شخصيات غير متوقعة ولم يكن بالمقدور التنبؤ بها: دينية، لكنها ليست أخلاقية - ليست لا أخلاقية - موضوعية، أبعد من الأخلاقية ومن اللاأخلاقية.

هذه هي الأبعاد الجديدة التي حددها الزن للحياة، إنها في مجملها، حقائق منفصلة عن بعضها البعض، لا ترابط بينها، عليك العيش فيها والتعايش معها... هذا منفصل كلياً عن ذاك. لكل منها نوعية جديدة: النوعية هي انعدام الشخصية.

بعض الأحيان، تكون صفة الكلمة - الشخصية - جد مؤذية، رغم أننا لطالما أحببنا ترددها... منذ قرون ونحن معجبون بهذه الكلمة - الشخصية - نقول: «هذا الرجل هو رجل ذو شخصية» ولكن هل فكرنا بها ولو قليلاً؟ الرجل ذو الشخصية هو رجل ميت هو رجل مصنف. الرجل ذو الشخصية يسهل التنبؤ بما سيقوم به، لا مستقبل له. إنما له الماضي وحده.

إنتبه جيداً: الرجل ذو الشخصية له الماضي وحده، لأن الشخصية تعني الماضي، إذاً هو يستعيد ماضيه، مثله مثل آلة التسجيل، يردد الأشياء ذاتها مرة واثنين وثلاثاً، لا شيء جديداً عنده ليقوله، ولا شيء جديداً عنده ليحياه، هذا هو الرجل ذي الشخصية الذي يمكننا الاتكال عليه. إنه لا يخلف بوعده... هذه حقيقة يجب الاعتراف بها، كذلك يمكن الانتفاع من وجوده اجتماعياً، وهذا شيء مهم، لكنه رجل ميت، إنه آلة.

حتى للآلة خصائص يمكن الاعتماد عليها. إنما، من حين لآخر

نستبدل الآلة فهل هذا يعني أنه علينا استبدال الكائن البشري بالآلة؟ خاصة وأن للآلة خصائص رائعة يمكن الاستفادة منها أيضاً.

لا يمكن الاعتماد على الحصان كما نعتمد على السيارة. للحصان نوع من الشخصية، وهو متقلب المزاج، قد يطيعك اليوم ويعصوك غداً، وقد يتمرد عليك بعد غد، وفي اليوم الرابع يقف أمامك دون حراك بانتظار أوامرك. للحصان روح، لذا لا يمكنك الاعتماد عليه دائماً. أما السيارة فهي جماد، تذهب إلى حيث تريد أنت، حتى إلى الهاوية. أنت من يقودها... بينما الحصان لن يستجيب لك. سيتراجع حين يرى الجرف، سيقول لك: «لحظة من فضلك، إن أردت الانتحار فافعل ذلك لوحدك، أما أنا فلست مستعداً، يمكنك أنت وحدك القفز إلى الهاوية، أما أنا فلن أفعل». بينما السيارة ستمضي بك قدماً، طالما أنت تدوس على دواسة الوقود، إنها جماد لا روح فيها.

حتى عقل كبار العلماء، قد يتوقف عن التفكير للحظات أو ساعات... إنه يريد الاستراحة، بينما الحاسوب يعمل على مدار الأسبوع دون توقف. للآلة خصائص يعتمد عليها، وهذا ما نحاول أن نفعله، أن نحول الإنسان إلى آلة، لكننا لم ننجح، ولم نصل إلى غايتنا، فرحنا نعتمد على الآلة لتحل محل الإنسان. عاجلاً أم آجلاً، ستحل الآلة محل البشر، وفي كل مكان، إنها تعطنا نتائج أفضل وبسرعة غير متوقعة.

للإنسان روح، لذلك فهو متقلب المزاج والطباع، ولأنه كذلك فهو الوحيد الذي من الممكن أن يكون أساس الوجود، مشرع أن يكون بلا شخصية ماذا أعني بـ«انعدام الشخصية؟» أعني التخلي عن الماضي وعدم التصرف وفقاً لما يقتضيه ماضيه. بل يعيش كل لحظة بذاتها، يعيش حاضره وليس ماضيه، يعيش مع حاضره

ويتفاعل مع ما يجري حوله، ليس لديه أي فكرة ثابتة مقدسة... إنه حذر وواع ليس أكثر، حياته في تجدد دائم، له طبيعته الخاصة، ولهذا أقول إن الإنسان الحقيقي هو الإنسان الذي لا شخصية له.

إنه متجاوب، يتجاوب مع ما تقول، ولا يردد الأشياء وكأنه ببغاء، إنه يتجاوب مع الموقف الذي هو فيه، مع حديث يدور بوجوده مع سؤال يوجه إليه، وليس مع أي آخر، ويظهر تجاوبه معك، من خلال النظر إليك وهو يحدثك... إنه متجاوب، لا يستجيب للمؤثرات، ذلك لأن ردة الفعل هي وليدة الماضي.

حدث أن أحد معلمي الزن تساءل: «ما هو سر بوذا؟ ما الذي أوصله إلى ماهافاشيبا، حين أعطاه الزهرة؟ ولماذا قال إني أعطيته ما أنا عاجز عن إعطائه لأي إنسان آخر، لأن الآخرين يفهمون لغة الكلام بينما هو يفهم الصمت؟».

ذات يوم جاء بوذا وبيده زهرة لوتس، أخذ تلاميذه ينظرون إليه وطال النظر إليه، حتى أحس التلاميذ بالقلق، وبدأوا بالتململ دون أن يتفوه بكلمة، فقط كان ينظر إلى زهرة اللوتس، وكأن لا أحد معه. مرت الدقائق والساعات والتلاميذ في حال ذهول ومن ثم انفجر ماهافاشيبا بالضحك، فدعاه بوذا وأعطاه زهرة اللوتس وهو يقول: «إن الذي بمقدوري إعطاءه غير القول، سبق لي وأعطيته للآخرين. والذي لست قادراً على إيصاله عبر الكلمات أعطيه لك، فاحتفظ به حتى تجد إنساناً قادراً على فهم هذه الرسالة بصمت».

عاد معلم الزن وسأل تلاميذه: «ما كان السر؟ ما الذي أعطي من خلال زهرة اللوتس؟ ما الذي حدث في تلك اللحظة؟»، فوقف تلميذ وأخذ يرقص وخرج. فقال المعلم: «فعلاً... هذا هو ما أعطاه».

لكن معلماً آخر جاء إلى المعلم الأول وقال: «كان عليك ألا تبدي

هذه الموافقة بسرعة. كان من الأفضل أن تتريث».

فما كان من المعلم الأول إلا أن ذهب إلى التلميذ الذي قال: «نعم هذا هو ما أعطاه». كانت الدنيا ليلاً، وراح يعيد عليه الأسئلة التي طرحها صباحاً طالباً منه الإجابة. رقص التلميذ مجدداً. صفعه المعلم بشدة وهو يقول «هذا خطأ... خطأ بالمطلق».

«لكنه في الصباح كان صواباً». قال التلميذ.

فقال المعلم: «لا أنكر ذلك، لكنه كان في الصباح، لكنه في الليل خطأ كبير... أنت الآن تعيد ما فعلته في الصباح. في الصباح كان تجاوباً أما الآن فهو ردة فعل».

حين طرح المعلم سؤاله صباحاً، كانت الشمس مشرقة والطيور تزقزق. آلاف الرهبان يمارسون التأمل. كان الوضع مختلفاً جداً عما هو عليه الآن، نعم كان السؤال هو ذاته، إنما المناخ العام قد تغير، كل شيء تغير، الوضع في الليل مختلف كلياً عن الوضع في الصباح. الآن ليس هناك إلا المعلم والتلميذ، الشمس قد غربت، العصافير عادت إلى أعشاشها، حتى المعلم تغير... ساعات قليلة، كان النهر خلالها يتابع جريانه، قطع مسافات طويلة... فقط وحده السؤال يبدو ثابتاً. تسمّر التلميذ مكانه وقال: «إذاً عرفت الجواب».

في الحياة اليومية لا أحد يمتلك أجوبة على تساؤلات، إنما في الحياة اليومية، عليك أن تكون متجاوباً.

الإنسان المنعدم الشخصية هو الذي لا أجوبة لديه، لا يعتمد أي فلسفة في حديثه. لا يمتلك أي فكرة ثابتة عما يجب أن تكون الأشياء عليه، عليه أن يكون بمثابة المرآة التي تعكس صورة الواقع.

لو كنت غاضباً ووقفت أمام المرآة، فالمرآة ستعكس صورة وجهك العابس، وإن كنت ضاحكاً فستنعكس صورة وجهك. إذاً

هي تعكس صورة الحال الذي أنت فيه. ليس بمقدورك الطلب منها، أن تعكس صورتك الأمس أو حتى قبل جزء من المليون من الثانية.

لا شخصية للمرآة لذا فهي تعكس الواقع، والرجل الحقيقي هو كالمرآة.

الزن لا يدينون، لا يقيمون، لا يفرضون خصائص على أحد، حتى تفرض خصائص أنت بحاجة إلى عملية تقييم: صالح، طالح، وعليك القول «يجب»، كما عليك إصدار الأوامر، حتى تفرض صفات معينة على أحد يجب أن تكون موسى، وليس بوذا أو مهاتيرا، وهكذا تكون تخلق حالات الخوف والطمع، وإلا من سيصغي إليك؟ ستكون تعامل الناس كالفئران، تتبع سياسة العقاب والثواب، وهكذا يجبرون على اتخاذ الصورة التي تفرضها عليهم.

ما أعطيته حتى اليوم، أعطاك إياه والداك، الثقافة التي تربيت عليها، المجتمع المحيط بك. ويأتي مذهب الزن ليقول لك، كفى، اخلع كل ما أعطيته عن كاهلك، تخلَّ عن كل تلك التفاهات، واعمل لتكون أنت نفسك. هذا لا يعني أن الزن يضعك في موقف الحائر ماذا عليه أن يفعل، الزن بدلاً من أن يضفي عليك صفات وخصائص ليكون شخصيتك فهو يعطيك الوعي.

كل الديانات الأخرى تعطيك الضمير، يأتي مذهب الزن ليعطيك الوعي. الضمير يعني: هذا جيد، ذلك سيء، إفعل هذا، لا تفعل ذاك «الوعي، وبكل بساطة يعني أن تكون المرآة، تعكس... تتجاوب» التجاوب هو الصح وردة الفعل هي الخطأ. كي تكون مسؤولاً، لا يعني أن عليك اتباع قواعد معينة محددة سلفاً. بل يعني أن تكون قادراً على الاستجابة.

الزن يجعلك مضيئاً من الداخل، دون فرض عليك من الخارج، دون مساعدة من الخارج... إنه لا يعطيك سلاحاً ولا معدات

عسكرية، لا يهتم بالمحيط الذي تعيش وسطه، بل يزرع في داخلك مصباحاً، في عمق ذات ذاتك، ويبدأ النور بالإشعاع. وهكذا سيأتي يوم تصبح فيه كل شخصيتك مضاءة، أشبه بمنارة.

كل هذا ينبعث من التأمل، إنه قمة وعي المتأمل. إذا مارست التأمل، شيئاً فشيئاً، سترى كل شيء جميلاً. كل شيء كما يجب أن يكون. هكذا إن صادفت لصاً، فلا تفكر أنه قد يتغير، بل تجاوب مع الموقف. هكذا بكل بساطة لا تنظر إليه على أنه إنسان سيء. عندئذ تكون تخلق إمكانية تحوله إلى إنسان حسن السمعة. لقد تقبلته كما هو، ومن تقبلك هذا، تكون تساعده على التحول.

هل لاحظت هكذا تحولاً في حياتك أيضاً؟ هذا سيحدث لك، حين يتقبلك الآخرون كما أنت، بلا إسقاطات عليك ولا شروط. تقبلهم يعطيك الشجاعة. أما ترى المعجزة تحصل حين تجد إنساناً يحبك كما أنت؟ أن تقبل الآخرين لك كما أنت، يشعرك بالحب، يشعرك أنك متماسك سوي، يجعلك واثقاً من نفسك، يجعلك لست بحاجة لتحقيق طلبات تُفرض عليك لتثبت وجودك... لأنك موجود أصلاً وفعلاً.

أيضاً تشعر بذلك حين تلتقي إنساناً بسيطاً يحترمك بإجلال، يسقط عنك كل الأحكام التي أصدرها الآخرون، إنساناً يقول لك، «كن كما أنت كن ذاتك. أنا أحبك أنت وليس ما تقوم به كما أنت بذاتك. غير مهتم بالمحيطين بك ولا بثيابك... أحب فيك الكائن الحي، وليس ما تملك من مال أو تقتني من مجوهرات وعقارات، أنا أحبك لأنك أنت أنت... فأنت رائع الجمال».

هذا هو الحب، ولهذا هو دائم التزهر. حين تجد امرأة تحبك، لا لسبب أبداً، إنما لمجرد الحب، تشعر فجأة أنك إنسان آخر، إنساناً لم تكنه من قبل. فجأة تختفي أحزانك، تتهاوى تعاستك، تصبح تمشي

وكأنك ترقص، وتتحول نبضات قلبك إلى مقطوعة موسيقية، تشعر أن كل شيء تغير. أنت الآن إنسان جديد.

لاحظ، متى أحبك أحد ما، تختفي برودتك، ترتفع حرارتك، قلبك يميل نحو الآخرين، قد تطيل النظر إلى الأزهار، إلى السماء حيث ترى امرأة تحدق في عينيك، وتتقبلك بصدق، بلا شروط... لكن هذا لا يدوم، فالناس أغبياء، عاجلاً أم آجلاً سينتهي شهر العسل هذا، بسبب أن المرأة تتوقع شيئاً وكذلك الرجل «إفعل هذا... لا تفعل ذاك» وتتكرر الحكاية فتجد نفسك خارج السماء، مجدداً تجد نفسك محملاً بالهموم والحب اختفى. أصبحت المرأة اليوم أكثر اهتماماً بمحفظتك والرجل أكثر اهتماماً بما أعدت له زوجته من طعام، وصرنا معاً أكثر اهتماماً بالمنزل وقضاياه، لكنكما ما تزالان تعيشان بتناغم.

إذا كان هذا التناغم ما يزال قائماً، فلا ضير ولا خوف على حياتكما معاً. بمقدورك الذهاب وإنجاز ألف عمل وعمل، دون أي انزعاج. أما إذا فقد هذا التناغم، فهناك المصيبة الكبرى. خلال فترة شهر العسل. كان كل واحد منكما يصنّف الآخر ويقيّمه وما إن انتهت فترة التصنيف والتقييم حتى انتهى شهر العسل.

حين يتقبلك أحد كما أنت، بلا شروط. ساعتئذٍ تبدأ بالتغيير... قبوله مهد لك الطريق.

الزن يؤمنون بالحب، وليس بالقواعد والقوانين ولا بأي نظام يفرضه الآخرون. بل بالنظام الداخلي المنبثق من الحب والاحترام والثقة. هناك فرق بين المسيحية والزن، المسيحية تقول: «ثق بالوجود ومن ثم أله من هو»، أما الزن فتقول: «تأمل أولاً... ومن ثم تبدأ باحترام الوجود. التأمل أولاً منه تنبثق الثقة، والثقة تؤله الوجود».

كيف يحق لك إدانة أي شيء. طالما أنت تعرف أن كل شيء هو مقدس؟

جماعة براهما يقولون: «كلهم براهما» وفي الوقت عينه يوزعون الشتائم واللعنات يميناً وشمالاً. ما يزالون يقولون هذا إنسان سيء السمعة وهذا حسن السمعة، هذا قديس سيذهب إلى الجنة، أما الخاطىء فآخرته في جهنم. هذا أمر محير، كيف «كلهم براهما» وفي الوقت ذاته هناك من هم مخطئون مصيرهم إلى جهنم؟

يقول الزن، في اليوم الذي تعرف أن الكل يتمتع بصفة السمو والتُقى والورع، أن الكل هو الله. لكنهم لا يستعملون كلمة الله، لأنها كلمة أفسدتها الديانات وشوهت معانيها، أفسدت ماهيتها، هم يقولون التأمل. ولهذا حين تبدأ ممارسة التأمل، ستبدأ برؤية الأشياء كما هي، وتبدأ تثق وتحترم الأشياء كما هي... الثقة هي المفتاح.

تعاليم الزن تعطي رؤية واضحة للوجود المتبادل الثقة والمحبة. وهكذا يصبح الكون كله وحدة كونية تعمل وفقاً لنظام موحد. وحين تتأكد أن الكون كله متحد، تعرف أنه فعلاً هو الكون وليس مجموعة وحدات. ذلك أن كل شيء التحم بكل شيء آخر. حيث يتساوى الخاطىء مع القديس، حيث هما جزء من شبكة واحدة، إنهما غير منفصلين ولن ينفصلا. الجيد والسيء معاً، حتى النور والظلمة يتوحدان، وحتى الموت والحياة.

كل شيء مترابط... إنه رحم الوجود.

تعاليم الزن تعني الوصول إلى لحظة ترى فجأة أن الوجود هو واحد، مترابط، يتراقص على إيقاع واحد... إنه فرقة موسيقية... وهناك حاجة للكل، السيء والحسن. المسيح لولا يهوذا لما كان معروفاً كما هو اليوم. لو حذفنا اسم يهوذا من الأناجيل، تفقد

الأناجيل من قيمتها. اشطب اسم يهوذا من الأناجيل، فأين هو المسيح إذاً. من يكون المسيح؟ يهوذا هو النقيض... إنه الغيمة السوداء التي برز المسيح منها ومضة نور. بدون الظلمة لا وجود للنور. إذاً على المسيح أن يشكر يهوذا، لهذا، ليس صدفة أن يغسل المسيح قدمي يهوذا قبل قدمي أي تلميذ آخر من تلاميذه وحتى عندما همّ بالخروج، عانق يهوذا بحرارة زائدة، قبله أكثر من أي تلميذ آخر. كان أول تلاميذه.

الآن، هناك سر وراء السر. هناك شائعة تقول إن كل الذي حدث كان بترتيب من المسيح نفسه. وهذا ما يؤمن به غوردجيف، وهناك احتمال أن يكون المسيح هو من أمر يهوذا بخيانته وتسليمه إلى أعدائه. وهذا يبدو أكثر منطقياً من أي شيء آخر، لأنه مهما كان يهوذا إنساناً سيئاً وفاسقاً، فهل يعقل أن يبيع المسيح بثلاثين من الفضة؟... أمضى يهوذا وقتاً طويلاً مع المسيح، وكان من أنجب تلاميذه، هو المثقف الوحيد، هو الوحيد الذي يمكنك القول إنه عقلاني. في الواقع كان أكثر اطلاعاً ومعرفة من المسيح، وكانت له الكلمة الفصل.

يبدو هذا غريباً، جد غريب. أن يقدم يهوذا على بيع المسيح لقاء ثلاثين من الفضة... لا أبداً... وهل تعرف ماذا حدث ليهوذا بعد صلب المسيح... انتحر... نعم انتحر يهوذا في اليوم التالي. نادراً ما يتحدث المسيحيون عن هذا، إنما لا بد من سؤاله، لماذا أقدم يهوذا على الانتحار؟ لقد انتهت مهمته، وعليه أن يرحل مع معلمه. هل تعتقد أن من يبيع معلمه لقاء ثلاثين من الفضة قد يشعر بالذنب يوماً؟ وأي ذنب؟ ذنب يدفعه إلى الانتحار... يستحيل ذلك. لم يكن بمقدوره رفض أوامر معلمه... كان كل شيء معداً لمثل هذه اللحظة. إذ لا مسيحية بدون صلب، ولهذا أنا أطلق على المسيحية «الصليبية». هذه ليست مسيحية ـ ذلك المسيح لم يقل بها، بينما

الصليب هو جوهر المسيحية.

حين يتقبلك أحد كما أنت، بلا شروط، ساعتئذٍ تبدأ بالتغيير.. قبوله مهد لك الطريق.

حين ترى التداخل بين الأشياء، فيهوذا هو جزء من اللعبة التي لعبها المسيح. إذاً السوء جزء من الصلاح، والشيطان ليس إلا أحد ملائكة الله. وأنا لا أقول عنه إنه الملاك الذي سقط في الخطيئة، ولربما يكون ينفذ مهمة صعبة أوكلها الله إليه.

يقول سازاكي:

«حدثني أستاذي فقال فكر الآن بنفسك. هل تعتقد أنك إنسان منفصل عن محيطك وعمن حواليك، هل تعتقد أنك جزيرة. أنت لست كذلك لولا أبيك وأمك، لما كنت، ولولا جدك وجدتك لما كان والداك، ولما كنت أنت».

هكذا لو عدنا إلى الوراء، لوجدنا كل شيء أشبه بسلسلة مترابطة، تتسلسل الحلقات فيها وتتراكم وأن كل ما حدث في الوجود حتى اليوم، حدث من أجلك أنت، ولولاك لما كان حدث، أنت نقطة الترابط والتواصل، بالرغم من أنك مجرد جزء صغير من سلسلة طويلة لا حدود لها، فيك يُختصر الماضي... أولاد ـ آباء... أولاد وهكذا دواليك الفعل ينتج فعلاً، ومن الفعل المنتج ينتج فعل جديد... سلسلة مستمرة. سيأتي يوم ترحل فيه عن هذا العالم، إنما الذي فعلته سيبقى وسيستمر... إنه ينتقل من جيل إلى جيل.

إذاً الماضي هو أنت وكذلك المستقبل، وفي اللحظة فيك يلتقيان، ففي داخلك نواة المستقبل. يقال: «حين تلامس يداك العشب تكون تلامس كل النجوم»، ذلك أن كل شيء هو في كل شيء.

حين حمل بوذا زهرة اللوتس، كان يظهر ترابط الكون وماها كشيابا فهم ذلك. هذه كانت الرسالة، في زهرة اللوتس الصغيرة

التقى كل شيء بكل شيء، الماضي بكليته مع المستقبل بكليته، كل الأبعاد ترابطت وتشابكت في زهرة اللوتس هذه. ضحك ماها كشيابا فقد استوعب معنى الرسالة، ولهذا أعطيت الزهرة له. إذاً العطاء البوذي هو للجميع، والشكر للجميع، والاحترام للكل أيضاً. ذلك لأن كل الأشياء مترابطة ببعضها ومتماسكة.

والآن عودة إلى إحدى قصص الزن.

ذات مساء كان شيكيري كوجان يتلو صلاته، فإذ بلص يدخل عليه شاهراً سيفاً حاداً، مخيراً إياه بين المال وحياته. أجابه شيكيري «أرجوك عدم إزعاجي المال في الجارور» وتابع تلاوة صلاته.

لا شجب ولا إدانة. تقبل ما حصل بكل بساطة، وكأن نسمة ريح هبت. وليس اللص هو من دخل عليه. لم يرّف له جفن، وكأن الآتي هو صديق عزيز. لم يتأثر بشيء. جلّ ما قاله: «أرجوك عدم إزعاجي المال في الجارور، أما ترى أنا أتلو صلاتي، فعلى الأقل، كن محترماً، ولا تزعج إنساناً يتلو صلاته، من أجل شيء تافه كالمال. يمكنك أن تبحث عنه بنفسك، ولا تسبب لي أي إزعاج بعد».

كما ترى، لم يتخذ الكاهن موقفاً عدائياً من اللص لأنه جاء بهدف السرقة، بل لأنه لم يقدّر الحالة التي كان فيها... لربما تعود أن يكون هكذا. لماذا علي أن أدين؟ ومن أنا لأفعل ذلك، فيكفيني أن يكون لطيفاً ولا يسبب لي الإزعاج. هذا يكفي، وهذا جل ما أتوقعه من أي إنسان... إذاً لا تسبب لي الإزعاج.

بعد لحظات توقف شيكيري عن تلاوة الصلاة وخاطب اللص قائلاً: «لا تأخذ المال كله، عليّ أن أدفع ما يتوجب من ضرائب غداً».

خاطبه بلهجة الصديق للصديق، بدون أي عدائية، ولهذا لم يشعر

بالخوف، لم يدن اللص، بل احترمه، وكان واثقاً من أنه لن يأخذ المال كله... حين تعطي بهكذا طريقة، يمكنك أن تثق بالآخرين. حتى أسوأ الناسِ يستحق الاحترام، وسيبادلك الاحترام بلا شك. حين لا تدين أحداً، حين تمنح ثقتك، يمكنك الوثوق من أنه سيثق بك. بكل بساطة قال: «لا تأخذ المال كله... علي أن أدفع ما يتوجب من ضرائب غداً».

أخذ اللص القسم الأكبر من المال وهمّ بالخروج: «أما تعتقد أنه عليك شكر الإنسان الذي قدم لك هدية».

هذا هو التسامح ـ قمة التسامح ـ لم يشأ جعل الرجل يشعر بأنه مذنب... إنه التسامح الرائع... وإلا لكان يوم سيأتي يشعر هذا الرجل فيه بأنه مذنب... سرقة راهب فقير، هو في الأساس لا يملك الكثير، سرقة رجل كان على استعداد ليعطي، أمر ليس بهين، ولا عجب إن شعر اللص بالذنب، إن أتعبه ضميره فما عاد يعرف النوم... لكن تصرف الكاهن، جعله يعود إليه طالباً الغفران.

الزن، على عكس بقية الديانات، لا يرغبون بإيجاد مجرمين إنهم يريدون بناء بشر، لأنه كلما أكثرت من وجود المجرمين كلما كان عليك فعل الكثير من أجل مساعدتهم على الشفاء من مرضهم هذا ـ مرض الإجرام. الزن يسعون جاهدين للتقليل من عدد المجرمين.

أترى، قال الكاهن: «أما تعتقد أنه عليك شكر الذي أعطاك... إني أعطيك، فانت لم تسرق مالي. هناك فرق كبير، مع أن النتيجة هي ذاتها».

هكذا ينظر الزن إلى الحياة... عطاء، بدلاً من الفشل. أعط كل شيء قبل حلول ساعة الموت، حتى حياتك قدّمها للموت كهدية، هذا هو جوهر الدين عند الزن، يختلف جداً عنه الهندوس والكاثوليك، إنهم يعطون ليأخذوا... الزن يعطون منعاً لوجود

مذنبين في أي مكان من العالم.

شكره الرجل وخرج، وبعد أيام اعتقل واعترف بكل السرقات التي قام بها، وحين استدعي شيكيري للإدلاء بشهادته قال: هذا الرجل ليس لصاً، هذا ما أعتقده أنا، لأنه لم يسرق مالي، بل أنا من أعطاه المال وشكرني جداً قبل مغادرة منزلي.

هكذا تحول اللص إلى رجل مهذب محترم، لو كان شيكيري رجل دين مسيحي لكان أخذ يعده بعذاب جهنم، ولو كان هندوسياً لكان حدد له مصيره، بعد الموت، سلفاً. النار الملتهبة وبالطبع سيعظه ويحاول إقناعه ألا أهمية للمال.

رجل الزن، لم يقل له شيئاً من هذا القبيل بل قال «أترك لي القليل، لأني غداً بحاجة لبعض المال». المال إذاً وسيلة قد تحتاجه اليوم وقد لا تحتاجه أبداً. إنما إياك أن تجعل منه هدف حياتك.

في جميع الديانات، المال ملعون، وهكذا نجد الناس المؤمنين يخافون المال، طمعاً في نيل آخرة مريحة... هذه الحال الطمع يولد الخوف، والخوف يولد الطمع. إذا قصدت راهباً هندوسياً وبيدك مال لأشاح نظره عنك... إنه يخاف المال هذا مال نجس، وبالوقت ذاته لا يشيح نظره عن الموبقات التي ترتكب في الحياة، وإذا كان المال نجساً، فهذا يعني أنه على الراهب الهندوسي أن يبقي عينيه مغمضتين طيلة النهار والليل. فالنجاسة في كل مكان.

للزن رؤية مختلفة جداً. لم يقل الراهب إن المال هو النجاسة، وإن عليك ألا تشتهي مال غيرك. إنه المال، منهم من يمتلكونه بأسلوب صح، ومنهم من يمتلكونه بالأسلوب الخطأ.

السرقة مدانة، بسبب العقلية الرأسمالية المسيطرة على العالم. الرأسمالية تقول، هذا المال هو لفلان وفلان، إنهم أصحابه

الشرعيون، وما من أحد يحق له الحصول عليه.

عند الزن، لا شيء لأي إنسان، لا أحد يحق له أن يمتلك، وهل يحق لك امتلاك العالم؟ أنت تأتي إلى هذا العالم فارغ اليدين، وتتركه فارغ اليدين، إذاً نحن نستعمل المال خلال وجودنا هنا، ولا نمتلكه... ولهذا قال الراهب للص: «خذ المال إنما ليس كله... فأنا أيضاً بحاجة له بقدر ما أنت بحاجة إليه».

في المحكمة قال: «هذا الرجل ليس لصاً»، لقد حوله إلى صديق. «لقد أعطيته المال وشكرني»... كان المال لي وأنا قدمته له، وهو بدوره شكرني، وماذا بإمكان أحد أن يفعل أكثر؟

أقصى ما يمكن فعله هو الشكر، يمكننا شكر الوجود على كل ما قدمه لنا. وماذا بمقدورنا أن نفعل أكثر؟

وبعد أن أنهى اللص فترة محكوميته عاد إلى شيكيري وصار واحداً من تلاميذه.

ماذا بوسع إنسان أن يفعل أكثر مما فعل شيكيري. لقد حول اللص إلى نزيل دير... هذه هي مهمة المعلم ألا يدع فرصة تفوت، حتى أنه استغل فرصة دخول اللص ليحوله إلى إنسان آخر.

كذلك اللص، حانت فرصة تحوله من الشيء إلى نقيضه، إنه لم يأتِ بهدف التحول، جاء بهدف السرقة، لم يكن يدري أنه يدخل صومعة راهب. وإلا لما كان دخل. جاء بهدف المال، إنما الصدفة جمعته بشيكيري، أرأيت حتى لقاؤك صدفة مع كاهن بوذي، يعني حدوث تحول كبير في حياتك.

راهب الزن لا يلقي عظات رنانة طويلة، لا يقول لسامعيه عليكم أن تفعلوا هذا وعليكم ألا تفعلوا ذاك. راهب الزن لا يقول شيئاً، بل يهدي إلى الطريق القويم. شيكيري، قدم الطريق القويم للص، ولم يقل

أنت تأتي إلى هذا العالم فارغ اليدين، وتتركه فارغ اليدين، إذاً نحن نستعمل المال خلال وجودنا هنا، ولا نمتلكه.

هذه هي الطريق التي عليك سلوكها، لقد حول هذا الرجل. كان جراحاً ناجحاً، أجرى له عملية جراحية في قلبه، دون استعمال مبضع ودون تخدير. دمر الإنسان القديم وخلق إنساناً جديداً، جديداً كلياً، دون أن يعي هذا الرجل ما يحدث له في حياته... هذه هي الأعجوبة التي قام بها شيكيري.

إحدى ترانيم الزن تقول: «الرجل الواعي لا يرفض الخطأ». إنها الحقيقة التي لا بد من الاعتراف بها... الرجل الواعي لا يرفض الخطأ... وهناك أنشودة أخرى تقول: «الحقيقة، ليست بحاجة لمن يبحث عنها... إنها موجودة في كل مكان، حتى في الخطأ، إذاً من يرفض الخطأ، يكون يرفض الحقيقة التي في داخله».

كم هم رائعون هؤلاء البشر: «من يرفض الخطأ يكون يرفض الحقيقة». أي جمال هو هذا؟ من هذا القول تنطلق الراديكالية والثورة. شيكيري لم يرفض الرجل لأنه جاء بهدف السرقة، لم يرفضه بسبب الخطأ الذي يرتكبه. لم يفعل ذلك، لأن خلق الخطأ هناك ما هو أبهى. هناك الوجود الخالد، هنا إله. فإن رفضت هذا الرجل تكون ترفض الله أيضاً، والحقيقة في آن.

تقبل الخطأ كي يتقبل الحقيقة، وحينذاك تختفي الأخطاء من تلقاء ذاتها. أنت لست بحاجة لمصارعة الظلمة... كل ما عليك هو إضاءة شمعة فيعم النور، ولا تعود هناك ظلمة، وهذا ما فعله شيكيري مع اللص، أضاء له شمعة.

إليكم الحكاية التالية هي أشبه بالأولى.

عند منتصف الليل، كان المعلم تايجان يكتب رسالة، فإذ بلص يدخل غرفته شاهراً خنجراً، التفت المعلم نحو اللص وقال: ماذا

تريد ـ المال أم حياتي.

يا لهذه الروعة؟ إن كان شيكيري قد أفسح المجال للص أن يتكلم «إما المال أو حياتك». فإن تايجان لم يسمح له بالحديث... لربما كان قد سبق وسمع حكاية شيكيري، لذا لم يشأ أن يسمح له بالحديث، بل بادره هو بالقول «ماذا تريد ـ المال أم حياتي؟» فخذ ما تريد حياتي إن شئت أو المال.

«إني آتٍ من أجل المال»: قال اللص، وقد بدأ يشعر بالخوف لحسن حظه أنه لم يلتقِ تنيناً، بل بمن خيّره بين المال وحياته. كان تايجان مستعداً أن يعطي حياته، ولم لا؟ إنها أفضل طريقة لمقابلة الموت، لقد قدم حياته هدية لهذا الرجل الذي دخل عليه فجأة... الموت آت، أبينا أم شئنا... الموت آت، إذاً لندع هذا الآتي يتمتع بأخذ حياتي.

إني آت من أجل المال، قال اللص وقد بدأ يشعر بالخوف. تناول الكاهن محفظته وأعطاها للرجل قائلاً «هذه هي محفظتي» وعاد يتابع كتابة الرسالة وكأن شيئاً لم يحدث. شعر اللص بقشعريرة من البرد تسري في جسده وهو يخرج من الباب مسرعاً. «أنت انتظر دقيقة»: قال المعلم، وقف اللص مكانه مرتجفاً «ولماذا لم تقفل الباب خلفك؟» قال المعلم. وبعد أيام قبض على اللص فقال للمحقق «منذ سنوات وأنا أسرق، غير أني ما شعرت بالخوف الذي اعتراني حين سمعت الراهب البوذي يقول» أنت... انتظر دقيقة «كنت ما أزال أرتجف إنه رجل مخيف، ولن أنساه أبداً... ويوم خروجي من السجن سأذهب إليه مجدداً، لعمري ما قابلت رجلاً مثل هذا الرجل، كنت شاهراً خنجري ولم يخشَ... نظراته كانت سيفاً أمضى بكثير من الخنجر الذي بيدي».

حين تكون قريباً من كاهن قادر على قتلك... كيف يمكنك أن

تقتل راهباً؟ حتى ولو كنت تحمل سيفاً قاطعاً، ليس بمقدورك أن تقتل راهباً، على العكس فهو من قد يقتلك، إنما بطريقة جد ناعمة، تجعلك لا تعي كيف قتلت، بل تصبح واعياً فقط لولادتك من جديد... إن يوماً سيأتي لن تكون فيه الإنسان الذي كنته في ما مضى... إن يوماً سيأتي تشعر فيه أنك إنسان جديد. الطيور ترفرف حولك وتغرد، وتعود الأوراق تخضوضر على أغصان شجرة حياتك، والنهر الذي جفت ماؤه، عاد إلى الانسياب متجهاً نحو المحيط.

هاكم القصة التالية.

كاهن زن أودع السجن مرات عدة.

إنهم بشر مجانين، لكنهم لا يفعلون إلا ما هو جميل... «كاهن زن أودع السجن مرات عدة» لقد تعود أن يسرق أشياء تافهة. حتى جعل الجيران في حيرة من أمره، ويتساءلون عن الدوافع التي تدفعه إلى السرقة، حتى القاضي كان يتعجب... كان يتمنى أن يسمع منه كلمة «لم أسرق» ليطلق سراحه، لكنه ما أنكر فعل السرقة يوماً.

وأخيراً اجتمع الجيران وجاءوا إلى هذا الكاهن، قائلين: «نرجوك ألا تسرق بعد اليوم، لقد كبرنا في العمر، ونحن مستعدون لتلبية كل احتياجاتك، مهما كانت هذه الحاجات... إنما نرجوك لا تسرق بعد، إننا قلقون عليك، فلماذا تقوم بمثل هذه الأعمال؟».

ضحك الرجل العجوز وقال:

أنا أسرق بهدف الدخول إلى السجن، لأكون مع المساجين أوصل لهم الرسالة الداخلية... من سيقدم لهم المساعدة؟ في الخارج هناك آلاف الكهنة، إنما في السجن ليس هناك حتى كاهن واحد. فمن يرشد المساجين؟ إنها الطريق التي اخترتها، مساعدتهم، لذا،

بعد انتهاء فترة العقوبة وخروجي من السجن، أسرق مجدداً لأعود إلى السجن مجدداً بهدف «إكمال ما بدأت، في السجن، اكتشفت نفوساً طاهرة نقية، وربما أطهر وأنقى من الذين هم في الخارج».

حدث ذات مرة، أن واحداً من أصدقائي تبوأ مركز حاكم إحدى ولايات الهند، وسمح لي بدخول كافة السجون، الواقعة ضمن نطاق ولايته. صدقوني أني فوجئت... وجدت في السجن بشراً أكثر نقاوة من السياسيين، أكثر نقاوة من الناس الأثرياء، ومن أولئك الذين يدعون القداسة. وأنا أعرف العديد منهم في الهند... وإني لعلى يقين أن هؤلاء المدعي القداسة هم مضحكون لفرط سخافتهم وعدائيتهم... لقد وجدت في المجرمين نفوساً بريئة، لهذا أنا أتفهم ذاك الراهب الذي كان يسرق للدخول إلى السجن، بهدف إيصال رسالة الحب إلى من هم وراء القضبان.

الزن لا يعترفون بمبدأ التقييم... الزن يعترفون فقط بأمر واحد في العالم، ألا وهو التفهم، الوعي، ومن خلال الوعي تأتي البراءة والبراءة بريئة من الصالح والطالح معاً. الطهارة هي بكل بساطة الطهارة ولا تميز بين شيء وآخر.

القصة الأخيرة، هي قصة ريوكان، كان محباً للأطفال، يفعل كل شيء من أجل إسعادهم... هو بحد ذاته كان أشبه بطفل. كثيراً ما كان يتكلم عن الطفل يسوع، كان بريئاً إلى مستوى يصعب تصديقه. كان بريئاً إلى حدود السذاجة ما جعل الناس يعتقدون أنه مجنون صغير.

كان ريوكان يحب اللعب مع الأطفال. كان يلعب معهم لعبة «الغميضة» أو أي لعبة طفولية أخرى. ذات مساء كان دوره ليختبئ، وعلى بقية الأطفال البحث عنه واكتشاف مكان اختبائه... خبأ نفسه تحت كومة من القش، وبدأ الظلام يزحف،

دون أن يتمكن الأطفال من إيجاده، فتركوه حيث هو وعادوا إلى بيوتهم.

الزن يعترفون فقط بأمر واحد في العالم، ألا وهو التفهم، الوعي، ومن خلال الوعي تأتي البراءة والبراءة بريئة من الصالح والطالح معاً. الطهارة هي بكل بساطة الطهارة ولا تميز بين شيء وآخر.

باكراً، في اليوم التالي، جاء المزارع وأخذ يزيل كومة القش، فإذ به يجد ريوكان ما يزال مختبئاً حيث هو، فصاح به: «ريوكان... ما الذي تفعله هنا؟».

أجاب الكاهن ريوكان: «هس... لا ترفع صوتك لئلا يجدني الأطفال».

أمضى الليل كله تحت كومة القش بانتظار أن يجده الأطفال. هكذا براءة هي السمو والارتقاء نحو الألوهة، هذه البراءة، لا تميز بين الصالح والطالح، لا تمييز بين هذا العالم أو ذاك. هكذا براءة لا مثيل لها.

إن مثل هذه البراءة هي الأعمق في صلب كل الديانات.

الفهرس

هذا الكتاب

لا يزال أوشو، هذا المتنور، يقوم بضرباته العظيمة والملهمة في عملية الفهم وتفسير العمليات الحيوية لمشاعرنا الإنسانية وسلوكنا بشكل بسيط وواضح.

وفي كتابنا هذا «التسامح» يتناول أوشو، هذا المتصوف العظيم، طرق وأساليب العيش وينظر كعادته بتمعن بطبيعة التسامح بشكل جديد وجذري.

يعتبر أوشو أن أساس التسامح هو العاطفة ثم يبدأ بشرح معنى هذه الكلمة، فيرى أن الكثير من أعمال المسامحة مطبوع بحسّ خفي من الرغبة بعرفان الجميل، وأخرى ليس هدفها مساعدة الآخرين بل إجبارهم على التغيير.

كل هذا، يعبّر عنه أوشو، من خلال ذكر أمثال عدة عن حياة كلٍّ من السيد المسيح وبوذا، فيُظهر لنا كيف أن الطريق إلى التسامح ينبع من الداخل وبدايته هي من الشعور العميق بتقبل وحب الذات. عندها فقط، وبحسب قول أوشو، يصبح التسامح مزهراً ويتحول إلى طاقة شافية ومتجذرة بتقبل الآخر كيفما كان.

علي مولا


ISBN 9953821445
9 789953 821443


دار الخيال للطباعة والنشر والتوزيع
E-Mail: alkhayal@inco.com.lb